

الفضائل والقيم

لدى الشعوب القديمة ذوات الأديان الإنسانية

دكتور

جلال شمس الدين



الناشر

مؤسسة الثقافة الجامعية
٤٠ ش. سوثير - الإسكندرية - ليبيا - ٤٨٧٥٢٢٤



منتہی سورا الاز بکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

الفضائل والقيم

لدى الشعوب القديمة ذوات الأديان الإنسانية

الدكتور

جلال شمس الدين

الاسكندرية

الناشر

مؤسسة الثقافة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة

تليفاكس ٤٨٧٥٢٢٤ الاسكندرية

مقدمة الطبعة الثانية

طُبِعَ هذا الكتاب أول مرة عام ٢٠٠٥ ، وبعد أن خرج من المطبعة وقرأه بعض القريبين مني ، تبين لي أن هناك بعض المواضع التي أسيء تأويلها ، ونظرا لأن عدد النسخ كان قليلا ، فقد قمت على الفور بتعديلها ، غير أن بعض النسخ لم يشملها التعديل لسبب أو لآخر ، وقد اشتملت هذه الطبعة على التعديلات السابقة بطبيعة الحال مع بعض إضافات قليلة تزيد الأمر وضوحا .

أما أهم الآراء التي قيلت تعليقا على هذا الكتاب ، فقد ارتأى بعض القراء الذين أشرت إليهم أن الأقوام الذين لم يحظوا بدين إلهي ، لا يمكنهم أن يصنعوا فضائلهم وقيمهم بأنفسهم ، ولا بد أن تكون هذه الفضائل والقيم قد جاءت من السماء عن طريق أنبياء أوحى لهم وإن لم يصرح بأسمائهم في الكتب الإلهية ، واحتجوا على ذلك بقوله تعالى في القرآن الكريم : (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) (عائش ٧٨) (١) . غير أنه لم يتناه إلينا من المراجع التي أتاحت لنا ، أن حكيمًا من حكماء الديانات التي قدمناها في هذا الكتاب قال مثلا: إن الله قد أرسلني لأقول لكم كذا... ، أو إن الله قد أوحى إلي بكذا... ، أو إن الله قد أرسل إلي وحيه لكي أقول لكم كذا... ، مع أنه مكلف بهذا الإبلاغ حتى يحيى من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة . هكذا قال فقهاء الإسلام من المعتزلة^(٢) ، ولذلك فقد اعتبرنا أن كافة الأديان التي قدمناها في هذا الكتاب أديانا إنسانية - أي صنعها الإنسان بنفسه - وأن الفضائل والقيم التي دعت إليها هذه الأديان هي أيضا من صنع البشر .

اعترض بعض القراء^(٢) على قولي " إن الفضائل والقيم تكون تطورية أحيانا ، وإن كنا لا نستطيع أن نعمم ذلك على كل تطور يحدث في الأخلاق " (ص ٢١١) ،

(*) في حديث خاص مع بعض القريبين مني ، منهم الأستاذان كمال شمس الدين وجمال شمس الدين والأستاذتان لماتى شمس الدين ومنى شمس الدين الموجهتان بالتربية والتعليم والآسة نجلاء شمس الدين .
(١) للتفترقي ١٥٤
(٢) المهندس صلاح منجى في خطاب مطول أرسله لي وما عرضته أهم ما في هذا الخطاب .

لأن هذا التطور يهدم الثوابت من جهة ، وقد يسير على غير ما نشتهي من جهة أخرى .

أما بالنسبة لافتراض الثبات فى الفضائل والقيم ، فهذا مالا نراه، والذي نراه هو أنها نسبية متغيرة تتغير من زمن إلى زمن ومن شعب إلى شعب آخر ، وربما تمكنا من إثبات ذلك من خلال هذا الكتاب . أما بالنسبة للخوف من أن هذا التطور قد يسير على غير إرادتنا فيصل بنا إلى نوع من الإنحلال . فهذا ما يحدث فعلا فى الفترات التى تسود فيها الحروب والثورات والمجاعات وغير ذلك من المحن التى تصيب البشر من حين إلى حين ، إذ تتدهور الأخلاق فتختفى فضائل مثل التراحم والإحسان والأمانة والصدق . . . إلخ ، وتحل محلها فضائل أخرى مهجورة تمجد القسوة والاعتصاب والكذب والغدر ، وغير ذلك من الرذائل التى سبق أن هجرها نفس هؤلاء الناس ، ويظل الأمر كذلك إلى أن تنتهى هذه الظروف القاسية، فتهدأ النفوس، ويحتل كبح الجراح مكانه فى المجتمع مرة ثانية ، وتعود الأمور إلى سيرتها الأولى . وعلى أى حال أنا لم أقل "بتطورىة بعض الفضائل والقيم أحيانا "من باب ما ينبغى أن يكون ولكن من باب ما هو كائن بالفعل ومدعما بالأدلة التاريخية كما سوف يرى القارئ ص ٢١١ .

وقد ارتأى نفس القارئ أن الفضائل والقيم غريزية أو فطرية ، وبالطبع لن يكون للإنسان فضل فى إبداع فضائله وقيمته ، وهذه النظرية نجد جذورها عند ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) . وهى نظرية جذابة لولا أنها تواجه بعض الصعوبات؛ فإنا كانت الفضائل والقيم غريزية ، فكما أن الغرائز واحدة عند كل الناس فى كافة العصور وكافة البلدان ، فيجب أن تكون الفضائل والقيم واحدة هى أيضا عند كل الناس فى كافة العصور وكافة البلدان . ولكن هذا لم يحدث قط؛ فكل قوم لهم فضائلهم وقيمهم الخاصة بهم كما سوف يرى القارئ .

ومن الصعوبات أيضا أن الغرائز لا تُعَلَّم ، فنحن لا نُعَلِّمُ الطفل كيف يتلقى ثدى أمه ، ولا أحد يُعَلِّمُ الكتكوت كيف يكسر البيضة في تاريخ معين ليخرج منها . فطالما كان الأمر كذلك فكان ينبغي أن لا نعلم أبناءنا الفضائل والقيم ، ولكن ذلك لا يحدث أيضا، فما زلنا نقف لهم بالمرصاد لكي نقوم سلوكهم وانحرافاتهم ، فإذا ما رأيناهم يكذبون مثلا أو يدسون شيئا في جيوبهم ، خوفاً منهم من عاقبة الكذب أو من أخذهم أشياء لا تخصهم ، فالأطفال الآخرون مثلا لن يلعبوا معهم وغير ذلك ، وحثناهم على قول الصدق وعلى أن يرجعوا بأنفسهم الأشياء التي أخذوها إلى أماكنها . بل إننا إن لم نفعل ذلك كانت العواقب وخيمة بالتأكيد . فالفضائل والقيم تربوية ومكتسبة من المجتمع ، وتخضع لنظريات التعلم ، وأهمها الإشراف الكلاسيكي والإشراف الإجرائي وغير ذلك من النظريات . ولقد تعرضت نظرية الغرائز الفطرية كمحرك للسلوك الاجتماعي للنقد من بعض علماء الاجتماع : " فنحن نتصرف بشريا ليس بسبب غرائزنا ، أو نزعاتنا ، ولكن بسبب ثقافة المجتمع التي تلقيناها " (٣) . بل إن بعض العلماء يرى أن الغريزة نفسها التي يعتقد البعض أنها استقرت مع الإنسان منذ خلقه ، قد وُجِدَتْ لما تهيأت الظروف لوجودها عن طريق الإشراف الكلاسيكي ، فقد جاء في موسوعة كوليار (٤) ، مادة "ثقافة" culture : " إن استجابة معظم الكائنات للمثيرات أو لموقف ما، يعرف إلى حد كبير بالغريزة " . أي أن الغريزة التي كنا نظنها أصيلة في الإنسان ، هي أيضا متعلمة ومكتسبة عن طريق الإشراف .

وأخيرا ، لو نجح أصحاب هذه النظرية في أن يثبتوا أن الفضائل والقيم غريزية حقا وفطرية في الإنسان ، فإن ذلك سوف يجعل الإلزام الخلقى - وهو العامود الفقري للأخلاق - كائنا في الغريزة الخلقية ، مما يلغى المسؤولية

(٣) د محمد شحاتة ربيع ، تاريخ علم النفس ومدارسه ، ص ٣٧٩ ، دار الصحوة ، القاهرة ١٩٨٦ .

Collier's Encyclopedia

(٤)

الخلقية للإنسان ويصبح بمنجى عن المساءلة طالما أن الغرائز ليست من إنشائه ،
وعلى صاحب النظرية أن يبين لنا على من تقع المسؤولية الخلقية في هذه الحالة ؟
وقدم نفس القارئ نظرية أخرى شبيهة بالنظرية السابقة ، وإن كانت أكثر
جاذبية لأنها لاهوتية وذات منطق يبدو محكما . إذ تقرر هذه النظرية أنه طالما
أن الإنسان خليفة الله في الأرض بحكم قوله تعالى في القرآن الكريم : (وإذ قال
ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (البقرة ٣٠) ، " فلا بد أن يكون
الإنسان عظيمًا مستحقًا لدور الخلافة ، له من قوة الخلق والإبداع ما يتناسب مع
هذا الدور ، فلا بد أن يكون به قبس ممن منحه الخلافة " ، وطبعًا سوف يعمل
هذا القبس على إبداع الفضائل والقيم ولا يكون للإنسان فضل في إنشائها .
غير أن هناك أيضا بعض الصعوبات أمام هذه النظرية ؛ إذ رغم صدق هذه
المقدمات التي لا نشك فيها ، فقد يرى الله تعالى أن لا يمنح الإنسان مثل هذا
القبس ، ربما لأنه ظلوم جهول (الأحزاب ٧٢) أو لأنه عصى أمر ربه (طه ١٢١)
أو لغير ذلك من الأسباب . فمن يضمن لنا وجوده في الواقع ؟ وحتى لو تأكدنا
من وجوده ، فهل هو موجود بالتساوي لدى جميع الناس ؟ وهل له نفس الطبيعة كما
وكيفًا عند المعوقين ذهنيًا والمعتوهين والبُله ؟ أم هم محرومون من القبس الإلهي
لظروف تخصصهم رغم أنهم أحوج له من الأسوياء ؟ وحتى لو افترضنا أنه موجود
بالتساوي لدى جميع الأصحاء من الناس ، فلماذا وجد أناسٌ أشرارٌ مع أن لديهم
نفسَ القدر من القبس الموجود لدى الأخيار ؟ ولماذا تعطل القبس لديهم عن العمل
ولم يجبرهم على فعل الخير وينهاهم عن فعل الشر بما أنه إلهي ؟ أم أنه ليس لديه
القدرة على الإلزام الخلقى مع خطورة هذا الإلزام بالنسبة للأخلاق ؟ ثم أين كان
هذا القبس الإلهي حينما كان الإنسان يعيش مع غيره من الناس عيشة الهمجية
والاغتصاب وسفك الدماء منذ ملايين السنين أو حتى منذ عشرات الآلاف من
السنين ؟ أم أن هذا القبس لم يوجد إلا حديثًا ؟

وأما الصعوبة الأخيرة التي تواجه نظرية القبس الإلهي الأخلاقية ، فهي صعوبة عقائدية لا تخص الفلسفة الأخلاقية وإنما نريد فقط أن نشير إليها ، وهو أن بعض ذوى الرأي من أصحاب الأديان الإلهية قد يرفضون هذه النظرية لأنها أذخات في الدين عقيدة لم تكن فيه ؛ إذ القول بوجود "قبس إلهي" في الإنسان قد يلغى دور النبوة وبالتالي يلغى الأديان الإلهية ، فالإنسان - عن طريق هذا القبس - سوف يصبح قادرا على أن يصنع لنفسه تصورا صحيحا للألوهية وللكون ، ويستطيع عن طريقه أيضا أن يصل إلى الشريعة الصحيحة والفضائل والقيم بطبيعة الحال . . . إلى آخر الوظائف التي تقوم بها الأديان الإلهية ، ومن ثم يصبح في غير حاجة إلى الرسل . قد يقال إن هذا القبس ماهو إلا هَدْي إلهي يرشد الإنسان إلى الصواب والخطأ . والرد على ذلك : وما الذي جعل هذا القبس الإلهي يتوارثُ جيلا بعد جيل ولا يضيعُ أو يتشتتُ إلا أن يكون أفتوما إلهيا خالدا مع الزمن ؟

وبصرف النظر عن هذه الاعتراضات العقائدية فقد يستطيع صاحب النظرية أن يفندها عقائديا أيضا، غير أنه في جميع الأحوال عليه أن يثبت صدق النظرية باتساقها مع الواقع الإنساني وليس باستخدام المنطق ، فهو غير مجد هنا؛ إذ بتغيير المقدمات يمكن للمنطق أن يعطينا نتائج متضادة ؛ فبالمنطق أعطينا الإنسان قبسا إلهيا وبالمنطق حرمانه منه . وعليه أن يدلنا على من تقع المسؤولية الخلقية ، أعلى القبس ، الإلهي ؟ أم على الإنسان رغم أنه لا سلطان له على هذا القبس ؟

وأيا كان الأمر ، فسوف يجد القارئ في التمهيد عرضا موجزا لأهم المدارس الأخلاقية ومناقشة لها ، وله أن يختار منها ما يشاء ، أو يتحمل المشاق وينشئ لنفسه نظرية أخلاقية جديدة .

الفهرس

١	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى
١٠	تمهيد
١٨	الفصل الأول : الفضائل والقيم لدى المصريين القدماء وفراعنتهم.
٥٧	الفصل الثاني: الفضائل والقيم لدى الحيثيين والكنعانيين.
٦١	الفصل الثالث : الفضائل والقيم لدى البابليين والسومريين والآشوريين
٧٨	الفصل الرابع: الفضائل والقيم لدى الفرس.
٨٦	الفصل الخامس: الفضائل والقيم لدى الهندوس.
٩٨	الفصل السادس: الفضائل والقيم لدى البوذيين.
١٢٨	الفصل السابع: الفضائل والقيم لدى الكونفوشيوسيين.
١٣٨	الفصل الثامن: الفضائل والقيم لدى بعض حكماء الصين واليابان.
١٤٤	الفصل التاسع: الفضائل والقيم لدى اليونان.
١٧١	الفصل العاشر: الفضائل والقيم لدى الرومان.
١٨٣	الفصل الحادي عشر: الفضائل والقيم لدى العرب.
٢٠٧	الخاتمة.
٢١٥	المراجع.
٢١٨	كشاف الفضائل والقيم.

مقدمة الطبعة الأولى

يعتقد بعض نوى الديانات الإلهية أن مصدر الفضائل والقيم هو الدين الإلهي ، وأنه لولا هذا الدين الذي أنزل من السماء لكي يرشد الناس للفضائل والقيم لكانا ما زلنا نعيش في ظلام أخلاقي دامس ، وما عرفنا إلى الفضائل والقيم سبيلاً، وأن الشعوب القديمة التي حرمت من الأديان كانوا جميعاً محرومين من الحياة الخلقية، وأن أديانهم الوثنية لم تكن لتمييز بين الخير والشر، والجميع يعيشون في حياة بهيمية، ولا يحيون إلا من أجل اللذات، أو من أجل الإغارة على غيرهم من الشعوب لسببهم وسبب نساءهم واستحلال ممتلكاتهم، وأنهم كانوا في- أحسن أحوالهم- عاكفين على عبادة الأوثان.

فأصحاب الأديان الإنسانية يفتقرون إذن للفضائل والقيم، ومن ثم استحقوا أن ينظر إليهم بعض نوى الأديان الإلهية نظرة دونية.

ولقد عارض مؤرخ الأخلاق جيمس هنري برستيد الادعاء بأن الأخلاق انحدرت إلينا عن طريق الدين الإلهي فقط وأنه كان الطريق الوحيد لوصول الأخلاق إلينا، ففي كتابه " فجر الضمير " أثبت أن بداية نشأة "الضمير" ، ومن ثم الأخلاق بما تحتوي عليه من فضائل وقيم كان على يد المصريين القدماء هم وفراعنتهم، وبالتحديد منذ حوالي ٤٠٠٠ عام قبل ميلاد السيد المسيح، وألفي عام قبل نزول التوراة وهو أول الكتب الإلهية التي جاءت بالفضائل والقيم ولقد أثبت برستيد ذلك بأدلة تاريخية، وبالرجوع إلى وثائق مسجلة.

غير أن برستيد ادعى إدعاءً آخر، وإن لم يثبت تاريخياً الإثبات الكافي- وهو أن اكتشاف الأخلاق لا يمكن أن يكون نتيجة لتجارب أمة من البشر بعينها، بل نتيجة لتجارب وإلهامات العالم بأسره، إن جهل العالم بمدنيات الشرق القديم التي زالت منذ آلاف السنين، ثم ما وصل إلينا أخيراً من تاريخ هذه المدنيات، فإن أول أثر يخطر على البال- كما يقول برستيد- بعد هذا العرفان هو أن

نرفض ذلك المذهب اللاهوتى القائل بانفراد شعب واحد بالتمتع بالوحي الإلهى، وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا عدة قرون عن التعرف على ذلك التراث الخلقى الجليل الذى ورثناه عن تأملات وإلهامات العالم بأسره ، لا عن تاريخ أو تجارب أى أمة من البشر بعينها . وعلى ذلك فإن أعظم فائدة نجتبها من وراء الاهتمام إلى حقيقة تلك المدنيات الشرقية القديمة المقفودة هى أنها ردت إلينا تراثا عرضه عرض الأفق، وهو التراث الذى خلفته لنا حياة بنى الإنسان أجمعين، ففيه نجد أعظم وحي يخطر لنا، وبه يمكننا الآن أن نستدل على أن انبثاق إدراك الإنسان للمميزات التى تفرق بين السلوك الطيب والخاطئ ، إنما هو خطوة من خطى التاريخ ، نتيجة للخبرة الاجتماعية^(١) .

غير أن برستيد، بعد أن عرض للأخلاق عند المصريين القدماء عرضا مفصلا، استشهد فقط بإشارة سريعة إلى حضارات الكنعانيين والحيثيين والبابليين والفرس ، وهو عمل يتفق تماما مع هدفه من تأليف كتابه وهو إثبات أن فجر الضمير الإنسانى إنما بزغ فى مصر القديمة .

أما هدفنا من تأليف هذا الكتاب ، فهو أن نوسع من نطاق الدراسة التى قام بها برستيد فلا نجعلها منحصرة فى ثقافة المصريين القدماء والبابليين والحيثيين والكنعانيين والفرس فقط كما فعل برستيد ، بل نضيف إليها - مع ما سبق - بعض الديانات الإنسانية القديمة مثل الزرادشتية والهندوكية والبوذية . . . إلخ ، وبعض الثقافات القديمة أيضا مثل الثقافتين اليونانية والرومانية، وجميعها ثقافات تعرف القراءة والكتابة ولها تاريخ مكتوب مؤثق ، فيما عدا العرب الذين اعتمدنا على المحفوظ من أمثالهم وشعرهم ، بحيث تصبح هذه الدراسة بعد أن وسعنا نطاق الاستقراء فيها : البحث عن الفضائل والقيم لدى الشعوب القديمة ، والذى يهمنى أن لا تكون هذه الشعوب ذات علاقة بالوحي

فننظر لنرى هل لهذه الشعوب فضائل وقيم حقاً كذلك التي جاء بها الوحي أم لا، وطبعاً سوف يكون ذلك من خلال استقراء حضاراتهم بما فيها من دين أو أحداث تاريخية، أو سلوكيات اجتماعية . . . الخ ، المهم أن يكون ذلك عن طريق الاستقراء ودون أن نقطع مقدماً - باستخدام العقل كما فعل المعتزلة - بوجود الفضائل والقيم منبثة عن الوحي .

هذا وينبغي أن نلفت إلى شيء هام جداً، وهو أننا إذا كنا سنهتم في هذا الكتاب بتتبع تاريخ الفضائل والقيم لدى بعض الشعوب ذوات الديانات الإنسانية، فإن هذا لا يعني أن هذه الشعوب كانت تخلو من الرذائل بل كانت لهم رذائلهم وسخائمهم التي يألم الإنسان لها، غير أن بعض هذه الرذائل كانت عادات مألوفة لديهم، ولم يكن الضمير عندهم قد نضج النضج الكافي ليدركوا ما في هذه الرذائل من شر، يقول ديورانت " كل رذيلة كانت يوماً ما فضيلة ضرورية في تنازع البقاء ولم نسمها رذيلة إلا لأنها تلكأت في وجودها بعد زوال الظروف التي كانت تستلزم وجودها، فليست الرذيلة إذن ضرباً من السلوك الراقى، بل هي في العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذي حل مكانه سلوك جديد، فمن الغايات التي ينشد تحقيقها التشريع الخلقى، أن يوائم نزوات [أي متطلبات] الطبيعة البشرية التي لم تتغير، أو التي تتغير ببطء مع حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة" (٢) ومثال ذلك قسوة الرجل البدائي وميله إلى العدوان، فإن ذلك أمر طبيعي تحتمه طبيعة الحياة البدائية ذاتها، يقول ديورانت " وأما جرائم الافتتات والاعتداء، فهي قديمة قدم الجشع، فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة، قد روى الأرض بدماء البشر، لم ينج من ذلك جيل واحد من الأجيال، وغشى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام . كان الإنسان البدائي قاسياً

لأنه كان حتماً عليه أن يكون كذلك إذ علمته الحياة أن يكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً، وأن يكون له قلب يستسيغ القتل الطبيعي^(٣).

وفي الحقيقة، فإنه مهما كانت درجة رفضنا للردائل، وللشر عموماً، فإننا نستطيع القول أن هذه الردائل وما يكتنفها من شرور، هي الممهد الرئيسي لتوصلنا للفضائل، إذ لولا ما يكتنف هذه الردائل من شرور وآلام، لما رفضناها رنبذناها أصلاً، ولما توصلنا للفضائل التي تجنبنا تلك الشرور والآلام ومن المعروف أن " الألم " في الفلسفة الخلقية وعلم النفس، محرك هام للسلوك لكافة الكائنات الحية من الأميب إلى الإنسان.

فالفضائل والردائل إذن ليستا كذلك لوجود صفات ذاتية فيها كما اعتقد المثاليون اليونان، والمعتزلة من بعدهم، بل إن الفضائل فضائل والردائل ردائل لأن المجتمع أراد لهما ذلك. وهذا الرأي الذي توصل إليه ديوارنت لا بد أن ننظر إليه بعين الاهتمام، لأنه توصل إليه عن طريق استقرائه للتاريخ وليس نتيجة للتحليل العقلي كما يفعل فلاسفة الأخلاق.

على أننا نريد أن ننبه إلى شيء هام آخر، وهو أنه إذا كنا سوف نعرض في هذا الكتاب أحياناً نداء الحكماء إلى مريديهم والآباء إلى أبنائهم أن يتحلوا بما أمكنهم من الفضائل، فلا يعني هذا أن هذه الفضائل كانت وفقاً على هؤلاء الحكماء والآباء وسائر المصلحين، بل لقد كانت هذه الفضائل معروفة لدى الجميع في أزمانهم، ولم يفعل هؤلاء الدعاة إلى الأخلاق شيئاً سوى أنهم جمعوا هذه الفضائل والقيم وطالبوا محبيهم بالعمل بها بما لهم من سلطان أدبي في نفوسهم، وبما يضربونه من المثل الأعلى لأتباعهم. أي أن الفضائل والقيم ليست من "وضع" هؤلاء المصلحين كما اعتقد بعض العلماء، بل هي منتج اجتماعي لا يُعرف من وضعه كاللغة تماماً، وهي تتطور تماماً مثلما تتطور اللغة، فكما أن

لكل قوم لغتهم فأيضاً لكل قوم فضائلهم وقيمهم التي لا تنفصل عن ظروفهم الاجتماعية، بل الجغرافية والتاريخية أيضاً.

وعلى ذلك، فإننا إذا كنا نورد فضائل وقيم الشعوب ذوات الأديان الإنسانية، فإننا نورد هذه الفضائل والقيم ناظرين إليها بأعين هذه الشعوب وليس بأعيننا نحن، أو حتى ناظرين إليها نظرة معيارية، فالفضائل والقيم كما سوف نرى فيما بعد نسبية تماماً، وليس لها وجود خارجي مستقل مهما كانت شائعة، وعلى ذلك فإن بعض الفضائل والقيم هنا لا يقرها كاتب هذه السطور، ولكن المنهج المستخدم في هذا الكتاب وهو المنهج الوصفي، يحتم إيراد هذه الفضائل والقيم كما هي دون أن نطلق عليها تقيّماتنا الخاصة.

هذا ورغم أن هذا الكتاب غير مخصص للبحث في العقائد الدينية أصلاً، إلا أننا كنا نرى أحياناً أن وجود الفضائل والقيم عند شعب من الشعوب مرتبط أساساً بالعقيدة الدينية لدى هذا الشعب، على العكس من شعب آخر، فكان لابد من عرض تحليل موجز لعقائد الشعوب المختلفة لكي نبين المواضيع الأخلاقية بها أو ننوه بعدم وجودها.

هذا وسوف نفترض في هذا البحث -كمصادرة- أن القارئ على وعى تام بكافة الفضائل والقيم لدى الشعوب ذوات الأديان الإلهية المنزلة من الله ، فلا نقارن بينها وبين تلك التي لدى الأديان الإنسانية المصنوعة بمعرفة البشر ، وعلى القارئ أن يقوم بهذه المقارنة بنفسه .

هذا وقد استخدمنا مصطلح " أخلاق " هنا بمعناه الدارج أى " الفضائل والقيم " ، رغم أنه أوسع من هذا حيث أنه يشتمل - بالإضافة إلى ذلك - على كافة الخبرات الخلقية .

تمهيد

نبدأ هذا التمهيد بتعريف بعض الحدود التي جاءت بالعنوان، فالقيم values لها معنيان في هذا الكتاب، أما المعنى الأول فهو المبادئ أو القواعد norms, principles التي تحكم سلوك فرد معين أو جماعة معينة في عصر معين، مثل قولهم: ينبغي أن تكون كريماً مع الفقراء، أو ينبغي أن تكون أميناً مع الآخرين. فالمبادئ والقواعد تأمر، و لذلك فهي معيارية، وأما المعنى الثاني فهو أن تعني المثل العليا والغايات القصوى دون تحديد، كأن نتكلم عن "الخير" أو الفضيلة بصفة عامة دون أن نحدد ما هية هذا الخير أو ما هية هذه الفضيلة.

أما الفضائل virtues، فهي ما نمارسه بالفعل من سلوك مع الآخرين، فيقال مثلاً: فلان كريم مع الفقراء، أو فلان أمين مع الآخرين، فنحن لا نأمره بأن يكون كريماً، أو أميناً، بل نصفه بالكرم والأمانة لأنه سلك هذا السلوك فعلاً، ومن ثم فإنه إذا كانت المبادئ والقواعد معيارية، فإن الحديث عن الفضائل ذو طبيعة وصفية.

أما الدين الإنساني فهو من صنع البشر، أي غير موحى به من الله، وهو مجموعة من المعتقدات المقدسة، التي تدور حول السلوك وقد تفسر الكون، وتكون مصحوبة غالباً ببعض الطقوس التي يمارسها أصحاب هذا الدين. وقد يتخذ الدين الإنساني من الغيب محوراً له كما في الهندوكية والزرادشتية، وقد يعترف بالغيب ويقر وجوده ولكنه ينحيه جانباً كما في البوذية والكنفوشيوسية. والآن، ما هي علاقتنا بالفضائل والقيم؟ . . . قد تكون هذه العلاقة واحداً مما يلي: - أن نمارسها.

- أن نحث الآخرين على ممارستها.

- أن نصفها كما هي موجودة بالفعل فنقول مثلاً: هذه الجماعة تحسن

إلى الآخر، أو أن هذا الشعب يحترم المرأة ويأمر بعدم إهانتها.

- أن نُنظّر لها، فنتساءل عن مصدر الالتزام الخلفي ونحاول أن نحدده.
وهذا الكتاب معنى أساساً بوصف الفضائل والقيم لدى شعوب قديمة كما
يهتم- بإيجاز شديد- بالتظير لها، وليس التظير مطلوباً لذاته، ولكن لمجرد بيان
وجهة نظر الكاتب.

فلننظّر إذن ما هو مصدر الفضائل والقيم وكيف نشأت وما هي
محركاتها؟ تمثل الإجابة على هذا السؤال مبحثاً هاماً من مباحث الفلسفة الخلفية
وكذا علم الاجتماع، ومن الآراء التي قيلت في ذلك هو الرأي الذي قال به رجال
الدين عموماً خاصة علماء الدين الإسلامي فقد سبق أهل السلف وعلماء الحديث
في الإسلام متأخري علماء اللاهوت في الغرب ببضعة قرون من الزمان، حين
ردوا خيرية الأفعال ومثريتها إلى إرادة الله، فالخير ما حسنه الشرع وأثنى عليه،
والشر ما قبحه الشرع ونفر منه، ولو أمر الشارع بالكذب لكان خيراً، ولو نهى
عن الصدق لكان شراً، وليس ثمة فعل يمكن اعتباره خيراً في ذاته أو شراً في
ذاته، يشهد بهذا أن القتل ينم حين يقع بغير موجب، ويمتدح حين يكون
قصاصاً.. ولكن المعتزلة رفضوا هذا الرأي بنظريتهم في الحسن والقبح العقليين،
كما رفض أفلاطونيو كمبردج رأي علماء اللاهوت المشابه له، قال المعتزلة إن
في الأفعال خصائص ذاتية توجب اعتبارها خيراً أو شراً، والله يأمر بالخير لأنه
في ذاته حسن، وينهى عن الشر لأنه في ذاته قبيح، ومن أجل هذا استطاع العقل
بطبيعته أن يميز بين الخير والشر قبل أن يرد بهما شرع، وكان الإنسان مكلفاً
باتباع الدين ولو لم تبلغه رسالة^(١) فاقتربوا بذلك من أفلاطون ولرسطو وكافة
العقليين الذين قالوا بأن الفضائل والقيم يمكن إدراكها بالعقل وبأن لها وجوداً
واقعياً. أي أن المعتزلة جعلوا الأخلاق مستقلة عن الدين وفي نطاق إدراك
الإنسان قبل برستيد ، ولكنهم لم يقدموا الدليل على ذلك .

(١) للطويل ٣٠٨

أما عن ورود التكاليف " فهو أظاف للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة"^(٢)

وهذا الذي ذهب إليه المعتزلة والعقليون عامة وإن كان خطوة في الطريق الصحيح، غير أننا لا نذهب مذهبهم في رد الأخلاق إلى العقل، فلو كانت الفضائل والقيم ترجع إلى العقل حقاً، لعرفت بغتةً، ولكانت واحدة عند جميع الناس في كل العصور والأمكنة^(٣). غير أن اختلافها من قوم إلى قوم، ومن زمن إلى زمن كما سوف يبين من هذه الدراسة، ليشهد على أن الفضائل والقيم اجتماعية، ومن ثم إنسانية ونسبية وأنها ليست عقلية أو لها وجود مستقل خارج الإنسان، بل إنها من صنع يديه.

وإذا كان قولنا إن القيم والفضائل ليس لها وجود مستقل خارج الإنسان يعني أننا ننادي بالعبث واللامعقولية كما قرّر الدكتور زكريا إبراهيم^(٤)، فإن الأمر له وجه آخر، وهو أن الإنسان رغم هذا العبث واللامعقولية الوجوديين فعلاً في الواقع، أخذ على عاتقه أن يشيد عالمه بيديه، فيجعله عالماً معقولاً ثرياً بالمعاني، حافلاً بالفضائل والقيم التي هي من صنع يديه. وهذا - بلا شك - يعلى من شأن ذوى الأديان الإنسانية ويعيد إليهم كرامتهم التي سلبت منهم حيناً من الدهر عندما كانت مدنيتهم غائبة عنا، فالفرد منهم حين يفعل الخير يفعله إما لأنه نافع أو طبقاً للواجب أو لأن دينه الإنساني أمره بذلك، أو لغير ذلك من الأسباب، فالخير هو بحق " عملية جهد حر يقوم فيها الإنسان بالبحث عن القيم بوصفها غايات، ولا يمكن أن يكون هناك قهر أو إكراه على فعل الخير، لأن الخيرية لا بد من أن تكون وليدة الحرية^(٥)، " فالإنسان الفاضل هو ذلك الذي يستطيع أن يرتكب الخطيئة ولكنه لا يرتكبها posse peccare et non peccare^(٦)

(٢) التفتازاني ١٥٤ (٣) النظر زكريا [أ] ٦١ (٤) زكريا [أ] ١٥ (٥) زكريا [أ] ٣٢ (٦) زكريا [أ] ١١٨

وهناك رأي آخر لمصدر الأخلاق غير أن نردها إلى العقل أو الوحي، وهو رأي المدرسة الاجتماعية الفرنسية بأن الأخلاق اجتماعية ومن صنع المجتمع، ونحن نعتقد مثل إميل دور كايم (ت ١٩١٧) وليني بريل (ت ١٩٣٩) والمدرسة الاجتماعية عموماً، بأن الأخلاق ومثلها العليا هي " من صنف الظواهر الاجتماعية التي تنشأ باجتماع الناس بعضهم ببعض ولا تكون قط من صنع الأفراد، ويكون لها من السلطان أن تفرض نفسها على الفرد ولا تتأثر به، فهو يتلقى توجيهات المجتمع ويستجيب لها راضياً أو كارهاً. وبهذا تكون المثل العليا وليدة المجتمع وليست من صنع فلاسفة الأخلاق. وتمرد الأفراد عليها يؤدي إلى الإنحلال والفوضى، إذ ليست المثل [العليا] إلا تعبيراً عن رغبات الأفراد في إرضاء المجتمعات التي ينتمون إليها، ووظيفة علم الأخلاق أن يقوم بدراستها كما هي موجودة بالفعل عند جماعة ترتبط بزمانها ومكانها" (٧)

أما دليلنا على أن الأخلاق اجتماعية، وإن كان دليلاً عقلياً، هو أننا لا نستطيع أن نتصور وجود معنى لأي فضائل أو قيم لدى روبنسن كروزو* رغم تحليه بهما، إذ أن الصدق لديه، أو الكرم أو العفة أو الإحسان . . . الخ لن يكون لأي منها معنى بغير وجود شخص آخر. إذ مع من سيكون كريماً؟ ومع من يكون صادقاً؟ ومع من سيكون عفيفاً أو محسناً؟ ولكن متى وجد هذا الآخر حتى ولو كان إنساناً واحداً مثل " جمعة" الذي انقذه من أيدي أسريه، أصبح للفضائل والقيم معنى، بل إن هذه القيم والفضائل سوف يكون لها معنى حتماً، حتى ولو لم

(٧) الطويل ٢٥٢

* بطل قصة كان مسافراً في البحر مع جمع من الناس، ولجأه هبت عاصفة أغرقت السفينة فتعلق بلوح خشبي ولم يشعر إلا وهو ملقى على الشاطئ وحيداً، وبعد أن استكشف المكان تبين له أنه يعيش بمفرده في جزيرة مهجورة. وفي أحد الأيام هبط على الجزيرة مجموعة من الناس ومعهم شخص يريدون تقديمه قرباناً للكلية فأنقذ روبنسن كروزو، وأصبح تابعاً مخلصاً له، وأسماه جمعة.

يكن هذا الآخر إنسانا، وكان كلبا مثلا أو قطة، فسوف توجد لدى هذا الإنسان الوحيد عاطفتنا الشفقة والألفة، على الأقل، وسائر العواطف التي نكنها للحيوانات الأليفة، إذ سوف تصبح الفضائل المقابلة لهذه العواطف ذات معنى، وهناك من تمارس معه. فالفضائل والقيم لا بد لإعمالها من وجود الآخر، وهو دليل على أنها اجتماعية. ولعل ذلك هو نفسه ما عناه إميل دور كايم حين قال " إن الإنسان لم يصبح موجودا أخلاقيا إلا لأنه استطاع أن يعيش في جماعة، ولو أننا نجحنا في القضاء على الحياة الاجتماعية، لقضينا في الوقت نفسه على الحياة الخلقية لأنها عندئذ ستكون غير ذات موضوع^(٨)، ومن هنا نشأ قولهم "لا أخلاق بدون مجتمع".

غير أننا إذا كنا نتفق مع المدرسة الفرنسية في كل ما ذهبنا إليه من حيث اجتماعية الأخلاق، ولكننا - مع ذلك لا بد أن نوجد موضعا للفرد أن يؤثر في قيم الجماعة وفضائلها، إذ قد يتمرد بعضهم على قيمة اجتماعية بالية أو هزيلة، وهذا ما نشاهده في حياتنا العادية، فيواجه باستهجان المجتمع. غير أن إصراره على رفض هذه القيمة قد يصادفه النجاح، خاصة إذا كان هذا الشخص محبوبا في مجتمعه وذا خلق كريم، أو سلطان ونفوذ. ومع ذلك فقد يصادفه الإخفاق والفشل إذا كانت هذه القيمة - رغم هزالتها - راسخة في المجتمع، وهو في هذه الحالة لن يخسر خسرا تاما، فحسبه أن مهد لمن بعده في هدم هذه القيمة البالية.

وليس هدم القيم البالية هو فقط ما يهدف إليه الفرد، فقد يساهم الفرد في إنشاء قيمة جديدة في مجتمعه أو حتى يكتشفها أو بعث فضيلة موجلة فيقلده غيره، وقد تنتشر القيمة الجديدة في المجتمع بعد ذلك حتى تعمه كله، ومع ذلك فقد لا تجد هذه القيمة الجديدة موضعا لها في المجتمع، فتذوي وتموت ولا تكاد تفارق صاحبها غير أنه في كل الأحوال، فإن التفاعل بين الفرد والمجتمع في مجال

(٨) زكريا [أ] ٨٩

* يرى الدكتور زكريا إبراهيم أن الإنسان لا ينشئ القيم الخلقية ولكنه فقط يكتشفها، لأن هذه القيم لا بد أن تكون موجودة من قبل في المجتمع ولكنها ليست معروفة (٩) زكريا إبراهيم [أ] ١١٨

الفضائل والقيم مستمر باستمرار المجتمع ولا يمكن إنكاره أبدا لأننا نشاهده بأعيننا، والدليل على ذلك أيضا، هو ما نراه من تغير القيم في المجتمع الواحد من عصر إلى عصر، فإن ذلك يكون غالبا بفعل الأفراد، وإن لم يكن من السهل تحديد هؤلاء الأفراد في كل الأحوال. فالفضائل والقيم في نظرنا إنسانية اجتماعية، أي لا بد أن تنشأ في مجتمع إنساني، ويصنعها المجتمع، ويشارك الأفراد في صنعها، دون وعي منهم غالبا.

ما دام الأمر كذلك، أي ما دامت الفضائل والقيم إنسانية و اجتماعية، فلا بد بالضرورة أن تكون نسبية، لأن كل ما هو اجتماعي نسبي. غير أننا لن نعتد بهذا الدليل المنطقي، وإنما سوف يرى القارئ، في تضاعيف هذا الكتاب أن الفضائل والقيم نسبية فعلا.

بعد أن افترضنا أن الأخلاق اجتماعية وإنسانية ونسبية، فما هي المحركات المباشرة التي تحرك الإنسان ناحية الفضائل وتحثه على ممارسة القيم؟

في نظرنا أنه لا يمكن حصر هذه المحركات، ولكن يمكن حصر أغلبها، وهي في ظننا إما أن تكون الحب أو الواجب أو أو الضمير أو المنفعة. وربما يضيف غيرنا محركا أو محركات أخرى. وقد يكون المحرك للسلوك الخلقى واحدا من هذه المحركات بمفرده، وقد يكون المحرك الخلقى أكثر من واحد، فمن العيب تحديد محركات السلوك تحديدا صارما، فالحب الذي يكون لذات الآخر - أي دون أن يكون غاية لمنفعة ما - هو البيئة الصالحة التي تنطلق منها كافة القيم والفضائل بسهولة ويسر تجاه الآخرين، فيكفي أن تحب الآخر حتى تتدفق الفضائل والقيم نحوه، فأنت لن تشفق على الآخر إلا إذا أحببته، ولن تحسن إليه إلا إذا أحببته، وكل مثل ذلك في كافة الفضائل الأخرى. فالحب هو المحرك الأول للفضائل والقيم.

غير أنك قد تكره إنسانا ما، أو على أقل تقدير لا تكرهه ولا تحبه، ولا تربطك به صلة ما، عندئذ لن تكون فاضلا معه إلا بموجب مبدأ آخر هو مبدأ "الواجب"، إذ طبقا لمبدأ الواجب، ينبغي عليك أن تعامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملوك به*. نعم سوف تكون صادقا معهم، وسوف تحسن إليهم إن احتاجوا للإحسان وتمد إليهم يد المعونة إن كانوا في محنة، ولكن كل هذه الفضائل لن تصدر منك إلا استجابة لنداء الواجب وإرضاء للمجتمع. ولكن إذا حدثت استجابتك للآخرين في كل ما سبق بعيدا عن أعين الناس، فأنت الآن تخضع لسلطان الضمير. أما المنفعة، فبالإضافة إلى أنها تجعل السلوك النافع يحقق لنا مصلحة مباشرة فإنها تفيد كثيرا في تحريكنا بعيدا عن الفضائل التي لم تصبح نافعة لنا بعد ما تبين لنا عدم جدواها، وتحركنا تجاه فضائل أخرى أكثر نفعاً، فضائل القسوة والكذب والخداع والغدر التي كانت من ضمن معايير اليوناني الفاضل في عصر الأخيين مثلا، هجرها اليونانيون في عصر تال بعدما تبين لهم أن الرحمة والصدق والإحسان أكثر نفعاً.

وسواء الحب أو الواجب أو الضمير أو المنفعة أو أي محركات أخرى، فكل ذلك لم يوجد إلا داخل المجتمع وبسببه، فالحب اجتماعي بطبيعته لأنه موجه للأخر أو الآخرين، و"الواجب" يوجد بسبب زواجر المجتمع أو نواهيه التي يستجيب لها الإنسان خوفا من المجتمع، فإذا استقرت في وجدان الفرد بحيث أصبحت سلوكا تلقائيا لا يمكن تجنبه، أصبحت ضميرا والضمير هو صوت المجتمع ولكن داخل الفرد، أما المنفعة، وإن كانت ذات صبغة فردية، فلها أيضا صبغة اجتماعية حين تتجاوز مصلحة الفرد إلى مصلحة الجماعة.

* هذه القاعدة مشتقة منطقيا من الأمر المطلق لكانط وهو "افعل فقط طبقا للقاعدة التي تجعل في إمكانك أن تريد لها في عين الوقت أن تغدو قانونا كليا (كانط ٧٩)

كل ما سبق هو المبادئ أو المحركات المباشرة للفضائل والقيم في نظرنا؛ أما المحركات البعيدة أو القصوى أو غير المباشرة التي تقف وراء الحب أو الواجب أو الضمير، فقد تكون اللذة أو السعادة أو العقل. أو غير ذلك، كلها أو بعضها، إذ ليس من الحكمة أن تُردَّ المحركات غير المباشرة- أو حتى المحركات المباشرة- لمبدأ واحد كما اعتقد كثيرون من فلاسفة الأخلاق، قدماء ومحدثين، فقد يعمل أكثر من مبدأ واحد في نفس الوقت، وليس هناك ما يمنع ذلك، ولن نناقش هذه المبادئ القصوى لأن هذا يخرج بنا عن أهداف هذا الكتاب، وسنقتصر على دراسة المبادئ المباشرة فقط التي تحدثنا عنها منذ قليل، والتي تبين وجهة نظر الكاتب.

الفصل الأول

الفضائل والقيم

لدى المصريين القدماء وفراعنتهم

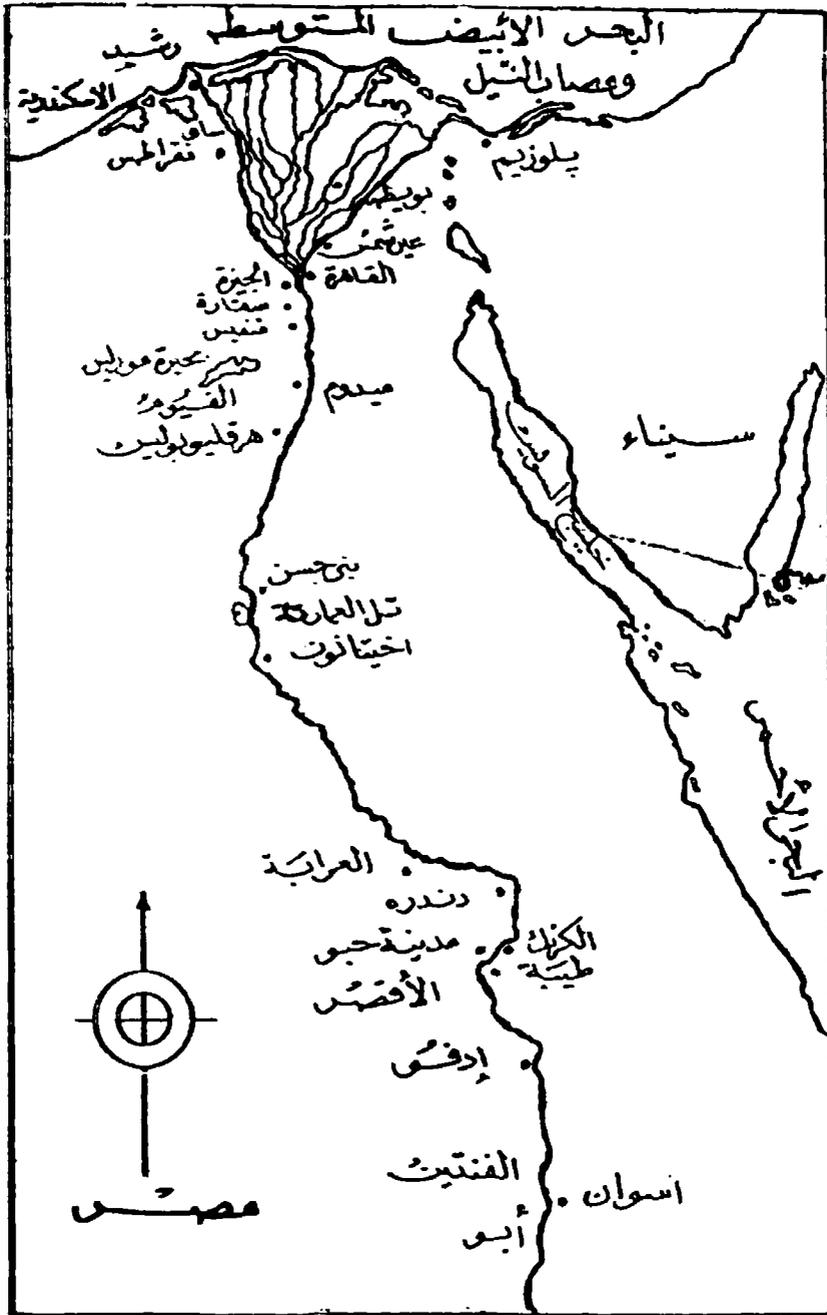
مقدمة:

من الخطأ أن نحدد الزمان والمكان لبداية ظهور الفضائل والقيم على أساس المصادر المكتوبة، فقد تكون هذه الفضائل والقيم قد وُجدت قبل ذلك لدى شعب آخر ولكنه لا يعرف الكتابة. ومع ذلك يمكن التأريخ لأول زمان ومكان لظهور الفضائل والقيم طبقاً للمصادر المكتوبة، دون أن نؤكد أن هذا التاريخ وهذا الموضوع هو أول ظهور لهذه الفضائل والقيم بإطلاق، بل هو أول ظهور لها مسجل كتابة. ولقد حدث ذلك بالتحديد عند المصريين القدماء وفراعنتهم^(١) يقول المؤرخ جيمس هنري برستيد " وإنه لمن الممتع حقاً أن نعرف الوقت الذي بدأت تظهر فيه نفس كلمة (أخلاق) أو (خلق) لأول مرة في كلام أبناء البشر. لقد بدأ ذلك في عصر الأهرام، وسرعان ما صارت متداولة في موضوعات التعليق والتأمل. ففي حُكْم بتاح حتب نرى ذلك الوزير الحكيم المسن يذكرُّ ابنه بأن الفضيلة في الابن لها قيمة عظيمة عند الوالد، وأن (الأخلاق) الحسنة شيء جدير بالذكر. وبذلك ينسب أقدم استعمال لتلك الكلمة إلى القرن السابع والعشرين ق.م. وبعد انقضاء نحو خمسة قرون على انقضاء ذلك العهد، نجدُها [أي كلمة أخلاق] في تلك النصائح التي وجهها أحد الفراعنة إلى ابنه مريكارعُ حيث يقول: "إن الله عز وجل هو الذي يعرف الأخلاق"^(١)؛

واضح أننا حين نبحث أبناءنا على التخلق بالأخلاق الفاضلة، فإننا في هذه الحالة "نشكّل" سلوكهم فعملية التربية الخلقية هي عملية "تشكيل". يحدثنا

(١) برستيد ٤٢٤

(٥) أي ملوكهم



خريطة مصر القديمة

برستيد أيضاً عن تاريخ هذه الكلمة، وكيف تطورت من أصلها الحسي البعيد إلى أصل معنوي، فمعنى كلمة (أخلاق) أو (خُلُق) مأخوذ من فعل معناه (يشكل) (يُكَوِّن) (يبني). وكانت تستعمل في عصر مبكر للدلالة بنوع خاص على العمل الذي يقوم به صانع الفخار أثناء تشكيله للأواني الصلصالية فوق عجلته، ثم أخذت هذه الكلمة تتطور بعد ذلك عند المصريين القدماء بعد أن خضعت لعمليات المجاز المعروفة في اللغة، والتي كانت تسير جنباً إلى جنب مع التطورات الاجتماعية حتى أفضت - كما يقول برستيد - إلى نظام جديد أبرزه أيضاً حكماء الأخلاق المصريون، وصار يعبر عندهم بكلمة (ماعت) التي يريدون بها (الحق) و (الاستقامة) و (العدل) و (الصدق) "وهذه الألفاظ مضافاً إليها (الضمير) و (الأخلاق) تعد آثاراً خالدة لذلك الانتقال الذي ظهر في الحياة فوق كوكبنا الأرضي، وقد ظهرت لنا ظهوراً تاريخياً عن طريق الوثائق المصرية القديمة التي دونت فيما بين سنتي ٣٠٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م. وفي هذا الانتقال التاريخي الذي حدث لأول مرة فوق كرتنا الأرضية - بل في الكون على ما نعلم - نجد أن المصريين هم الكاشفون للأخلاق" (٢)!

غير أن هذا الكشف المصري لم يستمر - لحسن الحظ - حكراً على المصريين وحدهم، بل انتقل إلى الكنعانيين أهل فلسطين، ومنها انتقل بعد ذلك إلى العبرانيين. يقول برستيد "وقد كان أعظم كشف جاوز حد المؤلف في هذه الناحية هو أننا عرفنا أن حكمة أمينموبي، التي حُفظت لنا في ورقة مصرية بالمتحف البريطاني، قد تُرجمت إلى العبرية في الأزمان الغابرة، وأنه بذيوها في فلسطين، صارت مصدراً استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال في التوراة . . . لقد أضاف هذا الكشف أهمية بعيدة المدى إلى الحقيقة القائلة بأن التقدم الحضاري في الممالك التي تحيط بفلسطين كان أقدم بعدة آلاف من السنين

(٢) برستيد ٤٢٤-٤٢٥

عن التقدم العبري، ولقد أصبح من الواضح الجلي أن التقدم الاجتماعي والخلقي الذي أحرزه البشر في وادي النيل الذي يعد أقدم من التقدم العبري بثلاثة آلاف سنة، قد ساهم مساهمة فعلية في تكوين الأدب العبري الذي نسميه نحن (التوراة)، وعلى ذلك فإن إرثنا الخلقي مشتق من ماضي إنساني واسع المدى أقدم بدرجة عظيمة من ماضي العبرانيين، وأن هذا الإرث لم ينحدر إلينا من العبرانيين بل جاء عن طريقهم، والواقع أن نهوض الإنسان إلى المثل الاجتماعية، قد حدث قبل أن يسبداً ما يسميه رجال اللاهوت بعصر الوحي بزمن طويل، وأن هذا النهوض نتيجة للخبرة الاجتماعية التي مارسها الإنسان نفسه ولم تزج إلى هذا العالم من الخارج. إن الحقيقة القائلة بأن أفكار الإنسان الأول الخلقية أتت نتيجة لخبرته الاجتماعية الشخصية، تعد من أعمق المعاني لرجال الفكر في عصرنا^(٣)، ولعل هذه الحقائق التي قررها برستيد من استقرائه للتاريخ، ومن استقرائنا نحن أيضاً لتاريخ الأخلاق، كما سوف يرى القارئ هو الذي يجعلنا نجهر بأن الأخلاق-أو الفضائل والقيم- اجتماعية وإنسانية في أصلها.

ظهور فكري السعادة والنعيم الأخرويتين وانهيار فكرة الأهرام

تمثل أهرامات الجيزة ذروة الاعتقاد في كفاءة العتاد المادي التامة لضمان سعادة المتوفى في الحياة الأخرى؛ فبتلك المباني الضخمة بالإضافة إلى فن التحنيط يتسنى للجثمان الملكي أن يقاوم بتلك الطريقة المادية المحضة عائلة كل الأبداء، ويقهر بتلك القوة الآلية الأسباب المانعة من الخلود، ثم تطور الأمر بعد ذلك من خلال أحداث كثيرة معقدة- كما يقول برستيد- واكتفوا بكتابة متون الأهرام منذ عهد آخر ملك في الأسرة الخامسة حوالي ٢٦٢٥ ق.م داخل أهرام صغيرة. وهذا مظهر على نشأة اعتقاد جديد بوجود السعادة والنعيم في الحياة

(٣) برستيد ١٢-١٣

الأخرى في مكان آخر، مما يؤكد إلى حد ما أن الأكوام من المباني لا يمكنها أن تهيب الإنسان الحياة الأبدية، بل يجب أن ينالها بروحانيته، وبذلك أوشك عصر الأخلاق أن يظهر ويلغي ما عمله بناء الأهرام^(٤) وهذا النعيم لن يُتحصل عليه- كما سوف يتضح- إلا في مملكة بعيدة مقصود بها السماء.

وهنا ينبغي أن نتوقف قليلا لنوضح للقارئ نقطة هامة في عقيدة المصريين القدماء؛ فلقد كانوا يؤمنون في مبدأ الأمر بالاهين، الإله آمون رع وهو إله الكون جميعا، وهناك إله أصغر مرتبة هو أوزير، وكان آمون مختصا برعاية الفراعين في السماء بعد الموت، أما أوزير فكان مختصا برعاية باقي البشر بعد الموت في العالم السفلي- أي تحت الأرض- ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما عرف المصريون فكرة الحساب في الآخرة، فأصبح الجميع يصعدون إلى السماء، وأصبح أوزير قاضيا يقضي بين البشر جميعا بين يدي آمون رع الإله الأوحد. وعلى ذلك فإن "المملكة البعيدة لا يراد بها- كما يقول برستيد- إلا السماء، وأن متون الأهرام لا تعرف شيئا تقريبا عن الحياة الأخروية المظلمة التي توجد في العالم السفلي، ولذلك فإن عالم الأموات عندهم لا يراد به إلا (العالم السماوي). على أنه لا يكاد يوجد شك في أن فكرة تصور جنة سماوية، وهي تلك الفكرة التي شاعت فيما بعد في العهد المسيحي^(٥) يرجع أصلها إلى نفس هذا الاعتقاد المصري القديم المتوغل في القدم^(٥).

الأسرة منبع الأخلاق عند المصريين القدماء، بداية ظهور الضمير:
بعد المسرحية المنفية^(٥٥) ومتون الأهرام وغير ذلك من المصادر الغزيرة، اكتشف بزستيد أن هذه المصادر تصور لنا الحياة في الأسرة عند قدماء المصريين

(٤) برستيد ٨٠-٨١ (٥) من المعروف أن فكرة الجنة السماوية غير معروفة في التوراة

(٥) برستيد ٨٩ (٥٥) هو تصوير محاكمة التي يقيمها الله للبشر بعد الموت فيهب الحياة للطيب والموت للخبيث، وكان ذلك عام ٣٥٠٠ ق.م. وسوف يرد ذكرها بالتفصيل بعد قليل.

بصورة لا تدع مجالاً للشك "في أنها- أي الأسرة- هي العامل الأول في ظهور الحياة الخلقية ونموها، فقد كان المصري في عصر الأهرام يشعر بوجود جو من الوازع الخلقى يزعه، حتى أن متون الأهرام قد أظهرت لنا الآن ذلك الوازع مطالاً على ما قد مضى من تلك العصور التي لم تكن تعرف معنى للخطيئة والشجار بين أفراد تلك الجماعة الأولى"^(٦)؛ فلقد أكد لنا أحد أشرف رجال الوجة القبلي الذي كان يعيش في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد ذلك المعنى، إذ قال في نقوش قبره بعد أن عدد لنا كثيراً من أعماله الطيبة: "إني لا أقول كذباً لأنني كنت إنساناً محبوباً من والده، ممدوحاً من والدته، حسن السلوك مع أخيه، ودوداً لأخته"^(٧). ولقد ظهر هذا الاعتراف بعد ذلك كثيراً في جبانات الأهرام وغيرها، فقد كان البر بالوالدين فضيلة من أهم الفضائل عند المصريين القدماء وفراعنتهم. وربما كانوا يستخدمون أحياناً كلمة الأخت لتعني الزوجة أيضاً.

هذا عن منبع الأخلاق عند المصريين القدماء، أما عند بداية تبلور هذه الأخلاق وتجليها في "الضمير" فلقد كان الضمير قبل العصر الإقطاعي- كما يقول برستيد- مسألة تتعلق بسلوك الفرد، غير أنه ما لبث بعد مجيء العصر الإقطاعي أن تحول الضمير إلى قوة اجتماعية ذات تأثير عظيم في الحياة الاجتماعية لأول مرة في التاريخ البشري. ومن الواضح- كما يقول برستيد- أن الملك، أي الفرعون قد صار منقاداً لنفوذ المفكرين الأخلاقيين في ذلك العصر، وأن سياسة العدالة الاجتماعية صارت تُكوّن جزءاً من هيكل النظام الحكومي، وقد انتهى عصر تلك الأيام الخالية التي كان يعتبر سلوك الإنسان الخلقى مرضياً إذا رضى عنه الأب والأم والأخوة والأخوات، وجاء العهد الذي يمكن أن

(٧) برستيد ١٣١

(٦) برستيد ١٣٠-١٣١

نسميه- كما يقول برستيد- عصر الضمير الاجتماعي، وهو الذي بحلوله بزغ عصر الأخلاق^(٨).

أي أن "عصر الضمير" عند برستيد هو عصر العدالة الاجتماعية. ومن الجدير بالذكر أن برستيد قد قلل كثيراً من قيمة قوانين حامورابي فيما بعد لأنها لا تحقق العدالة الاجتماعية.

ظهور المسؤولية الأخلاقية

وبظهور الدولة المصرية الحديثة ظهر تطور سريع وعميق يبين لنا شعور المصري المتزايد بمسئوليته الشخصية عن أخلاقه، وكان المصري آنذاك- كما يقول برستيد- يرى أن المسؤولية الخلقية تترتب بصفة قاطعة على إدراكه وفهمه الشخصي، غير أن مركز الإدراك- كما تصوره المصري القديم- هو القلب. ثم يوحد المصري القديم بين القلب والعقل والضمير، فالقلب [أي العقل] الواعي المتيقظ يكون سبباً في سعادة صاحبه. يقول برستيد " ففي عصر الأهرام وجدنا أن بتاح حتب، ذلك الوزير الحكيم المسن، كان يذكر القلب على أنه مركز المسؤولية والإرشاد، إذ قال (فيما سيلي ذكره): إن المستمع (يعني إلى النصيحة الطيبة) هو المرء الذي يحبه الإله، أما الذي لا يصغي فهو الذي يبغضه الإله، والقلب هو الذي يجعل صاحبه مصغياً أو غير مصغ. كما نجد في نصائح بتاح حتب أيضاً أن قلب الرجل قد صار دليله، بل في الواقع قد صار ضميره^(٩)!

أي أن المصري القديم وحد بين العقل والقلب والضمير.

ثم يعرض علينا برستيد ما توصل إليه من كل ذلك فيقول "حقاً إن آراء بتاح حتب عن القلب من حيث نعتة له بالمرشد الحكيم قد استمرت، إذ من خلال القرن الخامس عشر نرى أحد حجاب بلاط الفاتح تحتمس الثالث يذكر خدماته

(٩) برستيد ٢٧٠

(٨) برستيد ٢٢٦-٢٢٧

التي أداها للملك، فيقول: " لقد كان قلبي هو الوازع لأن أقوم بها، بإرشاده في شئوني، وكان كأنه شاهد ممتاز، فلم أهمل كلامه، وخشيت أن أتخطئ إرشاده، وبذلك كان الفلاح حليفي لدرجة عظيمة، وكنت بسبب ما أوحى إلي [أي قلبي] أن أعمله ناجحاً. وكنت بإرشاده نابهاً، تأمل . . . ، فقد قال القوم إنه وحي من الإله يوجد في كل إنسان، وأن من أرشده إلى الصراط السوي في انجاز العمل لسعيد، تأمل . . . فإني كنت هكذا" (١٠) ومعنى ذلك أن القلب عندهم هو ما نسميه نحن "الضمير".

ولكن كيف انتقل الوازع الباطني من الخوف من المجتمع- أو الملك- إلى أن أصبح الخوف من الله؟ يقول برستيد : " ولما انتقل الشعب المصري القديم إلى ألف السنة الأخيرة ق.م، كان نمو الضمير الذي تتبناه في نحو ألفي عام قد وصل إلى نهايته بتحقيق هذا الانتقال العميق العام، الذي كان يمهد لمجيئه من عدة قرون، فإن الوازع الباطني الذي نما في الأصل من المؤثرات الاجتماعية، ثم زاد تطوره خلال قرون مضت من التفكير العميق، قد صار المتعبدون يعترفون الآن من غير تحفظ بأنه [أي الوازع الباطني] أمر الإله نفسه، وقد رأينا أن هذه الفكرة قد ظهرت قبل ذلك بنحو ٥٠٠ سنة أي في بداية عهد الإمبراطورية المصرية، ولكن في هذا العصر الذي هو عصر الورع الشخصي، صار الضمير هو صوت الإله بدون أدنى شك، وذلك ما لم يحدث من قبل مطلقاً" (١١).

وإزاء ذلك لم يكن هناك بالطبع مجال لإخفاء الخطيئة أو إنكارها بعد وقوعها من المخطئ، وإذا كان المؤمن يشعر بأن كل أمره معلوم عند ربه، فقد أصبح يضع نفسه- بدون أدنى تحفظ- في يد الله المرشد والمهيمن على كل

(١١) السابق ٣٤٦

(١٠) برستيد ٢٧٠-٢٧١

حياته وخطواته، ومع أن رضاء المجتمع كان لا يزال أمراً هاماً ، وضغط المؤثرات الاجتماعية محسوساً، فإن ذلك صار في المرتبة الثانية إزاء الإله العليم بكل شيء. وهذا الوقت الجديد قد كُشِفَ لنا غطاؤه في رسالة عظيمة يمكننا أن نسميها حكَم أمينموبي، وبرديتها محفوظة الآن بالمتحف البريطاني^(١٢). ولا شك أن عبادة أوزير التي كانت آخذة في الازدياد- كما يقول برستيد- له علاقة عظيمة بانتشار الاقتناع- والذي صار الآن عاماً- بأن كل روح لابد أن تلقى ذلك الحساب الخلقى العسير الذي ينتظرها في الآخرة.

ظهور فكرة الإله الواحد وعلاقة ذلك بالأخلاق:

الواقع أن اللغة عند المصريين القدماء وكذا البابليين والآشوريين واليونان والرومان وغيرهم من الشعوب ذوات المدنات القديمة، لم تكن قد نضجت في العصور القديمة النضج الكافي كي تمدنا بمفهوم مثل مفهوم " الخلق " فكان يعبر عنه أحياناً " بالولادة " أو " الأبوة " كما لم تمدنا بكلمة " الملاك " فكانوا يستخدمون بدلاً من " الملائكة " كلمة " الآلهة " على أن يفهم من السياق أن هذه الآلهة كانت تخضع هي ذاتها للإله الواحد. والواقع أن كلمة " ملاك " التي ظهرت فيما بعد في بلاد ما بين النهرين وربما عند المجوس، قد حلت مشكلة كبيرة جداً وجبت في كافة الأديان القديمة تقريباً، فحلت الملائكة محل الآلهة الصغرى، كما حلت كلمة "خلق" محل كلمة "ولادة" وسوف نرى هاتين الكلمتين " الآلهة " و "الولادة" تترددان كثيراً في الديانة المصرية القديمة، وفي غيرها من الديانات جنباً إلى جنب مع وصف آمون "بالإله العظيم الذي تدين له سائر الآلهة" . . . " إنك انت الذى تشرف على كل الآلهة ولا يشرف عليك إله ما " (برستيد ٤٦) ويصف المصرى القديم الله بأنه "الواحد الأحد خلق كل موجود"

(١٢) برستيد ٣٤٦ وسليم ٢٣١/١٧

(برستيد ٣٣٥) • وما هي قصيدة بابلية لأحد الكهنة البابليين يستخدم فيها لفظى الأبوة والولادة إلى جانب لفظى الألوهية والخلق، إذ ما زالت المفاهيم مختلطة :

- أيها الأب الرحيم الشفيق الذى فى قبضته حياة الأرض قاطبة.
- أيها الرب ، ألوهيتك كالسماء العالفة .
- هو الذى يخلق الأرض ويؤسس المعابد ، ويسمى أسماءها .
- والوالد الذى يلد الآلهة والناس [أى يخلقهم] .
- من المعظم فى السماء . إنك أنت وحدك المعظم .
- ومن المعظم فوق الأرض . إنك أنت وحدك المعظم .
- وحين يتردد صدى كلمتك فى السماء، فإن آلهة [أى ملائكة] العالم العلوى يسجدون لك .

- وحين يتردد صدى كلمتك فوق الأرض ، فإن آلهة [أى ملائكة] العالم الدنىوى يقبلون الأرض لك . (انظر ص ٦٣-٦٤ من هذا الكتاب) .

مما يدل على أن المصرىين القدماء هم والبابليون وربما بعض الشعوب الأخرى يكونون بهذا الاعتبار من الموحدين ، وإن ظلوا من الوثىين .
أما عن علاقة فكرة الإله الواحد بالأخلاق فتظهر عند الحكيم أمينموبى، فالواقع أن أمينموبى كانت له رسالة يحملها إلى العالم، إذ أنه ترك النصائح العادفة ظهرفياً- كما يقول الدكتور سليم حسن- وأول ما يلفت نظر القارئ فى تعاليمه التى تتألف من ثلاثىن فصلاً شىئان هما: تدين هذا المؤلف واعتداله.

أما من الوجهة الدىنية، نجد المؤلف قد ذكر فى تعاليمه عدة آلهة مختلفة، وبالرغم من ذلك يدرك القارئ الذى ينظر بعين فاحصة، أن هناك قوة أخرى عظيمة خفية وراء تلك الأسماء الرمزية وهى الله العلى العظيم الذى لا إله غيره، إذ الواقع أننا نجد خلافاً لأسماء الآلهة التى جاء ذكرها فى التعاليم مثل (تحوت) و (خنوم) و (رننوت) وغيرها، أن أمينموبى يذكر لنا بصفة خاصة اسم

(الله) أو (الإله) وهذا يطابق تماماً- كما يقول الدكتور سليم حسن- ما جاء في الدين الإسلامي، مما يدل على أن أمينموبي كان لا يؤمن إلا بالله واحد، وعلى ذلك كان لكل فرد أن يصور هذا الإله في أية صورة شاء، "وقد لاحظنا في التعاليم السابقة التي فاه بها من سبقه من الحكماء ورجال الفكر، أن الصلاح كان فضيلة، وأن التفكير في الموت والأبدية كان حافزاً يدفع الإنسان إلى أن يسلك الصراط السوي في الحياة الدنيا مخافة الله، إذ أن الله هو الذي يُسعد ويعني، ولكن كان التدين في نظر أمينموبي يقوم بدور أعظم من ذلك، إذ كانت فكرة وجود الله في نظره هي المستوى الذي وضعه أمامه لفهم الحياة فأنه هو الذي يجب أن يكون مديراً لسكان (الدفة) سفينة الحياة، وهو رب الأرزاق، لذلك يجب على الإنسان ألا يخاف غيره، وأن الكمال لله وحده، وأن الإنسان هو المخطئ، والحساب ينتظر المخطئ"^(١٣) من كل ذلك يتبين أن أمينموبي قد توصل إلى فكرة الإله الواحد المجرد وفكرة الحساب في الآخرة، مما يعني ارتباط الأخلاق بالدين برباط وثيق.

الوازع الخلفي، معرفة الحق والباطل:

سبق أن ذكرنا في المقدمة، أن المصريين القدماء هم وفراعنتهم، كانوا أول الشعوب التي أدركت الوازع الخلفي. والآن نورد الدليل على ذلك، وهو تلك المحاكمة التي تُقام في الدار الآخرة لأصحاب الحقوق والمظالم التي ورد ذكرها في ثنايا مسرحية منف (٣٥٠٠ ق.م) ففي هذه المسرحية يهب الله الحياة للطيب والموت للخبيث، ولقد بدأت هذه المحاكمة بفكرة بسيطة ثم تطورت بعد ذلك لتأخذ شكلاً أكثر اكتمالاً، فلم تكن الفكرة في أقدم أشكالها تفترض حضور جميع الناس أمام المحكمة، وإنما كان يحضر أمامها الخصوم فقط لإصلاح الخطأ،

فكان في أوله الأمر لزاما على الشخص المتهم فقط أن يحضر أمام المحكمة في الحياة الآخرة ليظهر براءة نفسه، ثم ظهرت فكرة المحاكمة العامة بعد ذلك في باكورة العهد الإقطاعي حوالي عام ١٦٠٠ ق.م حيث لا تقتصر على حصر تفصيلي لكل المخالفات الخلقية، وإنما صارت امتحانا كُلقيا قاسيا، بل معيارا شاملا للقيمة الخلقية لحياة كل إنسان^(١٤).

ولقد كانت هذه المسرحية بداية لمعرفة المصريين لفكرتي الحق والباطل. غير أن هاتين الفكرتين لم تتشأ فجأة، بل جاءتا اشتقاقا من فكرة أخرى أسبق منهما وأكثر بساطة هي فكرتي "المحبوب والمكروه". يقول برستيد: "الواقع أنه في هذه المرحلة السحيقة من التقدم البشري أخذ الإنسان يدرك أن بعض السلوك ممدوح، وبعضه مذموم، وأن كل إنسان يعامل بحسب ذلك. فالحياة تُمنح للمسالمة (الذي يحمل السلام)، ويحيق الموت بالمجرم (الذي يحمل الجريمة). فالمسالمة في نظرهم هو الذي يفعل ما هو محبوب، والمجرم هو الذي يفعل ما هو مكروه.. وفي هذين التعبيرين (ما هو محبوب) و (ما هو مذموم أو مكروه)، نجد أقدم برهان عُرِف على مقدرة الإنسان على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيئ لأنهما ذُكرا هنا لأول مرة في تاريخ البشر. ولم يحل محلها كلمتا (الحق والباطل) إلا بعد ذلك بزمان طويل"^(١٥) إذ كان لابد كما يقول برستيد - " من الانتظار طويلا إلى أن تصبغ هذه الأفكار بصبغة إنسانية اجتماعية وتصير قوة اجتماعية عظيمة، مهدت لفاحة عصر الضمير والأخلاق بعد ذلك بعدة قرون"^(١٦).

والآن، وبعد أن انتهت هذه المقدمة الطويلة بعض الشيء، والتي يتبين منها ارتباط الدين عند المصريين القدماء بالفضائل والقيم ارتباطا وثيقا، ننتقل

(١٤) برستيد ٣٨ ، ٤٠ (١٥) السابق ٥٦-٥٧ (١٦) برستيد ٦٠

الآن لكي نتحدث بشيء من التفصيل عن تلك الفضائل والقيم.

العدل والأمانة والمساواة بين الناس والمهابة ،

من الفضائل والقيم التي كان يتحلى بها قدماء المصريين وفراعنتهم، وكانوا حساسين جدا تجاهها: "العدل" إذ كانوا يصرون على تحقيقه دائما، ففي خطاب الوزارة الذي كان يلقيه الفرعون بمناسبة تعيين الوزير [أي رئيس الوزراء حاليا]، كان فرعون مصر يعظ الوزير ويأمره بمراعاة العدل بين الناس وعدم إذلال الشعب أو مدهانة الأمراء والمستشارين والكبراء، أي أن فرعون مصر لم يكن غافلا عما قد يحدث من تجاوزات. يقول الفرعون لهذا الموظف الكبير " واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق. ،، واعلم أنها (يعني الوزارة) لا تعني إظهار احترام أشخاص الأمراء والمستشارين، وليس الغرض منها أن يتخذ بها الوزير لنفسه عبيدا من الشعب، واعلم أنه عندما يأتي إليك شك من الوجه القبلي أو الوجه البحري، أو من أي بقعة في البلاد، فعليك أن تطمئن إلى أن كل شيء يجري وفق القانون، وأن كل شيء قد تم حسب العرف الجاري، فتعطي كل ذي حق حقه. واعلم أن الأمير يمثل مكانة بارزة، وأن الماء والهواء يخبران بكل ما يفعله، واعلم أن كل ما يفعله لا يبقى مجهولا أبدا" (١٧).

ثم يحذر الوزير من الطغيان والتحيز قائلا " فلا تنس أن تحكم بالعدل لأن التحيز يعد طغيانا على الإله. وهذا هو التعليم (الذي أعلمك إياه) فاعمل وفقا له. وعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمقرب من الملك كالبعيد عنه، واعلم أن الأمير الذي يعمل بذلك سيتسمر هنا في هذا المكان. . . ولا تغضب على رجل لم تتحر الصواب في أمره" (١٨).

(١٧) برستيد ١٧

(١٨) برستيد ٢٢٤

ومن تعاليم أمينموبي لالتزام كبار الموظفين للعدل مع الجمهور:

- لا تفسدن رجلا في قاعة المحكمة [أي تجعله يشهد زورا].
- ولا تزعجن الرجل المحق [كي يعدل عن شهادته].
- ولا توجهن كل التفاتك إلى فرد قد لبس ملابس بيضاء.
- بل أقبله في خرقة الباليه.
- ولا تقبلن هدية رجل قوي.
- ولا تظلمن الضعيف من أجله.
- لأن العدل هبة عظيمة من الله.
- وسيعطيها من يشاء. (١٩)

ومن قيمهم أيضا مما يدخل في باب العدالة، تقديس الحق. يقول الحكيم بتاح حتب "إذا كنت حاكما تصدر الأوامر للشعب فابحث لنفسك عن كل سابقة حسنة، حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها. إن الحق جميل وقيمه خالدة، ولم يتزحزح من مكانه منذ خلق لأن العقاب يحل بمن يعيث بقوانينه، وقد تذهب المصائب بالثروة ولكن الحق لا يذهب، بل يمكث ويبقى" (٢٠). ثم يقول الحكيم بعد ذلك "إن الرجل الذي اتخذ العدالة معيارا له وسار وفقا لجادتها يكون ثابت المكانة" (٢١). ويعلق برستيد على هذا قائلا "ولا نزاع في أننا نجد في هذا الكلام نغمة الحكمة العبرانية كما وصلت إلينا في كتاب العهد القديم، وإن كانت حكمتنا (يريد حكمة بتاح حتب) أقدم من حكمة العبرانيين بألفي سنة" (٢٢).

وإذا كان بتاح حتب يهتم بالعدالة، فإن الحكيم المصري أمينموبي يهتم بها كذلك، غير أنه - في هذا الموضوع - يهتم بالمساواة بين الناس، فهذا وجه من وجوه العدالة، مما يعتبر البذرة الأولى للديمقراطية. فهو يحث ابنه على دماثة

الخلق مع الناس وعدم الاهتمام بالظاهر، وإذا كان مركز السلطة فلا ينحاز لعلية القوم:

- لا تجبرن رجلاً للذهاب إلى المحكمة [أي اعطه حقه فوراً]
- لأنك لن تجعل العدالة تلتوي.
- فلا يتجه وجهك نحو 'ملابس البراقة' (التي يلبسها خصم شخص آخر).
- بينما تطرد من تكون ملابسه قذرة باليه.
- لا تأخذن العطايا من القوي.
- ولا تضطهدن الضعيف من أجله.
- فالعدالة هبة عظيمة من الله يهبها من يشاء.
- فقرة من كان مثله (أي مثل الله).
- تتجى المكتتب من ضرباته (يعني ضربات القاضي).
- أعط المتاع أصحابه.
- وبذلك تبغي لنفسك الحياة.
- ومع أن قلبك يعمر في بيتهم (يعني في بيت الملاك الذي يحاييهم).
- يكون جسمك مصيره لمقصلة الجلاد^(٢٣)

ومن المظاهر التي تتجلى فيها العدالة، إعطاء الحق لأصحابه، خاصة لصانع القبور وعدم استغلال النفوذ، فهذا هو ذا أحد الموتى يقص علينا قصة تكليفه أحد المثالين لصناعة تمثال جنّازي له يوضع شاهداً على قبره. فيقول على قاعدة التمثال: "لقد طلبت إلى المثال أن ينحت لي هذه التماثيل، وقد كان مرتاحاً للأجر الذي دفعته إليه" ويقول مصري آخر يدعى (منى) في نقوش مأخوذة من مقبرته التي من عهد الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ - ٢٧٥٠ ق.م) ما

يأتي: "أما فيما يخص كل رجل عمل لي هذا (أي ساهم في إقامة هذا القبر)، فإنه لم يكن قط غير مرتاح، سواء كان صانعا أم حجّارا، فإني قد أرضيته"^(٢٤).

"فمن الواضح جدا أن كلا من ذينك الرجلين أراد أن يعلن أنه حصل على معداته الجنازية من طريق شريف، وأن كل من عمل في إعدادها قد حصل على حقه كاملا غير منقوص"^(٢٥)

من الغريب أن تكون المهابة قيمة مطلوبة في هذه العصور السحيقة، ومع ذلك فقد اهتم بها الفراعنة، إذ يجب أن يتحلى بها رجال دولتهم، شريطة أن لا يكتسب كبراء الدولة هذه المهابة بالطغيان والبطش بل بالتزامهم بالعدل، وحتى هذه المهابة ينبغي أن لا تزيد عن قدر معقول، فإذا زادت عن ذلك دلت على نقص صاحبها، وهي فضيلة أخرى إلى جانب العدالة، يقول فرعون مصر ناصحا رئيس وزرائه "اجعل نفسك مهيبا، ودع الناس يهابونك، والأمير لا يكون أميرا إلا إذا هابه الناس، واعلم أن الخوف من الأمير يأتي من إقامته العدل، واعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغي، دل ذلك على ناحية نقص فيه في نظر القوم"^(٢٦). ولا شك أن هذه النصائح من فرعون مصر إلى أمرائه ووزرائه، تبعد تهمة الطغيان عن هذا الفرعون.

بيد أنه لم يكن مطلوبا من الفرعون أن يقيم العدل بين رعيته فقط، بل كان مطلوبا منه أن يقيمه في السماء أيضا، فالفرعون الذي أعلنت براءته ورفيع إلى السماء، كان يستمر في إظهار نفس الصفات الحسنة في القيام بأعمال ملكه السماوي الذي يُسند إليه. وها هو نص يعرضه برستيد يوضح ذلك حيث يتحدث

(٢٥) برستيد ١٣٧

(٢٤) برستيد ١٣٧

* بإزاء هذه الحساسية تجاه بناقة القبور وضرورة أخذهم حقوقهم من أصحابها، فإن ذلك يوجب إلينا أنه من المستحيل أن يكون بنلك الأهرام قد تم بالسخرة.

(٢٦) برستيد ٢٢٤

النص عن أحد الفراعنة العادلين "إنه يقضي بالعدل أمام (رع) في يوم العيد (المسمى) رأس السنة، فالسما في سرور، والأرض في حبور حينما سمعنا أن الملك نِفِر كَارَعُ (بيبي الثاني) قد أقام العدل، والذين يجلسون مع الملك نِفِر كَارَعُ في قاعة العدل مرتاحون للقول الحق الذي خرج من فمه. ومما يلفت النظر أن الملك كان يقضي بتلك العدالة في حضرة رَعُ إله الشمس، وكذلك نجد تصريحاً شمسياً يؤكد أن الملك وناس قد أقام العدل فيها (أي في الجزيرة التي استقر بها) مكان الباطل"^(٢٧). ولقد كانت هذه المهمة التي يكلف بها الملك في الحياة الأخرى في حضرة آمون رع وهي إقامة العدالة، هي الوظيفة الوحيدة التي يضطلع الملك بها في الحياة الأخرى بين يدي آمون رع، ثم صارت في إحدى الوثائق لقباً ملكياً - يقول برستيد: "ونجد في القرن الثامن والعشرين ق.م أن أحد ألقاب الملك (وسر كاف) الرسمية (مقيم العدالة ماعت). وعلى ذلك نرى أن اعتبار الملك الراحل إلى السماء حاكماً بها، أي بالعدالة ماعت في الحياة الأخرى، إن هو إلا استقرار للنظام الخلقى الذي كان يرعاه فوق الأرض"^(٢٨).

وأظن أنه يحق لنا أن نستنتج من كل ذلك أن الفرعون لا بد أن يكون فاضلاً على الأرض حتى يستطيع أن يقوم بالمهام الجسام من إقامة العدل بين يدي آمون رع في السماء.

ومن نصائح أحد فراعنة مصر المجهول اسمه، إلى ابنه الملك مريكارغ، للسلوك الذي ينبغي عليه أن يتبعه عندما يحكم مصر: "أقم العدل لتوطيد مكانتك فوق الأرض، وواس الحزين ولا تسيء إلى الأرملة، ولا تحرم من رجلاً من ميراث والده"^(٢٩).

(٢٧) برستيد ١٤٢ (٢٨) برستيد ١٤٢

(٢٩) برستيد ١٩٦ وسليم ١٩٣/١٧

ومن نصائح بتاح حتب لابنه لإتباع العدل: "حصّل الأخلاق، واعمل على نشر العدالة، وبذلك تحيا ذريتك، إن الرجل الذي اتخذ العدالة معياراً له، وسار وفقاً لجادتها، ثابت المكانة"^(٣٠).

ننتقل الآن إلى قيمة الأمانة، فمن تعاليم أمينموبي التي يحث فيها على اتباع هذه القيمة:

- لا تزحزن الحد الفاصل (بين الحقول).
- ولا تحولن موقع ضبط المقياس.
- ولا تطمعن في ذراع أرض.
- ولا تقذفن بحدود الأرملة (أي لا تتعد عليها).
- وإن المكيال الذي يعطيك الله خير لك من خمسة آلاف تكسبها بالبغي.
- فإنها لا تمكث يوماً واحداً في المخزن ولا في الجرن^(٣١).
- ومن حثه على الأمانة أيضاً:
- لا تتلاعبن بكفتي الميزان ولا تطفف^(*) الموازين.
- ولا تنقصن من أجزاء مكاييل الغلال.
- ولا ترغبين في مكاييل الحقول (أي الضريبة).
- ثم تهمل مكاييل الخزانة.
- فإن الفرد يجلس بجوار الميزان (الإله تحوت).
- وقلبه اللسان (الميزان).

(٣٠) سليم ١٧/١٨٥

(٣١) سليم ١٧/٢٤١-٢٤٢

(*) المطفف في الموازين هو المتلاعب بها سواء بالزيادة أو النقصان.

- وأين يوجد إله عظيم مثل تحوت.
 - ولا تصنعن لنفسك موازين منقوصة.
 - وإذا رأيت إنساناً يغش.
 - وجب عليك أن تمر به مبتعداً.
 - واجتنب الكتان الجميل.
 - وما فائدة عبادة من نسيج "مك" إذا كانت ضلالاً أمام الله؟
 - وإذا كانت قشرة الذهب توضع فوق السبيكة لتظهرها ذهباً خالصاً.
 - فإنها في الفجر تكون من القصدير.
 - احذر إساءة استعمال مكاييل عين حور (وازيبت).
 - أو الغش في أجزائها.
 - ولا تكونن ظالماً مثل وبن تاخت.
 - ولا تجعلها خالية في باطنها (أي تجعل لها قعراً مغشوشاً).
 - وأوف مكيالها حسب حجمها بالدقة.
 - ويدك تكيل بالحق^(٣٢). (*) .
- ومما يدخل أيضاً في باب الأمانة ، الكتمان ؛ ولنستمع إلى نصائح أمينموبي:
- لا تصغين إلى أجوبة رجل شريف في بيت.
 - ثم تنشره إلى آخر في الخارج.
 - ولا تجلن كلامك يذاع في الخارج.
 - حتى لا يتألم قلبك.
 - وقلب الرجل (ضميره) هو منقار الإله تحوت.

(*) هذه الفضيلة وهي عدم الغش في الميزان بالذات ما زالت موجودة عند المصريين حتى

يومنا هذا، فحتى البائع الرديء جداً، يغش في أي شيء إلا الميزان.

(٣٢) سليم ١٧/٢٥١-٢٥٢

- فاحذر أن تهمله .

ولعله يكون قد اتضح للقارئ مدى اهتمام حكماء مصر وفراعنتها بالعدالة والأمانة، وسوف نجد فيما بعد أن هاتين الفضيلتين قد اشتركتا مع فضائل أخرى .
راحة الضمير :

نستطيع أن نقول مع قليل من المغامرة، أن راحة الضمير هي المنبع الذي يغذى الأخلاق بالحيوية والحركة، فلا عجب إذن أن يهتم بها المصريون القدماء وفراعنتهم، ومن أجمل أناشيد أمينموبى -فيما يرى برستيد - تلك الأنشودة التي يطلب فيها من ابنه أن يلتزم سواء السبيل حتى ينام خالى البال، فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد، ولا يعتقد أنه سيصل إلى الكمال، فالكمال لله وحده، ولا تعتقد أبدا أنك منزه عن الخطيئة، واترك أمرك لله معتمدا عليه . يقول أمينموبى الحكيم المصرى فى قصيدته :

- لاتم فى الليل وأنت خائف من الغد .

- لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا سيكون عليه الحال فى الغد .

- ولا تجهدن نفسك بإثارة النزاع .

- أما الخطيئة فأمرها عند الله .

- وهو الذى يختمها بإصبعه [أى الذى يحاسب عليها] .

- وليس فى يد الله إنسان كامل .

- ولا يقف العجز حائلا أمامه^(٣٤) .

ففى هذه القصيدة لا يعظ أمينموبى لراحة الضمير فقط، بل إنه كأنسان عميق التجربة، وخبير بدروب النفس البشرية، يدرك أن من أسباب عدم راحة البال - أو الضمير - هو شعور الإنسان بما قد يكون به من نقص، فهو يعالج هذا النقص بدقة بالغة ورهافة حس، حتى يأخذ بيد من ينصحه كي يسترجع ثقته

بنفسه ، فيرتاح ضميره ، ويذكره بأن الخطيئة أمرها عند الله ، أى أن الله هو الذى يراها، وهو الذى يحاسب عليها . ثم يقول بعد ذلك:

- ولا تجعلن من نفسك سِكاناً .

- فإن كان لسان الإنسان كسكان السفينة .

- فإن رب الجميع هو ربانها .

فالاعتماد على الله هو الراحة الحقيقية للضمير .

ومن مظاهر اهتمام المصريين القدماء بالضمير وراحته ، هو كتاب الموتى؛ وهو كتاب يوضع فى تابوت المتوفى، ولم يكن سوى إعلان عن راحة الضمير، حيث يعلن المتوفى ما يبرئه فى الآخرة يوم الحساب : " إني لم أقتل رجلاً ، إني لم أسرق، إني لم أتلصص ، إني لم أسرق امرأ ينتحب على متاعه ، ولم تكن ثروتى عظيمة إلا من ملكى الخاص ، إني لم أغتصب طعاماً ، إني لم أبعث الخوف ، إني لم أذك الشجار . . . " (٣٥)

الطهر والعفة والصدق والقناعة:

كان المصرى القديم يحرص على أن يكون طاهراً عفيفاً ، فلقد كانت خطيئة الزنا عند المصريين القدماء لا تغتفر، ونستنتج من النص التالى أن المرأة لا تجرأ أن تمارس هذه الخطيئة فى حيثها الذى تسكن فيه أو حتى فى بلادها بعيداً عن مسكنها، وإنما درجت على ممارستها فى أماكن بعيدة، لا تكون هى معروفة فيها. ولنستمع إلى الحكيم (أنى) وهو يعظ الشباب ويحذرهم من الزنا:

- احذر المرأة الأجنبية التى لا تعرف بلدتها .

- ولا تنظرنَّ إليها ولا تعرفنها فى جسدها .

- لأنها فيضان (من الشر) عظيم وعميق لا يعرف الرجل دورانه .

- والمرأة التي يكون زوجها بعيدا جدا تقول لك كل يوم إنى جميلة .
- وعندما تكون بعيدة عن الأعين تقف أمامك لتوقعك فى أحابيلها... يا لعظيم الجريمة التي تستحق الموت.
- عندما يرتكبها الإنسان و لو لم يعلم بذلك الملام.
- لأن الإنسان يسهل عليه بعد ارتكاب هذه الخطيئة أن يرتكب كل خطيئة^(٣٦).
- ومن العفة أيضا ، نصح أمينموبى لمن يعمل موظفا عند شريف :
- لا تطمعن فى متاع شريف .
- ولا تعطين مقدارا كبيرا من غذاء الخبز تذييراً.
- وإذا نصبك على إدارة أعماله ، فابتعد عما يخصه حتى يثمر ما تملكه.^(٣٧)
- ومن قيم بتاح حتب التي يحث بها على الصدق : " إذا كنت حاكما تصدر الأوامر للشعب ، فابحث لنفسك عن سابقة حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لاغبار عليها ، إن الصدق جميل وقيمه خالدة ، ولم يتزحزح عن مكانه منذ خلق ، لأن العقاب يحل بمن يعبث بقوانينه... وقد تذهب المصائب بالثروة، ولكن الصدق لا يذهب ، بل يبقى "^(٣٨)
- ومن قيم أمينموبى وحثه على الصدق أيضاً:
- قل الصدق أمام الشريف (القاضى).
- وألا يكون له سلطان على جسمك .
- فإذا حضرت فى اليوم التالى .
- فإنه يقبل كل ما تقوله^(٣٩).
- والواقع أن هذا هو ما يحدث حقا حينما يكون الشاهد صادقا . ومن حث أمينموبى على قول الصدق والتخويف من الشهادة الزور:

(٣٦) برستيد ٣٤٤ (٣٧) سليم ٢٤٩/١٧ (٣٨) سليم ١٨٤/١٧ (٣٩) سليم ٢٥٤/١٧

- لا تتكلمن مع إنسان كذبا .
 - فذلك ما يمقته الله .
 - ولا تفصلن قلبك [أى ضميرك] عن لسانك .
 - حتى تكون كل طرقك ناجحة .
 - وكن ثابتا أمام غيرك من الناس .
 - لأن الإنسان فى مأمن فى يد الله .
 - وإن الممقوت من الله من يزور فى كلام الناس .
 - لأن أكبر شيء يكرهه هو النفاق .^(٤٠)
- ومن الصدق أيضا عدم التملق ، لأن التملق نوع من الكذب . ينصح فرعون مصر [واسمه مجهول] ابنه الملك (مريكارع) ألا ينافق العظماء على حساب البسطاء من الناس فيقول له : " وعلى ألا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع ، بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفايته " ^(٤١).
- ومن الحث على العفة أيضا قول أمينمويي:
- لا تحترمن شخصا .
 - ولا تجهدن نفسك لتبحث عن يده (مساعدته).
 - إذا قال لك: خذ رشوة .
 - ولا تلقين بنظرك إلى أسفل.
 - وسلم عليه بفمك وقل له سلام عليك وعندما يقلع عن ذلك فإن موهبتك ستظهر ^(٤٢).
- والحكيم (أنى) يحث أيضا على العفة والأمانة:
- " لا تفرحن من أجل ثروة أتت عن طريق السرقة، ولا تتنن من الفقر " ^(٤٣).

(٤٠) سليم ٢٤٧/١٧ (٤١) سليم ١٩٢/١٧ (٤٢) سليم ١٧ / ٢٥٠ (٤٣) ٢٤٤/١٧

ومن مظاهر العفة أيضاً ذلك النقش الذي تركه الموظف (أميني) على باب مزار قبره ليقول لنا كيف كان عفيفاً عادلاً شفوفاً على مواطنيه، حيث كان فيما يبدو من الأمراء أو كبار الموظفين إذ يقول : "لا توجد بنت مواطن قد عبثت بها، ولا أرملة عذبتها، ولا فلاح طردته، ولا راع أقصيته، ولا رئيس خمسة سلبته رجاله مقابل ضرائب (يعني لم تسدد) ولا يوجد بئس بين عشيرتي ولا جائع في زماني وعندما كانت تحل بالبلاد سنون مجدبة، كنت أحرث كل حقول مقاطعة الغزال (يعني مقاطعته) إلى حدودها الجنوبية، وإلى حدودها الشمالية، محافظاً بذلك على حياة أهلها، ومقديماً لهم الطعام حتى أنه لم يوجد بها جائع قط، وقد أعطيت الأرملة مثل ذات البعل، وإنني لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الحقير في أي شيء أعطيته" (٤٤)!

ومن مظاهر العفة والطهر عند المصري القديم وعدم ارتكابه جريمة الزنا، ذلك الإعلان الذي سجله المتوفى في كتابه حيث يقول: "إنني لم ارتكب زنا مع امرأة، ولم ارتكب ما يندس عرضي" (٤٥)!

ورغم أن الوزير المسن بتاح حنّب يعلم جيداً قيمة الثروة، فإنه كان يرى من الواجب أن لا يطغى حب الثروة على روابط الأسرة، ولا يكون ذلك إلا بالتعفف فيعظ ابنه قائلاً: " لا تكونن شرها في القسمة، وانبذ الطمع حتى في حقلك، ولا تطمع في مال أقاربك، فإن التماس اللين يجدي أكثر من القوة...، وإن القليل الذي يؤخذ بالخداع يولد العداوة.. إذا أردت أن يكون خلقك محموداً، وأن تحرر نفسك من كل قبيح فاحذر الشراهة، فإنها مرض عضال لا يرجى شفاؤه والصدّاقة معها مستحيلة" (٤٦)!

(٤٤) برستيد ٢٢٨ (٤٥) برستيد ٢٧٥ (٤٦) برستيد ١٤٧ وسليم ١٨٣/١٧

والعفة من آداب تناول الطعام خاصة مع كبار القوم، يقول الحكيم بتاح حستب: "إذا اتفق إنك كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك (مقاماً) فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك، ولا تتظرنَّ إلا إلى ما وضع أمامك"^(٤٧).
والعفة أيضاً يجب أن تمتد لتشمل ما يمتلكه التابع أو الخادم، فلقد اختصَّ التابع بمكانة حميمة لذي المصريين القدماء. يقول أمينموبي:

- لا تطمعن في متاع تابع.
 - ولا تتطلعنَّ (جوعاً) لخبزه.
 - والواقع أن متاع التابع شجُّ للحلق.
 - ومقيئ للزور^(٤٨).
- وما زلنا مع أمينموبي في قيمه حيث يقول :
- لا تندفع بقلبك وراء الثروة.
 - فكل إنسان مقدر له ساعته.
 - ولا تجهدن نفسك في طلب المزيد.
 - عندما تكون قد حصلت (بالفعل) على حاجتك.
 - لأن الثروة لو أتت لك عن طريق السرقة.
 - فإنها لا تمكث معك (سواد) الليل.
 - إذ عند مطلع الفجر لا تكون في بيتك بعد^(٤٩).

المساواة أمام القانون الإلهي:

ولعل من القيم والفضائل التي يستحق المصريون القدماء أن يفخروا بها،

(٤٧) سليم ١٧٩/١٧ (٤٨) سليم ٢٤٨/١٧ (٤٩) سليم ١٤٣/١٧

المساواة أمام القانون، ونحن نرى هذه الفضيلة ماثرة في ثنايا الفضائل الأخرى، دليلاً على اهتمامهم بها، مما يجعلنا نقول أن المصريين القدماء، كانوا بفضيلتهم هذه هم الممهدون الأوائل لإقامة أهم أعمدة الديمقراطية. فبعد أن تطورت عقيدة أوزير واتحدت بعقيدة آمون في العهد الإقطاعي كما ذكرنا في مقدمة الفصل، وُضع (أوزير) و (رع) جنباً إلى جنب في التفكير الخلفي في ذلك العصر. ونحن نظن أن ما حدث من مساواة أوزير بآمون، هو ثورة اجتماعية خطيرة، لم تُرقَّ فيها قطرة دم واحدة، إذ لا بد أن يكون هناك مغزى حين يصعد إله الموتى من ساحة عامة الشعب من العالم السفلي إلى السماء لكي يصبح هو القاضي لكل الناس، الفقراء والفرعنة على حد سواء، وهو يقضي بين يدي الإله آمون وكما يقول برستيد: " كان لا بد في ذلك الوقت لكل عظيم وكل قوي أن ينتظر المحاكمة أمام محكمة العدل، على أن يكون ذلك على قدم المساواة مع الفقير ومن لا ناصر له في المعاملة وفي الأحكام، وتلك المعاملة لم تُذكر فقط في الاعتقادات الدينية والمبادئ الاجتماعية، بل ذُكرت كذلك رسمياً في السياسة الملكية، ولا يكاد يكون هناك أي شك في أن مثل تلك العقائد الخاصة بالعدالة الاجتماعية كما وجدناها في ذلك العصر^(٥٠) قد ساعدت مساعدة عظيمة على نمو الاقتناع بأن الإنسان الذي يصير مقبولاً أمام محكمة عدالة الإله العظيم، ليس هو الرجل الذي يكون صاحب سلطان وثروة، إنما هو رجل الحق والعدالة^(٥٠).

وبطبيعة الحال، ما دامت هذه هي سياسة الملوك الفرعنة، فمن الطبيعي أن يتأثر الكهنة الذين كانوا مشغولين باللاهوت في ذلك العصر تأثراً عظيماً بذلك الميل لتعميم المساواة بين الناس (أي نشر الديمقراطية) ويكشف لنا عن ذلك

(٥٠) على خلاف قانون هامورابي الذي كان يفرق بين الناس أمام القانون طبقاً لمراكزهم الاجتماعية كما سوف نرى في الفصل الخاص بالبابليين.

التأثر - كما يقول برستيد - خطاب أساسي هام موجه لإله الشمس عُثر عليه في متون التوابيت الخشبية التي يرجع تاريخها إلى ذلك العصر الإقطاعي إذ يقول: " لقد خَلَقَت الرياح الأربعة ليتنفس بها الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته، ولقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد، لقد خلقت كل رجل مثل أخيه وحرمت عليهم اتيانِ السوء، ولكن قلوبهم هي التي نكثت ما قلتها"^(٥١).
وواضح أن المساواة بين البشر عمود من عمُد الديمقراطية الحديثة، إن لم نقل أهم عُمدها.

ويقارن برستيد بين هذه النظرة للإنسان عند قدماء المصريين وفراعنتهم وبين قوانين حمورابي فيقول: "إن ظهور مثل تلك النظرة - إلى الإنسانية - التي قضت على كل الفوارق الاجتماعية في نظر الخالق العظيم عند خلقه الناس وجعلهم سواسية أمام المسئولية الخلقية يعد أمراً غريباً، ويزيد في غرابته ظهوره قبل عهد المسيح (عليه السلام) بألفي سنة، أي أنه كما تلاحظ كان معاصراً على وجه التقريب لعهد الملك حمورابي، الذي سن قانونه العظيم* إن كل العقوبات والأحكام القضائية، تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية." وبناءً على هذه التفرقة الاجتماعية، يغالي برستيد كثيراً فيقول: " وهذه الحقيقة تفسر لنا على الفور، السبب الذي من أجله نعتبر أن ما أضافته المدينة البابلية إلى إرثنا الخلقى في غرب آسيا في حكم العدم"^(٥٢)، فرغم هذه النقيصة، فلقد أضافت الحضارة البابلية إلى الإرث الخلقى الكثير من الفضائل والقيم كما سوف نرى في الفصل الخاص بالبابليين.

التواضع واكتساب محبة الناس واحترامهم:

ومن القيم التي بثها بتاح حنبل لابنه كي يُعده لأن يصبح وزيراً، هي قيمة التواضع، فينصحه بالألا يسئ استعمال الحكمة التي سيلقنه إياها بل عليه أن ينتهج سبيل التواضع، فيقول له: " ولا تكونن متكبراً بسبب معرفتك فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم بلغ في فنه حد الكمال، وإن الكلام الحسن أكثر اختفاءً من الحجر الأخضر الكريم [أي أكثر ندرة]، ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللاتي يعملن في إدارة حجر الطاحون" (٥٣).

ومن حكم المصريين القدماء، تلك التي تُذكرُ الإنسان بحاله قبل أن يصبح عظيماً: " إذا أصبحت عظيماً بعد أن كنت صغير القدر، وأصبحت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً، فلا تتسبن كيف كانت حالك من الزمن الماضي، ولا تفخر بثروتك التي أتت إليك منحة من الإله (أي الملك) فإنك لست بأفضل من غيرك، من أقرانك الذين حل بهم ذلك" (٥٤)، هذا بالإضافة إلى أن المصري القديم درج على أن يعلن في كتابه بعد الوفاة أنه لم يكن متكبراً (٥٥).

ومن نصائح فرعون مصر لابنه الفرعون المقبل مريكارع، أن يتحلى بالتواضع وعدم الغرور حيث يقول له: " ولا تضعن ثقك في طول العمر لأنهم (يعني القضاة) ينظرون إلى مدة الحياة كأنها ساعة واحدة، ولكن الإنسان يُبعث ثانية بعد الموت، وتوضع أعماله بجانبه كالجبال، لأن الخلود مثواه هناك (أي بالآخرة). والغبي من لا يكثرث لذلك، أما الإنسان الذي يصل إلى الآخرة دون أن يرتكب خطيئة فإنه سيثوى هناك، ويمشي مرحاً مثل الأرباب الخالدين (يعني الأبرار المتوفين)" (٥٦).

ومسن تعاليم كاجمني أحد حكماء مصر في الدولة القديمة: " والمتواضع يبقى صحيحاً، ومن يستقم في معاملته يُمدح، وتُفتح الخيمة للمتواضع، والحذر في كلامه يُفسح له مكان رحب، ولكن السكين تُرهب لمن يحيد عن الصراط"^(٥٧). ولا شك أن "التواضع" سوف يقود إلى فضائل أخرى، وهي اكتساب احترام الناس ومحبتهم، فلقد ذكرنا فيما سبق كيف أن الفرعون طلب من أمرائه أن يكونوا ذوي مهابة، ولكنه حدد لهم العدل طريقاً للحصول على هذه المهابة، أما هذه المرة فسوف نرى الحكيم أمينموبي يحث ابنه على أن يحصل ليس على مهابة الناس له، بل على احترامهم ومحبتهم فهما أفضل من الخزائن المملوءة بالمال. يقول أمينموبي لابنه:

- وخير لك المدح (تتاله) كفرد يحبه الناس.
- من الثروة (المجموعة) في الخزائن.
- وذلك لأن الغنى مع الضمير الشاعر بالذنب لا قيمة له.
- وما فائدة الملابس الجميلة.
- إذا كان الإنسان باغياً (متعدياً على غيره) أمام الله؟^(٥٨)

الشفقة والتراحم والتعاطف:

اهتم التطوريون من فلاسفة الأخلاق بهذه الفضائل بالذات، فهي عند سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) القوة المحركة لتكيف الإنسان مع الظروف، وبخاصة التغير من الحياة الوحشية إلى الحياة المدنية المستقرة، وفي هذا التكيف يطمع الإنسان صفات الأنانية القديمة ليطور صفات أخرى بواسطة ما عنده من مبدأ التعاطف (الموسوعة مادة سبنسر) .

ولقد اهتم المصري القديم أيضاً بفضيلتي الشفقة على الآخرين والتراحم بهم والتعاطف معهم، خاصة الضعفاء والفقراء. فلقد ترك أحد حكام المقاطعات ممن عاشوا في القرن السابع والعشرين ق.م البيان التالي عن حياته الصالحة حيث يقول: "لقد أعطيت خبزاً لكل الجائعين في جبل الثعبان (ضيعته)، وكسوت من كان عرياناً فيها، وملأت الشواطئ بالماشية الكبيرة، وأراضيها المنخفضة بالماشية الصغيرة، وأشبعت كل ذئب الجبل وطيور السماء بلحوم الحيوان الصغير. . ولم أظلم أحداً قط في ممتلكاته، حتى يدعو ذلك لأن يشكوني لإله مدينتي، ولكني قلت وتحدثت بما هو خير . . ،، وإني لم أنطق كذباً لإني كنت امرءاً محبوباً من والده، ممدوحاً من والدته رفيع الأخلاق مع أخيه ودوداً [لأخته]"^(٥٩).

ومن قيم أمينموبي حثه على الشفقة بالفقراء حيث يقول:

- لا تمنع أناساً من عبور النهر.
 - عندما يكون في قاربك مكان .
 - ولا تصنع لنفسك قارباً.
 - ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره.
 - خذ الأجر من الرجل صاحب الثروة.
 - ورحب بمن لا يملك شيئاً^(٦٠).
- ومن قيمه أيضاً التي يحث عليها: الطيبة:
- ضع طبيبتك في جوف الناس (في أعماق نفوسهم).
 - حتى يحييك كل إنسان^(٦١).

ومن قيم الشفقة تلك القيمة التي يأمر بتاح حتب أتباعه بها، وإن كان يوجهها إلى الحكام ومن بيدهم الأمر، ولا بأس بذلك إذ أنهم أولى بها. يقول بتاح: "إذا كنت حاكماً فكن شقيقاً حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تسيء معاملته إلى أن يغسل بطنه (أي يبوح بكل ما في صدره)، وإلى أن يقول ما جاء من أجله . وأنها لفضيلة للقلب أن يستمع مشفقاً"^(٦٢)، وهذه القيمة وإن كانت تدخل في باب الشفقة، ولكنها سوف تؤدي حتماً على تحقيق العدالة في نفس الوقت.

آداب المجتمع :

ارتبطت الحضارة المصرية القديمة بالفرعون وبالدولة عموماً، وكانت "لدولة" قداسة في قلوب المصريين، لذلك فلا عجب أن تقابلنا بعض القيم التي تدور كلها حول مفهوم الدولة ومفهوم الرؤساء وآداب الكلام في مجالس كبار رجال الدولة، وفي المناسبات الاجتماعية عموماً.

فمن القيم الأخلاقية التي كان قدماء المصريين يحتفون بها ويعلمونها لأبنائهم، قيمة الصمت وقلة الكلام، وسوف نرى هذه القيمة عند البوذيين فيما بعد، يقول الحكيم : " لا تكن كثير الكلام فبالصمت تنال الخير، أما من جهة أمر الإله، فلعنته في رفع الصوت، تعبّد بقلب سليم كل كلمة من كلماته باطنة، فبذلك تنال ما تحتاجه ويسمع كلماتك، ويتقبل قربانك"^(٦٣).

ومن ذلك أيضاً: "أنتِ أيتها البئر العذبة للصادي في الصحراء - إنها موصدة لا تُفتح للثرثار - ولكنها مفتوحة للصامت، فأينما يأتي الصامت يجد البئر"^(٦٤). وهو نداء صوفي فيه رمز أكثر من التصريح.

وبطبيعة الحال كانت هذه القيمة من ضمن القيم التي كان بتاح حتب يعلمها لابنه، غير أنه لم يكن يطلب الصمت كقيمة مطلقة، ولكنه كان يفضلها على

الكلام الأحمق المنقول عن الغير. فيقول لابنه: " ولا تعيدن قط كلمات حمقاء خرجت من غيرك في ساعة غضب والزم الصمت، فإنه أحسن من أزهار تفتت، وتكلم فقط إذا كنت تعلم أنك ستحل العضلات" (٦٥).

ويؤكد بتاح حنّب في حكمه وجوب مراعاة حُسن الذوق واستعمال الذهن الذي أطلق عليه كالمعتاد كلمة (القلب) (٦٥)، فأفضل الصفات التي يجب على الشاب أن يتحلى بها أن يكون قادراً على الإصغاء أو الطاعة، فنجده يقول: "إن المستمع هو الذي يحبه الإله أما الذي لا يستمع فإنه هو الذي يبغضه الإله. والعقل (القلب حسب النص الأصلي) هو الذي يجعل صاحبه مستمعاً أو غير مستمع، إن ثروة المرء العظيمة هي عقله، فما أفضل الابن عندما يصغي لأبيه، والابن إذا وعى لما يلقيه عليه والده، فإنه لن يخيب في مشروع من مشروعاته" (٦٦).

ومن القيم المرتبطة أيضاً بالدولة، احترام الرؤساء حتى لو كانوا من أصل وضيع، وهي كما ترى ذات طابع نفعي عملي. يقول بتاح حنّب لابنه: "إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة، واحترمه طبقاً لما وصل إليه لأن الثمرة لا تأتي عفواً" (٦٧). فبتاح حنّب يعلم بخالص حكمته أن هذا الرئيس ذا الأصل الوضيع لم يصل إلى مرتبته هكذا فجأة، بل لابد قد وصل إليها بعد جهد وكفاح مريرين (الثمره لا تأتي عفواً) لذلك فهو يستحق الاحترام.

ومن القيم المرتبطة بالدولة وذوي النفوذ هو ألا تبحث - كما يحدث أمينموبي - عن عليّة القوم كي تستظهر بهم ضد الأقوياء من أعدائك، بل اصبر

(٦٥) برستيد ١٤٤-١٤٥

(*) لقد وحد المصريون القدماء بين العقل والقلب والضمير كما ذكرنا سابقاً.

(٦٧) برستيد ١٤٤

(٦٦) برستيد ١٤٣-١٤٤

- عليهم - أي أعداءك - في صمت، ولن يتركك الله إلا بعد أن يعطيك حثك:
- لا تقولن إني وجدت رئيساً قوياً.
 - والآن يمكنني أن أهاجم رجلاً في مدينتك.
 - ولا تقولن إني وجدت حامياً.
 - والآن يمكنني أن أهاجم الرجل الممقوت.
 - فالحقيقة أنك لا تعلم تدبير الله.
 - وأنك لا تدرك الغد. ضع نفسك بين يدي الله.
 - إلى أن يهزمهم صمتك^(٦٨).

ومن القيم الذي ينبغي أن يستجيب المصري القديم لها إذا جلس للطعام مع كبار القوم، هو ما يوصي به بتاح حتب فيقول: " إذا اتفق أنك كنت بين الجالسين على مائدة أكبر منك (مقاماً)، فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك ولا تنتظرن إلا إلى ما وضع أمامك، ولا تصوبن [النظر] لحظات كثيرة إليه لأن ذلك مما تشمئز منه النفس (كا) إذا أحفظها الإنسان، وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك، وتكلم فقط بعد أن يرحب بك، واضحك حينما يضحك، فإن ذلك سيكون ساراً لقلبه"^(٦٩). ولقد سبق أن رأينا هذه القيمة سيلاً إلى العفة.

وإلى جانب هذه القيم التي تمارس مع كبار القوم، هناك مجموعة أخرى من القيم التي ينبغي ممارستها في المجتمع العادي بصفة عامة؛ فمن آداب الطعام ينصح (كاجمني) الضيف قائلاً: " إذا جلست مع أناس كثيرين (للأكل) فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة وإن كنت تشتهييه، فإن ضبط النفس لا يكلف الإنسان أكثر من لحظة، وإنه لمن العار أن يكون الإنسان شرهاً، فقدح ماء يروي الغلة"^(٧٠)، وهي قيم تقوم جميعها على ضبط النفس والسيطرة عليها.

(٧٠) سليم ١٧/١٧٨٨

(٦٩) سليم ١٧/١٧٩

(٦٨) برستيد ٢٤٩-٣٥٠

ومن آداب المجتمع احترام أسرار البيوت التي ندخلها يقول الحكيم (أني): " لا تدخلن بيت غيرك، ولا تمعنن في النظر إلى الشيء المنتقد في بيته إذ يمكن لعينيك أن تراه، ولكن الزم الصمت، ولا تتحدثن عنه لآخر في الخارج حتى لا تصبح جريمة كبرى تستحق الإعدام عندما تُسمع" (٧١).

وفي نصيحة أخرى لنفس الحكيم أني يقول " لا تذهبن إلى بيت إنسان بحرية، بل ادخله فقط عندما يؤذن لك، وحينما يقول هو لك (أي رب البيت) أهلاً بك بفمه" (٧٢).

طيب الذكر:

الحضارة المصرية القديمة- كما هو معروف- حضارة دينية، قامت حول تقديس الإله وتقديس الفرعون وتقديس الحياة الأخرى، ورغم ذلك قد تكون هناك أحياناً فترات من الانحلال التي تنتج من ثورات اجتماعية، وقد حدث مرة أن طال هذا الانحلال عقيدة المصريين وساد الشك حياتهم فأصبحوا يشكون في وجود حياة أخرى. وكان المصري القديم في فترات الإيمان شغوفاً بحب الخير وبطيب الذكر، فهو يقيم الشواهد على قبره ويكتب عليها أنه كان محسناً كريماً محباً لأبيه. الخ مستبعداً كل الصفات الذميمة، كل ذلك طلباً لطيب الذكر، غير أن هذه الصفات لم تفارقه أبداً حتى في فترات الانحلال والشك في حياة أخرى فحتى في عصر الشك الذي ساد فترة حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م حيث شك المصريون القدماء في الحياة الأخرى وفي البعث. كان المصري القديم يدعو لأن يكون صاحب اسم له ذكرى طيبة عطرة تبقى إلى الأبد. فلننظر إلى بعض ما جاء في أحد الأناشيد التي عُثر عليها في قبر كاهن آمون (نفر حتب) في طيبة، اسمع للمتشكك وهو يدعو للانغماس في اللذات ويقول:

- أتريد أن تغرس لنفسك شجراً محبوباً.
- على شاطئ بركتك.
- لتجلس روحك تحته.
- ولتشرب من مائها.
- اشبع رغباتك كلها [أي انغمس في اللذات].
- واعط الخبز لمن لا حقل له [أي كن محسناً كريماً].
- وبذلك تنال اسماً طيباً.
- للمستقبل ويبقى للأبد^(٧٣).

فحتى عندما وصل المصري القديم إلى أعلى مراتب الشك والانحلال، وعدم الإيمان بوجود حياة أخرى، لم ينس فعل الخير للمحتاجين من أجل طيب الذكر الذي يحرص عليه جيداً. . وكما يقول برستيد "فالمغني الذي يرتل هذه الأنشودة لا يجد أملاً في التفكير في الموت ومصيره غير أنه يرى أنه من الخير أن يترك الإنسان وراءه سمعة حسنة دائماً- لا لأن ذلك ينفعه حتماً في الآخرة [فهو لم يعد يؤمن بها]، بل لكي تبقى ذكراه في الدنيا على الألسنة وفي أذهان من يأتون بعده"^(٧٤)، ولا شك أن العمل على الفوز بطيب الذكر، هو إحدى الفضائل.

البر بالوالدين واحترام كبار السن وذوي العاهات:

كان الترابط الأسري- على نحو ما شاهدنا- هو أحد الأسس الأخلاقية عند المصري القديم، فلا عجب أن التراحم بالأباء وكبار السن من الفضائل التي يتحلى بها المصري القديم، ولقد امتد هذا التراحم ليشمل أهل العاهات.

فمن نصائح الحكيم (أنبي) لابنه "ضاعف مقدار الخبز الذي تعطيه والدتك، واحملها كما حملتك، ولقد كان عبئها ثقيلاً في حملك، ولم تتركه لي قط

(٧٤) برستيد ١٨١

(٧٣) برستيد ١٨٠-١٨١

أبدأ، وحينما وُلدت حملتك كذلك ثانية بعد شهور حملك حول رقبتها، وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات ولم تسمن من برازك، ولم تكن متبرمة، ولم تقل ماذا أفعل أنا، ولقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة، وقد وقفت هناك يوماً خارج المدرسة . . . وحينما تصبح شاباً وتتخذ لنفسك زوجة وتستقر في بيتك، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك وكيف ربّتك بكل الوسائل، فليتها لا تضرك بالألا ترفع أكف الضراعة إلى الله، وليته لا يسمع عويلها»^(٧٥).

ومن القيم التي يبثها الحكيم أمينموبي وتحت على احترام كبار السن. ما

جاء في قصيدته:

- لا تلعن أكبر منك سنأ.
- لأنه شاهد رِع قبلك.
- ولا تجعله يتهمك إلى قرص الشمس عند شروقه.
- قائلاً: شاباً آخر سب مسناً.
- فإنه مؤلم جداً أمام رَع.
- أن يسب شاب رجلاً مسناً.
- دعه يضرب بيده في صدرك.
- دعه يسبك وأنت ملازم السكون.
- فإذا حضرت أمامه في اليوم التالي.
- فإنه سيعطيك خبزاً لا حصر له.^(٧٦)

ومن نصائح أني الخاصة بكبار السن أيضاً: " لا تقعدن إذا كان غيرك

أكبر سنأ واقفاً، أو آخر يشتغل في مهنته (معك) زمناً أقدم منك»^(٧٧)

ولقد امتدت عاطفة المصري وقيمه، لتشمل ذوي العاهات. يقول

أمينموبي:

- لا تسخرن من أعمى ولا تهزان من قزم.
- ولا تفسدن قصد رجل أعرج.
- ولا تحفظن رجلاً في يد الله (ما يعبر عنه الآن بالمجنوب).
- ولا تكونن عابس الوجه حينما يكون قد تعدى الحدود.
- إذ الواقع أن الإنسان من طين وقش (وهما المادتان اللتان يصنع منهما الطوب اللبن).
- والله هو مسويه.
- وهو يهدم ويبني كل يوم^(٧٨).

مجموعة متناثرة من الفضائل والقيم :

هناك مجموعة متناثرة من بعض الفضائل والقيم التي نجدها عند المصري القديم، ولكنها لم تتكرر أمامنا كثيراً، فأثرنا أن نجعلها في فترة واحدة.

فمن هذه الفضائل ما يسجله المتوفى في كتابه:

- " إنني لم أبعث الخوف - إنني لم أرك الشجار - ولم يكن قلبي متسرعاً -
- إنني لم أضعاف الكلمات عند التحدث - ولم يكن صوتي عالياً فوق ما يجب - وفمي لم يثرثر - ولم تأخذني حدة الغضب - إنني لم أسب ولم أكن متسمعاً.. الخ"^(٧٩)
- والحلم من ضمن الفضائل التي حث أمينموبي عليها حيث يقول:
- أما الرجل الحليم حقاً فهو الذي يضع نفسه جانباً (حيث يجب).
- فمثله كشجرة باسقة في حديقة.
- تنمو يانعة وتضاعف ثمرتها.
- فتقف أمام سيدها.

- وثمرتها حلوة وظلها ظليل.

- وينتهي مصيرها في الحديقة [وليس في مخزن الأخشاب]^(٨٠).

احتلت المرأة المصرية مكانة عظيمة عند المصريين القدماء، ولذلك فقد أطلق بتاح حتب نصائحه للزوج حتى يحوز رضاء زوجته، غير أننا نجتزئ منها تلك النصيحة التي تجعل الإنسان فاضلاً إذا التزم بها؛ يقول بتاح ناصحاً "اجعل قلبها فرحاً ما دمت حياً فهي حقل مثمر لسيدها"^(٨١)، وقوله: "إذا كنت ناجحاً فوطد حياتك المنزلية وأحبب زوجتك في البيت كما يجب".

لا شك أن الإنسان الذي يتمتع بطلاقة الوجه سوف يكون محبوباً من الجميع، ولذلك فإن بتاح حتب ينصح مريده فيقول له: "كن طلق الوجه ما دمت حياً"^(٨٢). ولا شك أن هذه القيمة من القيم النادرة عند كافة الشعوب، وقد لا نقابلنا مستقبلاً.

أما بعد؛ فلعل القارئ قد اطلع على بعض الفضائل والقيم لدى المصريين القدماء وفراعنتهم، ورأى أنهم قد توصلوا إلى مفهوم "الضمير" الذي هو في رأينا أحد المحركات الأساسية للإلزام الخلقى، واهتموا اهتماماً شديداً بالعدالة وتقديس الحق، كما ظهرت لديهم فكرة العدالة الاجتماعية ومساواة الناس أمام الله قبل أن يظهر هذا المفهوم في أي حضارة أخرى، ولقد فصلوا القول في ذلك فحثوا على المساواة بين الفقير ذي الملابس القذرة والشريف الذي يلبس الكتان، فهم بذلك أبعد ما يكونون عن الطغيان، ولقد حثوا كثيراً على الأمانة وعدم العبث بالميزان والمكاييل، كما حثوا على الطهر والعفة والقناعة، كما طالبوا الضيوف بكتمان السر، لمضيفيهم، وطالبوا الناس بالتواضع وحثوهم على الرحمة والتعاطف (فلا تمنع أناساً من عبور النهر، وخذ الأجر من الرجل صاحب الثروة، ورحّب بمن

(٨٢) سليم ١٨٤/١٧

(٨١) سليم ١٨٢/١٧

(٨٠) سليم ٢٤٠/١٧

لايملك شيئاً)ورأياناأنهم حتى فى عصور الشك فى الغيب كانوا مع ذلك يطلبون حسن الذكر ، كما اهتموا اهتماما كبيرا بالوالدين وكبار السن فطلبوا مضاعفة الخبز للأم ، وأشفقوا على ذوى العاهات (ولا تسخرنَّ من أعمى ولا تهزانَّ من قزم ولا تُفسدنَّ قصد رجل أعرج) .واهتموا اهتماما خاصا بالأرامل فأعطوا الأرملة مثل ذات البعل . إن كل من يفعل هذا لايد أن يفوز براحة الضمير .

كما اهتموا أيضا بفضائل نادرة جدا ربما لا تراها عند غيرهم مثال فضيلة "المهابة" التى لا يحصل عليها الأمير بالطغيان ، وإنما بالعدل: " واعلم أن الخوف من الأمير يأتى بإقامة العدل" . وهذه المهابة لها حدود ينبغى عدم تخطيها: " واعلم أن الإنسان إذا جعل الناس يخافونه أكثر مما ينبغى دل ذلك على ناحية نقص فيه فى نظر القوم" . ومن ذلك أيضا الحث على صيانة الأسرار : " لا تصغين إلى أجوبة رجل شريف فى بيت ثم تنتشره إلى آخر فى الخارج . . . حتى لا يتألم قلبك" . ومن فضائلهم النادرة أيضا الحث على عدم إقحام النظر إلى عورات الآخرين: " لا تدخلن بيت غيرك ولا تمعنن فى النظر إلى الشئ المنتقد من بيته إذ يمكن لعينيك أن تراه ، ولكن الزم الصمت ولا تتحدثن عنه لآخر فى الخارج حتى لا تصبح جريمة تستحق الإعدام "

وجميع هذه الفضائل والقيم ، والتى تتفق كثيرا مع الفضائل والقيم فى الأديان الإلهية ، مارسها هذا الشعب هو وفراعنته الذين لم يكونوا أقل منه شغفا بها ، وكل ذلك حدث فى عصور قديمة قبل مجيء التوراة بألفى عام ، مما يدل على أن الشعب المصرى قد توصل لفضائله وقيمه عن طريق ممارسته لحياته ، أى أن الفضائل والقيم اجتماعية وإنسانية . وسوف نرى فيما يلى مسار الفضائل والقيم عند الحيثيين والكنعانيين .

الفصل الثاني

الفضائل والقيم لدى الحيثيين والكنعانيين

أولاً: الحيثيون

لابد أنه كان للحيثيين تاريخهم الأخلاقي، فنحن مقتنعون تماماً أنه ما وجد مجتمع إنساني قط، إلا وُجِدَت الأخلاق عنصراً أصيلاً في التكوين الاجتماعي لهذا المجتمع، مهما كان هذا العنصر ضعيفاً غير أن أبرز ما وصل إلينا من الأخلاق عند الحيثيين، هو " ما نراه من تقديرهم للمسئولية الخلقية في الالتزامات الدولية التي أقرها أحد الملوك الحيثيين في القرن الثالث عشر ق.م، حيث يعترف هذا الملك بهجوم لا مبرر له، قام به ضد الدولة المصرية في عهد رمسيس الثاني، ولما كان هذا الملك يشعر بالخطأ الخلقى الذي ارتكبه، فقد نسب الوياء الذي كان شعبه يعانيه إذ ذاك إلى غضب إلهه عليهم بأن أرسل عليهم هذا الوياء بمثابة عقاب على تلك الخطيئة التي ارتكبتها، كما يلاحظ أيضاً نمو شعورهم بالحق والاعتدال في الصورة المنقحة من القانون الحيثي التي أحدثها الملك خاتشيل وجعلها أكثر رافة من قبل"^(١).

غير أن هناك علاقة بين قانون هامورابي البابلي وقانون الحيثيين؛ فإذا كان البابليون قد جعلوا العقوبة تتدرج اجتماعياً، فقد جعلها الحيثيون تتدرج حسب المركز السياسي الذي يشغله المذنب، فكانت تخف وطأة العقاب إذا كان المجرم من أهل البيئة المحلية، فيكون أقل من العقاب الذي يوقع على أحد رعايا الحكومات المجاورة. وهو طبعاً نوع من عدم المساواة أمام القانون^(٢).

وواضح أن الفضائل والقيم لدى هذا الشعب تكاد تكون مجهولة لدى المؤرخين. فكما يقول برستيد " لا يزال أمامنا مقدارٌ عظيمٌ من الحفائر والأبحاث

(٢) برستيد ٣٦٩

(١) برستيد ٣٦٨-٣٦٩

التي لابد من درسها وإتمامها قبل أن تكون لدينا المعلومات الوافية عن كنه المدنية الحديثة، وإلى أن يتم ذلك تشير الدلائل إلى القول بأن الحثيين كان لهم بعض التأثير في التقدم الخلفي في آسيا الغربية^(٣).

ثانياً: الكنعانيون

الكنعانيون هم أهل فلسطين الأوائل الذين كانوا يسكنونها قبل أن يحتلها العبرانيون، وكانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد^(٤).

ففي خلال هذا الألف عام، انتقلت آثار من الثقافة المصرية القديمة والثقافة البابلية إلى الكنعانيين أهل فلسطين الأصليين، ثم احتلها العبرانيون بعد ذلك، فانتقلت هذه الثقافة إليهم عن طريق الكنعانيين، "يضاف إلى ذلك، أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعاً تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة، فقد بدأ المصريون يسيطرون سيطرتهم على الساحل الفينيقي قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفي سنة، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق.م. لما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية، ووصلوا في فتحهم إلى نهر الفرات في خلال القرن السادس عشر ق.م، بقيت فلسطين مستعمرة في أيديهم أكثر من أربعة قرون، والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية في القرون التي احتلتها فيها مصر. فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مراراً وتكراراً بالعناصر المصرية"^(٥).

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الثقافة الكنعانية كانت واقعة في نطاق تأثير الثقافة البابلية أيضاً، استنتجنا من ذلك أن الثقافة الكنعانية كانت مزيجاً من الثقافة المصرية القديمة والبابلية، بالإضافة طبعاً إلى التجاريب الاجتماعية للكنعانيين أنفسهم. وظل هذا الحال مدة ألف عام إلى أن احتلها العبرانيون^(٦).

(٥) برستيد ٣٧٢

(٤) برستيد ٣٧٢

(*) اتخذ العبرانيون بعد ذلك لغة الكنعانيين لغة لهم، وهي التي انحدرت إلينا فيما بعد في ثوب

اللغة العبرية (برستيد ٣٧٣)

نستنتج من كل ذلك أن فضائل الكنعانيين وقيمهم، كانت متأثرة إلى حد بعيد بتلك التي كانت للمصريين والبابليين، دون أن نتمكن من الاطلاع المباشر على حياتهم الخلقية، وننتقل الآن إلى مدنيات البابليين والسومريين والآشوريين لنرى كيف كانت الفضائل والقيم لديهم.

الفصل الثالث

الفضائل والقيم

لدى البابليين والسومريين والآشوريين

أولاً: البابليون:

مقدمة:

المدنية البابلية من أقدم المدنيات، "ويمكننا الآن أن نتتبع نشأتها خلال بضعة القرون الأولى من الألف السنة الرابعة قبل الميلاد، ولقد أحرزت الحضارة البابلية بعض التقدم السامي في عالم الفن خلال الألف السنة الثالثة قبل الميلاد"^(١).

وكانت بابل كما يقول ديورانت "موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب، وأنشأت علم اللغة وأعدت أول كتب القانون الكبرى، و علمت اليونان مبادئ الحساب وعلم الطبيعة والفلسفة، وأمدت اليهود بالأساطير القديمة التي أورثوها العالم. ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظت بها روح أوروبا من سباتها في العصر الوسيط"^(٢).

ننتقل الآن إلى الحياة الدينية عند البابليين، فلقد تصور البابليون الأوائل آلهتهم كما يقول برستيد ممثلة في قوى الطبيعة، وهم في ذلك مثل المصريين القدماء، فكانت أقدم معبوداتهم من آلهة الطبيعة، ولذلك نجد في أنشودة عظيمة كانت لابد مستعملة في عبادة (سن) إله القمر في معبد بمدينة أور أن مؤلفها الكاهن كشف فيها عن أصل عالم الطبيعة حيث رأى عفواً إله القمر يقوم بعمله وهو لذلك لم يسند إليه خلق كل الأشياء المادية فحسب، بل عزا إليه أيضاً تأييث

(٢) ديورانت ١٨٧/٢ - ١٨٨

(١) برستيد ٣٦١

كل النظم البشرية بما في ذلك الحكومة والديانة الرسمية وبخاصة حياة الشعب الخلقية^(٣)، وسوف يلاحظ القارئ أن اللغة البابلية - مثلها مثل اللغة الفرعونية - لم تكن آنذاك قد نضجت النضج الكافي كي تمدنا بمفاهيم مثل مفهوم "الخلق"، فكان يعبر عنه أحياناً بمفهوم آخر هو مفهوم "الولادة"، كما لم تمدنا بمفهوم الملاك، فكانوا يستخدمون بدلاً من الملائكة كلمة "الآلهة" كما سبق أن ذكرنا في مقدمة الفصل الأول، ولكننا إذا نظرنا إلى أناشيدهم الدينية، وجدناها تفيض بالوحدانية والتقدّيس كقولهم (مَنْ المعظم في السماء، إنك أنت وحدك المعظم - فإن آلهة العالم العلوي يسجدون لك - وحينما يتردد صدى كلمتك فوق الأرض فإن آلهة العالم الدنيوي يقبلون الأرض لك)، ولقد كانت الديانة البابلية ذات صلة وثيقة بالأخلاق على ما سوف نرى، وفيما يلي بعض قيمهم وفضائلهم:

الصدق والعدالة والعفة والبعد عن الشر:

سوف نتلو فيما يلي قصيدة بابلية، أنشأها أحد الكهنة البابليين، حقاً لم تكن الحياة الخلقية قد نضجت في بابل، حتى أن برستيد نفى عن بابل أي مساهمة خلقية على النحو الذي سوف نراه، ولم نوافق على ذلك، غير أننا سوف نرى في هذه القصيدة باكورة لحياة خلقية، وسنجد بها مفاهيم مثل الصدق والعدالة والرحمة والشفقة، فكيف ننكر وجود حياة خلقية لديهم؟

- أيها الأب الرحيم الشفيق.
- الذي في قبضته حياة الأرض قاطبة.
- أيها الرب ألوهيتك كالسما العالية.
- نهرٌ عريض مفعم بالأشجار.
- هو الذي يخلق الأرض ويؤسس المعابد.

- ويسمى أسماءها.
- والوالد الذي يلد الآلهة والناس [أي يخلقهم].
- ويجعل المساكن تقام وينشئ القرابين.
- وهو الذي يدعو الملكية ويعطي الصولجان.
- ويحدد ما هو مقدر للإنسان في الأيام البعيدة.
- وهو الأمير ذو البطش لا يرى ما في قلبه الفسيح أي إله.
- والرب الذي يقرر حكم السماء والأرض.
- والذي لا مبدل لأمره.
- والقابض على النار والماء والمرشد للمخلوقات الأحياء فمن ذلك الإله الذي يعادللك.
- من المعظم في السماء؟
- إنك أنت وحدك المعظم.
- ومن المعظم فوق الأرض؟
- إنك وحدك المعظم.
- وحينما يتردد صدى كلمتك في السماء، فإن آلهة [أي ملائكة] العالم العلوي يسجدون لك.
- وحينما يتردد صدى كلمتك فوق الأرض فإن آلهة [ملائكة] العالم الدنيوي يقبلون الأرض لك.
- وحينما ترتفع كلمتك إلى عليين كالهواء فإنها تجعل المراعي تنمو، وعيون الماء تغزر.
- وحينما تنزل كلمتك إلى الأرض فإن الكلاً يخرج شطأه وكلمتك تصير الخطائر بما فهيا من قطعان سمينة.

- وكلمتك يتولد منها الصدق والعدالة، وعلى ذلك يتكلم الناس الصدق^(٤).
هذه القصيدة على طولها - كما يقول برستيد - لم تشتمل إلا على سطر
واحد عن سلطان القمر من الناحية الخلقية وهو: كلماتك يتولد منها الصدق
والعدالة، فقد كانت معنية أساساً عن الكشف عن عمل وسلطان ذلك الإله^(٥).
غير أننا يجب أن نشير إلى وجود ألفاظ أخرى تشير إلى الفضائل جاءت
في أول القصيد ولم يشر برستيد إليها، وهي: أيها الرب الشفيق الرحيم، "فالرحمة
والشفقة" من الفضائل التي تتطلبها الحياة الخلقية.
غير أن برستيد يلاحظ أن هذه الأنشودة تذكرنا بالمزامير العبرانية مع
أنها ترجع على ما قبل ظهور الدين العبراني بزمن بعيد^(٦). وبالرغم من عدم
ظهور الأخلاق في رأي برستيد الذي لم نوافقه عليه، فإن شعب بابل تقدم في
معتقداته فصار يؤمن أن شماس إله الشمس الذي يمثل عندهم إله العدالة - كما
كانت الشمس تمثل إله العدالة عند المصريين القدماء - كان يبغض السلوك الذي
لا ينطوي على المودة^(٧)، والذي يقرأ القصيدة التالية سوف يجد بداية ظهور
للحياة الخلقية عند البابليين ممثلة في العديد من الألفاظ كما يجد العديد من المبادئ
الخلقية، فالشرير لن يفلت من الله ولن يفر منه مخطئ، كما أن الذي يحنث
بيمينه فسوف يعاقب سريعاً، ومن لا يحترم المقدسات فلن يستطيع الفرار، والله
منتبه لمن يرتكب الشر، أو يرفع بصره إلى زوجة رفيقه، كما أن الإنسان وقت
المحاكمة سوف يقف وحيداً ولن يستطيع أقرب الناس إليه أن يساعده، وأما
القاضي الجائر فسوف تجعله يرى الأغلال حتى يفيق إلى ضميره، والمرثي
وشاهد الزور فسوف تتقله بالعقاب، أما القاضي العادل فسوف يُمنح مقراً ملكياً
[في الجنة طبعاً] . . . الخ. والآن فلتقرأ هذه القصيدة:

(٥) برستيد ٣٦٤

(٤) برستيد ٣٦٤-٣٦٥

(٧) برستيد ٣٦٦

(٦) برستيد ٣٦٥

- يا شماس أنت الذي لا يفلت من شباكك شرير .
- ولا يفر من فخك خاطئ .
- أما من يحنث في يمينه فإنك تعجل له العقاب
- ومن لا يحترم كل مقدس فلن يستطيع الفرار منك .
- شباكك العريضة مطروحة لمن يقترب الشر .
- ولمن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه .
- إذا أشهرت سلاحك عليه فلا منجي له .
- فإذا وقف أمام المحكمة فليس في استطاعة أحد مساعدته ولو كان والده .
- وليس من يعارض القاضي حتى إخوته .
- فهو يُحبس في فخ نحاسي لا مناص منه .
- وأما من يضمر سوء فأنت تحطم قرنه .
- ومن يتحيز إلى المسيء فإن الأرض تحت قدميه تميد به .
-
- والقاضي الجائر تجعله يشاهد الأغلال .
- ومن يقبل الرشوة ويلتوي في الحق .
- فإنك تنقله بالعقاب .
- أما من يأبى الرشوة ويتحيز إلى جانب الضعيف .
- فإنه يدخل السرور العظيم على شماس ويعيش طويلاً .
- والقاضي الحذر الذي يقضي بالعدل .
- يعدُّ لنفسه قصراً ويكون مثواه مقراً ملكياً .
- كمثل ماء الينبوع الأبدي فيه بذرة لا تنفد .
- لمن يعمل بتقى وطيبة ولا يعرف الغش .
- أما المرء الذيء العقل، فإنه يسجل (على نفسه) ذلك بالعلم .

- أما الذين يرتكبون الشر، فإن بذرتهم لا بقاء لها^(٨).
فالذي يقرأ هذه الأنشودة، لابد أنه سيجد بها مفاهيم ومبادئ خلقية عديدة،
فإذا أضفنا إلى هذه الأنشودة المزامير البابلية الخاصة بالتوبة والتي تعبر عن
شعور البابليين المرهف من جهة الخطيئة، علمنا أن الشعب البابلي كان يرنو
بعينيه ناحية الفضيلة وإن لم يصل فيها إلى النضج الكافي، وذلك قبل ظهور
الدين العبراني.

الطهارة والعفة بعد الزواج:

كان يُسمح للبابليين في العادة بقسط كبير من العلاقات الجنسية قبل
الزواج، ولم يكن يُضنُّ على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصالاً غير مرخص به
بزيجات تجريبية، تنتهي متى شاء أحد الطرفين^(٩)، ولكن متى تم الزواج، تبعه
ارغام شديد على الاستمساك بالوفاء الزوجي بعده. " وكان القانون ينص على
إغراق الزوجة الزانية ومن زنت معه إلا إذا أشفق الزوج على زوجته، فأثر أن
يستبدل بهذه العقوبة إخراجها إلى الطريق عارية إلا من القليل الذي لا يكاد يستر
شيئاً من جسمها"^(١٠).

وفيما عدا ذلك فيبدو أن عبادة اشطار تشير إلى أن المرأة والأمومة كان
لهما قسط من التبجيل في بلاد بابل، كما تشير عبادة مريم العذراء في العصور
الوسطى على ما كان لها من التبجيل وقتئذ^(١١).

(٩) ديورانت ٢/٢٣١

(١١) ديورانت ٢/٢٣٤

(٨) برستيد ٣٦٧

(١٠) ديورانت ٢/٢٣٢

العدالة والخير في قانون حمورابي

تطل علينا من بداية تاريخ بابل العظيم شخصية قوية هي شخصية حمورابي (٢١٢٣-٢٠٨١ ق.م) الفاتح المشرّع المحارب العظيم الذي أقام في بابل منار الأمن والنظام بفضل كتاب قوانينه التاريخي العظيم^(١٢). وسوف نورد فيما يلي بعضاً من نصوص هذا القانون لكي نرى ما استهدفه من الفضائل والقيم من أمر بنشر العدالة والقضاء على الأشرار. . الخ. يقول حمورابي في مقدمة القوانين:

"ولما أن عهد أنو الأعلام ملك الأنوناكي وبل رب السماء والأرض الذي يقرر مصير العالم، لما أن عهدا حكم بني الإنسان كلهم إلى مردوك. . . ولما أن ينطقا باسم بابل الأعلى وأذاعا شهرتها في جميع أنحاء العالم، وأقاما في وسطه مملكة خالدة أبد الدهر، قواعدها ثابتة ثبات السماء والأرض، في ذلك الوقت ناداني أنو وبل، أنا حمورابي الأمير الأعلى عابد الآلهة، لكي أنشر العدالة في العالم وأقضي على الأشرار الآثمين وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء، وأنشر النور في الأرض وأرعى مصالح الخلق، أنا حمورابي، أنا الذي إختاره بل حاكماً والذي جاء بالخير والوفرة، والذي أتم كل شيء لنيبور ودريلو . . . والذي وهب الحياة لمدينة أرك، والذي أمد سكانها بالماء الكثير . . . والذي جعل مدينة بارسيا، والذي خزن الحب لأوراش العظيم، والذي أعان شعبه في وقت المحنة، وأمّن الناس على أملاكهم في بابل، حاكم الشعب، الخادم الذي تسر أعماله أنونيت"^(١٣).

إن هذه العبارات التي قرأناها توأ، لتجعل المرء - كما قال ديورانت - يتردد قبل أن يصدق أن قائلها حاكم شرقي مستبد عاش عام ٢١٠٠ ق.م. ويعتقد

(١٢) ديورانت ١٨٨/٢-١٩٠

(١٣) ديورانت ١٨٨/٢-١٩٠

ديورانت- ولكنه لا يجزم- بأن قوانين حمورابي استمدت أصولها من قوانين سومرية أسبق منها، مضافاً إليها الظروف التي كانت تسود بابل، وهو ما جعل شريعة حمورابي شريعة مركبة غير متجانسة، ويختتم حمورابي شريعته بالكلمات الآتية:

" إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي، والتي أقام بها في الأرض دعائم ثابتة، وحكومة طاهرة صالحة . . . أنا الحاكم الحفيظ الأمين عليها، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكد، وبحكمتي قيدتهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء، وحتى تنال العدالة اليتيم والأرملة . . . حقاً أنا حمورابي، حاكم كالوالد الحق لشعبه. . . لقد جاء بالرخاء إلى شعبه مدة الدهر كله، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة. . . ولعل المَلِك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل، يرعى ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري".^(١٤)

هذا ورغم أن هذا القانون يعد أقدم تشريع مكتوب في تاريخ البشرية، لا بد أن نشير هنا إلى ملاحظة برستيد التي يرى فيها أن المبادئ الخلقية عند البابليين لم تتضح النضج الكافي كما كانت ناضجة عند الفراعنة، فلقد وردت الجرائم والأحكام في هذا القانون، مرتبة حسب الدرجات الاجتماعية التي يشغلها المتقاضون أو المذنبون كما سبق أن أشرنا، فكان الرجل صاحب المنزلة السامية ينال فيه رعاية ظاهرة أكثر من الرجل وضع الأصل، وقد رأينا في الفصل السابق أن الحكماء المصريين الأقدمين ووجهاء القوم كانوا يكررون دائماً ذكر عدم اكتراثهم بالفوارق الاجتماعية بين طبقات الناس لدرجة أن الفرعون ذاته نبه على وزيره الأكبر بأن واجبه يقضي عليه بأن لا يظهر احترامه للأفراد بصفة كونهم أمراء أو مستشارين وهو من أعلى درجات العدالة. غير أن برستيد يغالي كثيراً بعد ذلك فينفي عن البابليين أي رقي خلقي بسبب هذا القانون فيقول: " أما

(١٤) ديورانت ١٩١/٢-١٩٢

عند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التي هي بعينها الأساس الذي يقوم عليه الرقي الخلقى ناقصة جداً، بل معدومة بالمرّة، وعلى ذلك لم تساهم مدينتهم مساهمة جوهرية في تاريخ آسيا الغربية الخلقى" (١٤).

ونحن لا نغالي إلى هذه الدرجة في نفي مساهمة البابليين مساهمة جوهرية في الحياة الخلقية لغرب آسيا، حقاً لم تصل المبادئ الخلقية عندهم مبلغها عند قدماء المصريين وفراعنتهم، ولكنها تكفي بالتأكيد لمجتمع يرنو على الأقل إلى الفضيلة والخير ويحذر من الشر والرذيلة على النحو الذي عرضناه والنبي جاء في تراثيلهم.

ثانياً: السومريون

مقدمة:

كان السومريون - وهم قوم غير ساميين - يعبدون الإله الأعظم شمس، ذلك أن الحكومة سرعان ما رأت ما في الالتجاء للدين من فوائد سياسية، فلما أصبح الآلهة ذوي فائدة من هذه الناحية تضاعف عددهم مراراً حتى أصبح لكل مدينة ولكل ولاية ولكل نوع من النشاط البشري إله موخ مدبر. وكانت كثرة الآلهة تسكن المعابد حيث يقدم لها المؤمنون القرابين من مال وطعام وأزواج. وقد عثر في الخرائب السومرية على لوحة نقش عليها بعض الصلوات وجاءت فيها هذه النذور الدينية الغريبة: إن الضأن فداء للحم الآدميين، بها افتدى الإنسان حياته.

ولقد أثرى الكهنة من القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالاً وأعظمها في المدن السومرية، وحتى كانوا هم الحكام المتصرفون في معظم الشئون، فلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس، نهض أورو كاجينا - كما نهض لوثر فيما بعد - وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم، ويتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها من الزراع والصيادين ثمرة كدهم، وأفلح وقتاً ما في تطهير المحاكم من هؤلاء الموظفين المرتشين الفاسدين. وسن القوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدي للمعابد، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز^(١٦).

ومن المعروف أن الكهنة يدركون احتياج الناس الشديد للدين، والدين لا ينمو ويزدهر إلا بالأساطير والناس لا يترددون في أن يؤدوا أعلى الأثمان لكي يعودوا إلى ما خطته لهم أساطيرهم بعد موت كاجينا. ولقد استنتج ديورانت أن

(١٦) ديورانت ٢٩/٢-٣٠

السومريين كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة لأن الطعام والأدوات كانت توضع مع الموتى في القبور، ولم تكن فكرة الجنة والنار والنعيم الدائم والعذاب المخلد قد استقرت بعد في عقولهم، ولم يكونوا يتقدمون بالصلاة والقربان طمعاً في الحياة الخالدة، بل كانوا يتقدمون بها طمعاً في الزعم المادية الملموسة في الحياة الدنيا^(*)(١٧)!. والآن لنلق نظرة على فضائلهم وقيمهم:

العدالة والخير والعفة:

ربما يكون قد وضح من المقدمة السالفة أن الدين لم يكن ذا تأثير كبير على الأخلاق عند السومريين، وأن الفضائل والقيم لديهم، كانت عبارة عن تشوف لحياة أفضل، فكما رأينا فإن أورو كاجينا المصلح الاجتماعي كان يعرف "العدالة" ويحاول تطبيقها على الرعية، كما يعرف أن "الرشوة" سلوك رذيل فحاول تخليص الشعب منها ومن الفساد عموماً خاصة ذلك الذي استشرى بين الكهنة. ومع ذلك لا يمكن تجريد الدين من كل مساهمة في الأخلاق، فمن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه هذا الدين من نبل في التعبير والتفكير، ذلك الدعاء الصوفي الذي يتضرع به الملك جوديا للإلهة (بو) راعية لكش ونصيرتها:

- أي ملكتي ، أيتها الأم التي شيدت لكش.

- إن الذين تلاحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان.

- والعابد الذي تتظرين إليه تطول حياته.

- أنا ليس لي أم فأنتِ أُمِّي.

- وليس لي أب فأنتِ أُمِّي.

- أي إلهتي (بو) إن عندك علم الخير.

(*) يرى ديورانت أن هذا الدين هو أول الأديان التي عرفها التاريخ ولكنه لم يثبت ذلك تاريخياً.
(١٧) ديورانت ٣٠/٢

- وأنت التي وهبتني أنفاس الحياة^(١٨).

من هذه الأنشودة يتضح لنا معرفة الملك جوديا "للخير" وهو يطلبه من إلهته (بو).

وكان السومريون يعرفون فضيلة "العفة". غير أن العفة كانت فضيلة ينبغي أن تتحلى بها المرأة في المقام الأول. يقول ديورانت "كان الحكم الأخلاقي على الرجل يختلف عن الحكم الأخلاقي للمرأة حتى في ذلك العهد السحيق، وكان ذلك نتيجة لازمة لاختلافهما في شئون الملكية والوراثة. فزنى الرجل كان يعد من النزوات التي يمكن الصفا عنها، أما زنى الزوجة فكان عقابه الإعدام"^(١٩).

(١٩) ديورانت ٢٢-٢٣

(١٨) ديورانت ٢١-٢٢

ثالثاً: الآشوريون

مقدمة:

ترجع أقدم آثار آشور إلى عام ٣٧٠٠ ق.م. ولقد اضطر أهل البلاد التي نشأت فيها هذه الحضارة أن يحيوا حياة عسكرية شاقة أرغمتهم عليها القبائل الجبلية التي كانت لا تنفك تهددهم من جميع الجهات، وما لبثوا أن غلبوا هؤلاء المهاجمين، واستولوا على المدن التي كانت مهدهم الأول في عيلام وسومر وأكد وبابل، وتغلبوا على فينيقية ومصر، وظلوا مائتي عام كاملة يسيطرون بقوتهم الوحشية على بلاد الشرق الأدنى، وكانت عاصمة ملكهم هي مدينة آشور ثم نقلت إلى نينوي في الشمال لاعتدال جوها^(٢٠).

والحقيقة أن الذي يقرأ التاريخ العسكري للآشوريين، سوف يجده تاريخاً مليئاً بالقسوة المبالغ فيها، خاصة معاملتهم للأسرى وهم أحياء معاملة جهنمية قبل قتلهم، وسوف نضرب صفحاً عما كانوا يفعلونه مع هؤلاء الأسرى، كما ضربنا صفحاً عن رذائل كافة الشعوب التي درسنا فضائلها وقيمها، ولكننا نشير فقط إلى ملاحظة ديورانت عن هذه القسوة حيث يقول: "ويلوح أن القوم - أي الآشوريين - لم يكونوا يشعرون بشيء من وخز الضمير، وهم يسرفون في اتلاف الحياة البشرية بهذه الطرق الجهنمية"^(٢١)، ويمكن القول بصفة عامة أن الحرب، وما يتبعها من سلب ونهب كانت ذات أهمية قصوى للمجتمعات القديمة ذات الصبغة العسكرية وأن هذه المجتمعات كانت تثيب على كل ذلك^(٢٢).

أما عن الدين عند الآشوريين، فكما يقول ديورانت لم يكن له أثر قط في تخفيف هذا العنف وهذه الوحشية، وأنه كان يكيف نفسه حسب حاجات الملوك

(٢٠) ديورانت ٢٦٤-٢٦٥ (٢١) ديورانت ٢٧٤/٢-٢٧٥

(٢٢) انظر زكريا [أ] ١٠٤

وأذواقهم، وكان آشور إلههم القومي من آلهة الشمس ذا روح حربية، لا يشفق على أعدائه، وكان عبادة يعتقدون أنه يغتبط برؤية الأسرى يقتلون أمام مزاره، وكان العمل الجوهري الذي تؤديه الديانة الآشورية هو تدريب مواطن المستقبل على الطاعة التي تتطلبها منه وطنيته، وأن تعلمه مداونة الآلهة لكسب ودهم بضروب من السحر والقرايين^(٢٣).

العفة والخير وكرهية الشر

على أن الآشوريين - رغم كل ذلك - لم يكونوا مجردين تماماً من كل فضيلة، فكانت ديانتهم - مثل معظم الديانات - تهتم بمشكلة الخير والشر، فكانوا يؤمنون بإله للخير وإله للشر، وهناك معركة بينهما. يقول ديورانت يصف الفن الآشوري "على أن من أجمل آياته تحفة يرجع عهدا إلى آشور بانيبال الثاني، وهي من المرمز النقي، وتمثل مردك إله الخير يهزم نيامات الخبيث إله الفوضى"^(٢٤).

وأما عن فضيلة العفة، فلم تكن من متطلبات الآشوريين الرجال، ولكنها مطلوبة حتماً بالنسبة للنساء " فلم يكن يسمح للمتزوجات أن يخرجن على الطريق العام بغير حجاب، وكان يطلب منهن أن يكنّ جد أمينات على أعراضهن، وإن كان يسمح لأزواجهن أن يتخذوا لهم ما يشاءون من السراري، وكان البغاء يعد في عرفهم أمراً لا بد منه وتنظمه القوانين"^(٢٥).

أما الزنا للمتزوجين، فإنه كان يسمح للزوج أن يقتل الذي زنى بزوجه إذا ضبطه متلبساً^(٢٦). وفيما عدا ما سبق، نكاد لا نجد فضائل أو قيم أخرى لدى الآشوريين .

(٢٤) ديورانت ٢/٢٨٧

(٢٦) ديورانت ٢/٢٨١

(٢٣) ديورانت ٢/٢٨٢-٢٨٣

(٢٥) ديورانت ٢/٢٨١

على أي حال فقد كان لدى البابليين والسومريين والآشوريين فضائلهم وقيمهم، فالبابليون يدركون من أنشودتهم التي أوردنا طرفاً منها الرحمة والشفقة والصدق والعدالة. وهذه الأنشودة بالذات قيلت قبل ظهور الدين العبراني كما رأينا، ولقد كان الإله شماس في أنشودة أخرى هو إله العدالة الذي يبغض السلوك الذي لا ينطوي على المودة ولا يفلت الشرير من شباكه. أما من يحنث في يمينه فإن شماس يعجل له نهايته هو ومن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه، والقاضي الجائر سوف يشاهد الأغلال، وأما من يقبل الرشوة ويلتوي في الحق فإنك تتقله بالغضب . . . الخ، ولقد رأينا كذلك أن البابليين يطلبون الطهارة والعفاف للنساء بعد الزواج، ولقد رأينا قانون حامورابي، وإن كان لم يصل إلى حد المساواة بين الناس، ومع ذلك فهو لا يخلو من الكثير من الفضائل، فبحكسته منع الأقوياء من ظلم الضعفاء وطالت عدالته اليتيم والأرملة.

والسومريون كانت لهم أيضاً فضائلهم وقيمهم فلقد رأينا أن أورو كاجينا المصلح الاجتماعي كان يعرف العدالة ويحاول تطبيقها على شعبه وأنه حارب الرشوة التي انتشرت بين الكهنة، وهاهو جوديا يطلب "الخير" من الإلهة (بو)، كما أن السومريين كانوا يعرفون فضيلة العفة وإن كانت خاصة بالنساء دون الرجال.

أما الآشوريون فهم كدولة محاربة تحيط بها الأعداء كانت فضائلهم - إن جاز هذا التعبير - مركزة على القسوة في معاملة الأعداء والتكيل بهم إذ أن آشور إلههم كان يغتبط بهذه القسوة، ومع ذلك كانت ديانتهم تهتم بمشكلكي الخير والشر وجعلت لكل منهما إلهاً، ولقد اهتموا أيضاً بفضيلة العفة التي كانت مطلوبة حتماً للنساء. وكل هذه الفضائل والقيم خاصة البابلية، مارستها هذه الأقوام قبل نزول الدين العبراني، وهي تتفق كثيراً مع الفضائل والقيم التي جاءت فيما بعد في الأديان الإلهية على النحو الذي نعرفه، فيما عدا القسوة المبالغ فيها

عند الآشوريين، فقد خلت الأديان الإلهية منها بالصورة التي وجدت بها عند الآشوريين. ومنتقل الآن إلى الفرس لنرى فضائلهم وقيمهم .

الفصل الرابع الفضائل والقيم لدى الفرس

انتشرت في بلاد الفرس (إيران) عقائد ونحل عديدة أهمها هي الزرادشتية والمانوية، وهناك عقائد أخرى أقل أهمية مثل المزدكية وغيرها. ويكاد يكون من المسلم به أنه لا يوجد في إيران شيء معروف لنا قبل الزرادشتية حيث أن النصوص القديمة تعود فقط إلى زرادشت نفسه^(١). وسوف نتحدث فيما يلي عن الزرادشتية والمانوية.

(١) زرادشت ١٤

أولاً: الزرادشتية

مقدمة:

حين بلغ زرادشت الثلاثين - كما يقول الشهر ستاني بعثه الله تعالى نبياً ورسولاً إلى الخلق^(١) فدعى كشتاسب^(٢) السلك فاجابه إلى دينه، وكان دينه عبادة الله، والكفر بالشیطان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث^(٣)! وواضح "أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث " كل ذلك يمثل الجانب السلوكي في عقيدة زرادشت، وأنها جميعاً من الفضائل، وهذا يؤذن بأن الفضائل والقيم عند زراشت مرتبطة بالدين، وسوف نرى تأييداً لذلك بعد قليل.

ويرى الزرادشتيون أن النور والظلمة أصلان متضادان، وأن البارئ تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما، وهو لا شريك له ولا ضد ولا ند، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة^(٤)، وعلى ذلك لا يُعتبر زرادشت من الثنوية، أي الذين يقولون بأصليين للوجود. ويعتقد زرادشت أن الله يتكون من ثلاثة أقانيم هي: الرب الحكيم والحق والعقل الخير^(٥). ويقال إن زرادشت له كتاب اسمه (زند أوستا)^(٦). ومنه جاء وصف أصحاب زرادشت بالزنادقة، أي أصحاب كتاب الزند. والزرادشتيون كما يقول الشهر ستاني من الذين يؤمنون بالرجعة مثل كثير من الفرق وظهور رجل يملأ العالم عدلاً ويميت الجور^(٧).

(*) لم يصرح زرادشت نفسه أنه نبي أو رسول من عند الله في المصادر التي لدينا. وربما اتباعه هم الذين قالوا ذلك.

(**) ترجمها الدكتور فيليب عطية فشتاسب (٧)

(٢) الشهر ستاني ١٩٢

(٤) زرادشت ١٩

(٦) الشهر ستاني ١٩٤

(٣) الشهر ستاني ١٩٢

(٥) الشهر ستاني ١٩٣

(٧) زرادشت ١١

ومن ارتباط ديانة زرادشت بالفضائل والقيم ما عرضه برستيد في كتابه فجر الضمير. فمذهب زرادشت^(٥) يصنف الحياة الخلقية تصنيفاً واضحاً إلى الخير والشر، فهو مذهب مزدوج يدعو كل إنسان أن يقف إلى جانب قوة من اثنين؛ فإما أن يملأ روحه بالخير والنور، وإما أن يخلد إلى الشر والظلمة. وقد مثلت هذه القوى جميعاً في كائنات حية، وأي طريقة منهما يسلكها الإنسان، لا بد أن ينتظر بعد موته حساباً عنها في عالم الآخرة، وأما ظهور فكرة الحساب في الآخرة، وهو شيء لم يعرف في آسيا الغربية قبل زرادشت، فقد أوجد نظرية قوية بأن زرادشت قد أخذ الكثير من ديانته عن الديانة المصرية القديمة، والدليل على ذلك فهو هذا النقش الذي شاهده برستيد على أحد أعمدة قصر قورش في بازرجادة، يمثل صورة إنسان طويل القامة في شكل أحد أنصاف الآلهة، له زوجان من الأجنحة المنتشرة في وضع رائع، وفوق رأس الصورة المجنحة كان يعلوها تاج أوزير إله الحساب المصري في عالم الآخرة عند قدماء المصريين، وعلى ذلك يكاد يكون من الأمور التي لا شك فيها - كما يقول برستيد - أن المحاكمة الزرادشتية في الآخرة، مأخوذة من قدماء المصريين^(٨).

فإذا دققنا في الفضائل والقيم عند زرادشت في المصادر التي أتت لنا، وجدناها ذات صبغة مجردة أي أنه حينما يتحدث عن الخير، فإنه يتحدث عنه بصفة عامة، دون أن يتحدث عن وجوه هذا الخير بالتحديد كالصدق والأمانة والبر بالوالدين والإحسان للضعفاء. . وهكذا، وهو كذلك حين يتحدث عن الشر لا يذكر له أمثلة جزئية، على عكس المصريين القدماء وراعنتهم الذين حثوا على فعل الخير بالتفصيل، وسوف نجد هذا الاتجاه، أي الحديث عن الخير بصفة عامة غالباً عند الهندوس والبوذيين وفلاسفة اليونان والرومان. والآن لنلق نظرة

(٥) يطلق عليه أحياناً اسم زروستر

(٨) برستيد ٣٦٩-٣٧٠

على الفضائل والقيم عند زرادشت من خلال ابتهالاته، وهو المصدر الوحيد الذي أتيح لي لعرض الفضائل والقيم عند زرادشت:

ابتهالات زرادشت:

في هذه الابتهالات التي يقر فيها زرادشت مراراً بقوة الله وعظمته، يطلب فيها العون من الله أن يساعده على نشر الخير والانتصار مع زرادشت هو واتباعه على الشر. يقول زرادشت مبتهلاً.

- دعوا روح الشر تخمد واقضوا على الفساد.

- أنتم يا من تصونون أنفسكم بواسطة الاستقامة.

- جائزة العقل الخير الذي رفيقه الرجل المقدس.

- من سيكون مسكنه في منزلك أيها الرب^(٩).

ففي هذه الابتهالات يدعو زرادشت اتباعه الذين يتمسكون بالاستقامة والفضيلة، أن يتركوا روح الشر تخمد وتتطفئ، وأن يحاربوا الفساد للقضاء عليه، ومن يلبي هذا النداء سيكون جزاؤه أن يكون مسكنه في الجنة مع الرب. وفي نفس الترنيمة يقول زرادشت:

- هؤلاء هم المخلصون المقبلون للناس.

- الذين يناضلون بأفعالهم بتعزيد العقل الخير.

- لينفذوا الحكم الذي به قضيت^(١٠).

فهؤلاء الذين سيواجهون الشر، هم المخلصون للرب، والذين يحبون الناس ويناضلون بأفعالهم لتعزيد العقل الخير، وهو الأقنوم الثالث للإله.

وفي ابتهال آخر يقول زرادشت:

- هذا الذي ينتمي إلى الأسرة أو القرية أو القبيلة أيها الرب.

- ويصنع نعمة لرجل الصلاح أو يكد في رعاية القطيع.
- سيصير في مرعى الحق والعقل الخير^(١١).
- فهذا المناضل الذي ينتمي إلى المجتمع، ويقدم الخير للإنسان الصالح السقي، أو يكد لرعاية باقي الناس، سوف يتمتع بالتأكيد بالبقاء في مرعى الحق والعقل الخيّر وهو ما يعرف في أديان أخرى "بالجنة".
- ثم يقول زرادشت في ترنيمة أخرى:
- الأتقياء الذين وجدتهم مستحقين بسبب عدلهم وعقلهم الخير.
- لبّ رغبتهم أيها الرب الحكيم. اجعلهم يحصلون عليها.
- أعرف أن كلمات الصلاة التي تخدم الخير تلقى القبول أمامك^(١٢)!
- فهؤلاء المناضلون الأتقياء الذين يستحقون عطاءك أيها الرب الحكيم، سوف تلبي طلباتهم، وأنا متأكد أن الابتهالات التي تسخر للخير لا بد أن تلقى رضائك.

ثم يخاطب زرادشت أتباعه قائلاً:

- لا تدع شيئاً منك يلتفت إلى كلمات أو تعاليم الشرير.
- لأنه يأتي بالمنزل والعشيرة والمقاطعة والبلاد إلى البؤس والخراب.
- ادفعه عنك بالسلاح (١٣) .
- فهو يطالب أتباعه أن لا يلتفتوا إلى الأشرار ، ولا إلى غوايتهم ، لأن هدفهم هو خراب كل شيء : المنزل والعشيرة والمقاطعة والبلاد جميعا ، ويجب أن تقاومهم بقوة السلاح . وربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي قابلتنا ويحث فيها ذرو الأديان الإنسانية أتباعهم على استخدام العنف دفاعاً عن النفس . ثم ينبه زرادشت مريديه على الواجب عليهم إذا تركت لهم حرية الاختيار :
- سيادة الخير يجب أن تكون اختيار الإنسان.

(١٣) زرادشت ١١٦

(١٢) زرادشت ٨٩

(١١) زرادشت ٥٥

- إنها تجلب النصيب الثمين لمن عمل بحماس.
 - من خلال الحق سوف يحصل على الخير الأسمى.
 - نظير أعماله أيها الرب الحكيم^(١٤)!
- أي أننا إذا تركت لنا حرية الاختيار، ينبغي أن لا نختار سوى "سيادة الخير"، فهذا الطريق سوف يجلب السعادة لمن يعمل فيه بجد واجتهاد، وسوف يحصل السذي يسير فيه على نصيبه بمعرفة الحق (أي الله) حيث يحصل على الخير الأسمى من الرب الحكيم.

ثانياً: المانوية

وهم أصحاب ماني بن فاتك، وهو حكيم ظهر في زمان سابور بن أردشير، وكان يرى أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنهما أزليان ولم يزا ولا ولن يزا^(١٥).

وللمانوية تفسير للوجود، فقالوا إن الوجود وجد لما امتزج النور مع الظلمة. وجميع أجزاء النور تبدأ في الصعود والارتفاع، وأجزاء الظلمة في النزول والتسفل حتى تتخلص الأجزاء من الأجزاء، ويبطل الامتزاج، وذلك هو القيامة والمعاد. ومما يعين على التخليص والتمييز ورفع أجزاء النور، التسبيح والتغديس والكلام الطيب وأعمال البر^(١٦).

ولقد فرض ماني على أصحابه العشر في الأموال كلها، والصلوات الأربع في اليوم واللييلة، والدعاء إلى الحق وترك الكذب والقتل والزنا والسرقة والبخل والسحر وعبادة الأوثان، وأن يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله^(١٧).

وكافة هذه الفضائل والقيم جاءت محددة، وهي وإن كانت موجزة في هذا المصدر، إلا أن الوصية الأخيرة، وهو أن يمتنع الإنسان أن يمس روحاً من الأرواح بما يكره أن يمس شخصياً، فإنها تمثل قاعدة أساسية في الأخلاق كما هو معروف، وهي قاعدة شاملة تشمل الكائنات الحية جميعاً.

هذا، ولم تكن الدعوة إلى الفضائل والقيم عند الفرس وقفاً على الحكماء وأصحاب العقائد فقط، بل إننا قد نجد ما يثبت أن الملوك أيضاً كانوا يدعون إلى الفضائل، فلقد اكتشف العالم ارنست هرزفيلد Ernest Hersfield

(١٦) الشهر ستاني ٢٠٠

(١٥) الشهر ستاني ١٩٨

(١٧) الشهر ستاني ٢٠١

نقشاً يحتوي على بيان خلقي، وعلى المثل الأعلا للسلوك، إذ يقول للملك دارا مثلاً في هذا النقش:

- لقد أحببتُ الصواب و أما الخطأ فلم أحبه.
- وكانت إرادتي عدم ارتكاب أي ظلم ضد أية أرملة أو يتيم.
- ولم تكن إرادتي أن يحققَ ظلمٌ باليتامى والأرامل.
- ولقد عاقبت الكاذب عقاباً صارماً.
- وأما الذي يكذب فقد كافأته مكافأة حسنة^(١٨).

فهذا أحد ملوك الفرس، وهو يعبر عن الأخلاق والمثل العليا في الدولة، يعلن عن الملأ أنه قد أحب الصواب ولم يحب الخطأ، وكان يريد دائماً أن يكون بمنأى عن الظلم، خاصة ذلك الظلم الذي يوجه للأرامل واليتامى، وهو يكره الكذب أيضاً ويعاقب عليه عقاباً شديداً، كما أنه يشجع الذي يكذب ويخلص في عمله، حتى يدفع الآخرين إلى تقليده، وكل ذلك حدث على الفضائل.

من كل ما سبق نستطيع القول أن الفرس، قد ادركوا الكثير من الفضائل والقيم، فقد دعوا في عقيدة زرادشت إلى اخماد روح الشر، وعرفوا الاستقامة، كما عرفوا الحق والخير والحكمة وهي جميعاً أقانيم الله تعالى الثلاثة، وعرفوا الإخلاص والصلاح والنقى، كما عرفوا العدل والخير الأسمى. كما عرفوا من المانوية كثيراً أيضاً من الفضائل والقيم، فعرفوا الكلام الطيب وأعمال البر، ودعوا إلى الحق وترك الكذب والقتل والسرقة، كما دعوا إلى العفة والبعد عن الزنا، وأخيراً توصل ماني ابن فانتك إلى القاعدة الأخلاقية الهامة وهي أن لا يأتي الإنسان على ذي روح ما يكره أن يؤتي إليه بمثله وكافة هذه الفضائل مما جاء بالأديان الإلهية. ومنتقل الآن إلى الهندوس لكي نرى فضائلهم وقيمهم .

الفصل الخامس الفضائل والقيم لدى الهندوس

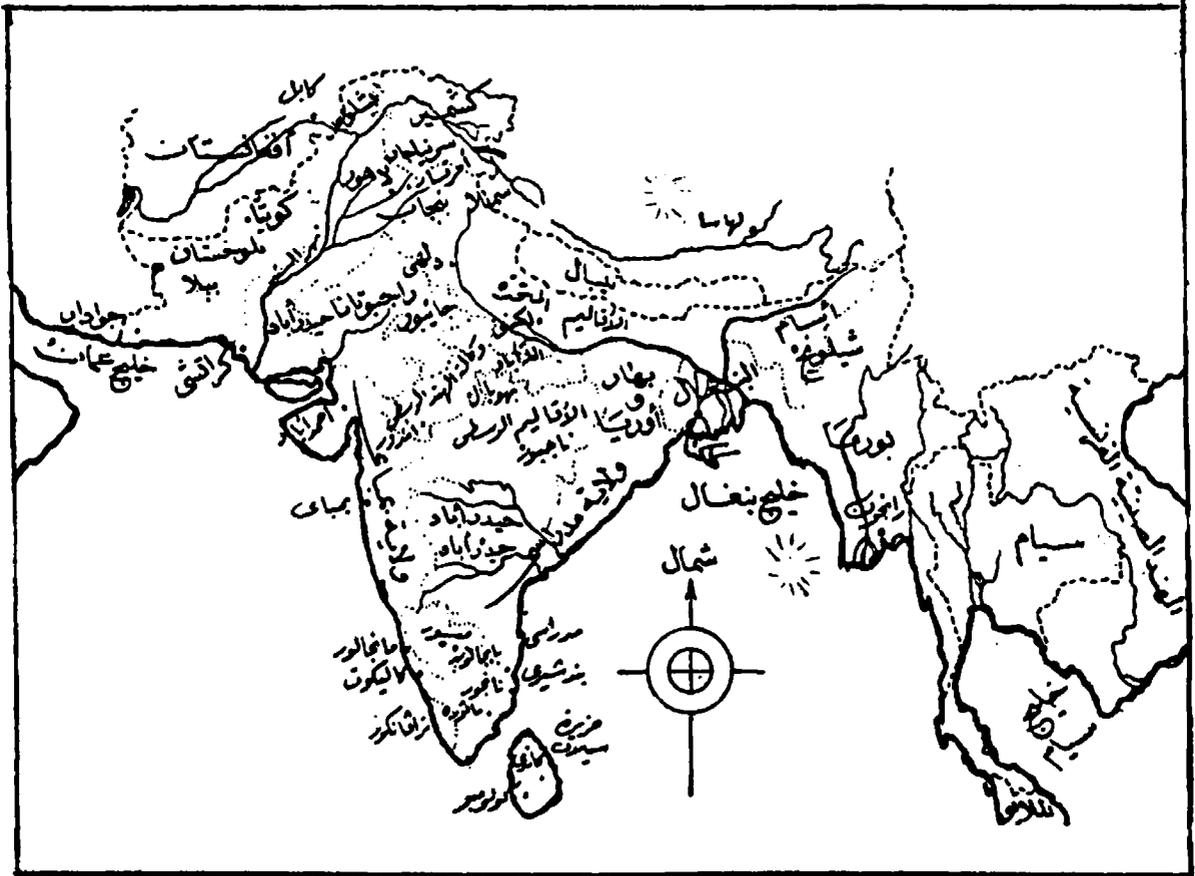
مقدمة

يعتبر بعض أتباع الهندوكية المعاصرين أن الهندوكية دين إلهي وصل لأنبيائهم وحياً وإلهاماً، غير أن المؤلف نجومان أحد كتاب الهندوكية يقول عن حكمائها: "إن هؤلاء الملهمين قد رأوا الحقيقة بنور البصيرة وشفافية الروح لأنهم هم العارفون للحق وهم الطاهرون الأنقياء، فأخرجوا مشاهداتهم الوجدانية في صورة كتب هي كتب الويدا، ولهذا فإن كتب الويدا قد ألحقت بأسماء هؤلاء الملهمين"^(١). هذا النص لا يعني أن الهندوكية قد نزلت وحياً، وإن اعتقد بعض أتباعها ذلك، بل بمجهود صوفي من حكمائها الأطهار؛ ولقد قرر الشهرستاني أن البراهمة [الهندوكيين] "هم المخصوصون بنفى النبوات أصلاً ورأساً" (٢).

ومع ذلك فلا يمنع هذا أن يكون بعض الحكماء من أى شعب من الشعوب قد أوحى لهم رغم أنهم لم يُذكَروا بالكتب السماوية، فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) (غافر-٧٨) . غير أنه لم يتناه إلينا أن حكيماً هندوكياً، أو حتى أى حكيم من شعب من الشعوب التى قدمناها قال مثلاً: إن الله قد أرسلنى لأقول لكم كذا، أو إن الله قد أوحى إلى بكذا، مع أنه مكلف بهذا الإبلاغ حتى يحيى من حياً عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. هكذا قال فقهاء الإسلام من المعتزلة . ولذلك فقد اعتبرنا أن الهندوكية وسائر الأديان التى قدمناها فى هذا الكتاب من الأديان الإنسانية كما جاء بمقدمة الطبعة الثانية.

(٢) الشهرستاني ٤٠٣

(١) رؤوف ١٠٠



خريطة حديثة للهند

ظهور المبادئ الخلقية في الديانة الهندوكية:

إن أول ظهور للمبادئ الخلقية عند الهندوس، يقابلنا في الأصل الديني للعقيدة الهندوكية ذاتها، فسانج هيانج هو "الله" وله صفة السلطان والقدرة، وهو الخالق المبدع والحافظ والمنعم، وهو الله الواحد المتعدد الصفات وهو:

براهما Brahma - فشنو Wisnu - سيفا Ciwa

فبرهما هو نفسه سانج هيانج Sang Hyang ووظيفته أنه الخالق، وفشنو هو الحافظ والرحيم والعطوف أما سيفا فهو المهلك للعالم^(٣)، وهنا نلاحظ أن (فشنو) وهو أحد صفات الله قد وجد من أجل الرحمة والعطف، وهما فضيلتان خلقيتان.

ثم تقابلنا فضيلتا "الحق والعدل" بعد ذلك عند تفسير المؤلف باج واداجيتا Bhag Wadagita لظهور (الحق) أي الله. يقول المؤلف: "عندما كان الحق في حاجة إلى الظهور عمت الفوضى والسيئات ونزل الإله من أجل إقامة العدل والحق"^(٤).

ولا شك أن إقامة العدل والحق هو من أهم الفضائل، ثم ظهرت لنا فضيلة أخرى للإله فشنو، فهو الذي جاء لتحطيم الفساد الذي يظهر في المجتمعات، ويحافظ على الخير. وهناك عشرة آلهة أخرى [صغرى] منها:

Krishna	كريشنا
Rama	راما
Budha	بودا
Kaliki	كاليكي

وكريشنا فقد جاء من أجل إحلال السلام، أما بودا وهو آخر الآلهة،

(٤) رؤوف ١٠٦

(٣) رؤوف ١٠٤

فقد جاء ليعلم الناس الخير والطمأنينة^(٥).

وهكذا تكون بذور الفضائل عندهم قد ظهرت في البشرية من كائنات سماوية، وليست من خلق الإنسان، وإن كانت في الأصل من وضع انبشريين بهذه الديانة من البشر.

ومن الملاحظ أن السعادة. وهي هدف أصيل للهندوس لا يتحصل عليها إلا بالعمل المضني الشاق، ولا تظن أن المقصود هنا هو العمل في المصانع والحقول، أو في قضاء حوائجنا، ولكن المقصود به هو ممارسة اليوجا. وأما عن هذه اليوجا - كما يقول الدكتور رؤف شلبي:

أولاً: الاتصال بالله مع الوحدة معه.

ثانياً: العمل على الحصول على Jnana بأسلوب العبادة الخالصة وفعل الخيرات.

ثالثاً: أن يفعل المثل العليا دون انتظار شكر من الناس.

رابعاً: أن يعيش زاهداً Tapa آمناً خاشعاً متبتلاً، وهي بلغتهم راجا يوجا Raga Yoga. بعد ذلك يحدث الخلاص.

والآن لننتحدث عن فضائل الهندوس وقيمهم بشيء من التفصيل بعد أن

تبين لنا ارتباط الفضائل والقيم لدى الهندوس بعقيدتهم الدينية.

الفضيلة:

من اللافت للنظر في العقيدة الهندوكية أنه من فرط اهتمامها بالفضيلة

والشرف، خصصت طبقة من طبقات المجتمع هي طبقة الكاستريا Kastia

وهي طبقة المحبين للوطن، المدافعين عن الزمار العاملين من أجل الرخاء،

المجاهدين من أجل الشرف وحماية الفضيلة وإشاعة الوثام، إنهم القادة للأمة

(٥) رؤوف ١٠٦

والرعية^(٦) ويلاحظ أن "الفضيلة" هنا هدف عام في حد ذاته تتدرج تحته فضائل أخرى سوف نتضح لنا تباعاً.

الفكر الصالح مدخل لعدد من الفضائل:

يمثل الفكر الصالح في الهندوكية مدخلاً هاماً للفضائل والقيم، والحقيقة أن فضيلة "الفكر الصالح" هي فضيلة عامة أيضاً، تترك للمريد مهمة تحديد هذا الفكر، وتلقي بالمسئولية الخلقية على عاتقه، وهذا يعني مسئوليته الأخلاقية، وأنه حر مسئول عن أعماله، كما تعني ضمناً أن الإنسان يمتلك حاسة خلقية اكتسبها من المجتمع.

والفكر الصالح له أسس ثلاثة تجعله أكثر تحديداً هي:

١- " لا تؤجل [لا تؤمل] ولا نرغب في أي شيء ليس حلالاً .

٢- لا نفكر بسوء أو بشر نحو أي من البشر.

٣- لا ننكر الثواب الذي يدخره الله للصالحين^(٧).

ولكن الفكر قد يؤدي إلى الحديث بعد ذلك، فينبغي عندئذ أن يكون

الحديث صالحاً أيضاً وأسسها هي:

١- "عدم محبة الشتائم.

٢- عدم محبة الألفاظ النابية.

٣- عدم محبة الفتنة .

٤- لا ينكر الوعد ولا يخلفه^(٨).

(٦) رؤوف ١٢٥

(٨) رؤوف ١٣٣

(٧) رؤوف ١٣٣

العمل الصالح

ومن الفضائل في الهندوكية "العمل الصالح"، إذ من العقيدة الهندوكية أن الله قد أودع في كل امرئ نفساً أروحا تسمى (أتما) Atma ، وهذه النفس من البدن بمنزلة السائق من العربية، وأصل هذه النفس من براهما Sang Hayang لذلك لا يعترئها الفساد. وطبقاً لعقيدة كارما فإنه عند الموت يجب أن يحرق الجسد مع الروح، أما الروح فهي أبدية باقية، وحسب أعمال صاحبها تنال الجزاء، فهي إما في الجنة وإما في النار^(٩).

وبعد أن تنال الروح نصيبها من النار أو من النعيم لا تستقر هناك بل تولد من جديد، وتظل هكذا مراراً حتى تعرف حقيقتها فتتفرد بذاتها لإلهها، وهنا تتخلص من مسئولياتها الدنيوية وتعود إلى ربها في عالم البهجة والسعادة حيث تتحد مع الإله وهذا هو المأرب الأخير للروح^(١٠).

فالأعمال الخيرة جزاؤها لا بد أن يكون خيراً وخلوداً، والأعمال الشريرة لا بد وأن يكون جزاؤها مثلها شراً ومقتاً. ولهذا فكما يقول الدكتور رؤوف شلبي، فإن فكرة الخير والشر هذه تدفع الإنسان الهندوكي إلى أن يحرص دائماً على أن يربط كل تصرفاته بفعل الخير وأن يبعد على كل ما يفسد الخلق والسلوك والحياة^(١١).

الوفاء والطهارة والرقّة في معاملة النساء:

وأول ما يوجد الوفاء في العقيدة الهندوكية هو أن يوجه هذا الوفاء إلى الله الخالق، فانه قد أحب البشر ولذلك خلقهم، ولكنه لم يتركهم هكذا بل أرسل لهم

(١٠) رؤوف ١٠٩-١١٠

(٩) رؤوف ١٠٨-١٠٩

(١١) رؤوف ١١٢

الرسول مزودين بالمعرفة، والتعاليم التي جاءت في كتبه: الويدات. وعلى ذلك فعلى الناس الاعتراف بهذا الجميل، فنرد للإله الشكر لنعمته في صورة تكريم ورعاية المقدسات والأطهار من القديسين والملهمين، ولن ندخل في تفاصيل الوسائل المتبعة لرد الجميل لأنها وسائل عبادية، غير أن إحدى هذه الوسائل، احتوت على بعض الفضائل وهي تلك التي تدعوا إلى "الثناء على الأرواح الطاهرة والعمل على طهارة النفس وحفظ العرض والنسل، والتمسك بنصائح هؤلاء الملهمين مع الإخلاص والتضرع والخشوع"^(١٢).

والذي يهمننا هنا هو وجود فكرة الوفاء، وإن كان هذا الوفاء موجه للإله الخالق وليس للإنسان.

أما بالنسبة للنساء، فقد كان لهن عند الهندوس مكانة خاصة، إذ أن تشريع مانو - كما يقول ديورانت - يحتوي على فقرات توحى بالرفق المستتير في معاملة النساء: " فلا يجوز ضربهن حتى بزهره"^(١٣). وبإزاء شريعة مانو هذه، أرجو أن يأذن لي القارئ في التحرر قليلاً من قيود المنهج الوصفي لأعبر عن بالغ تقديري واحترامي لتلك القيمة الرفيعة، التي بلغت درجة عالية في رقتها ونبلها.

التسامح والبر بالفقراء والعدل والرحمة :

ومن فضائل الهندوس أيضاً كالتسامح والإحسان والبر بالفقراء وغير ذلك، ما يرويه لنا يوان تشوانج، وهو من أشهر البوذيين الصينيين، إن هارشا أحد ملوك الهند كان يعلن كل خمسة أعوام عن حفل عظيم لأعمال البر، كان يدعو إليه كل أصحاب الديانات على اختلافها، كما يدعو إليه كل الفقراء والمعوزين في مملكته، وكانت عادته في هذا الاجتماع أن يحسن على ملاً من

(١٣) ديورانت ١٨٠/٣

(١٢) رؤوف ١٢١-١٢٢

الناس بكل الفائض عن حاجته في خزانة الدولة منذ الاحتفال الخمسي الماضي، ولكم دهش يوانج لما رأى مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والنقود والجواهر والأثواب الدقيقة النسيج، والغلات الموشاة، مكسداً أكواماً في ميدان مكشوف يحيط به عشرات من الأروقة يضم كل منها ألف شخص، وكانت الأيام الثلاثة الأولى تخصص للطقوس الدينية، ثم يبدأ توزيع الصدقات في اليوم الرابع، وكانوا في ذلك الحفل يطعمون عشرة آلاف من الرهبان البوذيين، ويقدمون لكل منهم لؤلؤة وثياباً وأزهاراً وعلطوراً ومائة قطعة من الذهب، وبعدئذ يعطون البراهمة من الصدقات ما يكاد يبلغ هذا المقدار، ثم يعطون الجائتين [إحدى الطوائف المعارضة للهندوكية] صدقاتهم وبعد ذلك يحسنون على الفقراء واليتامى الذين جاءوا من كل ركن من أركان المملكة من غير رجال الدين^(١٤).

وإذا كان ديورانت يشك بعض الشك في هذا الخبر وله الحق في ذلك، فإن ذلك لا يعني أنه عارٍ تماماً من الصحة، بل يعني أنه قد يتسم بشيء من المبالغة ولا بأس أن يقوم القارئ بمجهود إضافي في تقدير ماهية هذه المبالغة وموضعها.

وإذا كانت القسوة صفة لبعض شعوب وملوك العصور القديمة، ومع ذلك فإن الملك كرشنا رايا الهندي، كان من الملوك الذين خرجوا عن هذه القاعدة، لأنك - كما يقول ديورانت - سترى فيه ملكاً أنفق حياته في العدل والرحمة، وبسط كفه بالإحسان الغزير، وتسامح إزاء الديانات الهندية، وكان له شغف بالآداب والفنون فأيدها، وكان كريماً مع من سقط في يديه من أعدائه، فعفا عنهم ولم يمس مدنهم بسوء، وانصرف بجهد كنه حتى الإفراط، إلى شئون الحكم، حتى أن مبشراً برتغالياً هو دومنجو سبيز يكتب عنه عام ١٥٢٢ م فيقول أنه بلغ

أقصى ما يمكن لملك أن يبلغه من الهيبة والكمال . وهو لا يألو جهداً في تكريم الأجنبي وفي الحفاوة بهم .. إنه حاكم عظيم ورجل يغلب على أخلاقه العدل^(١٥). فنحن هنا بإزاء رجل لا يحث على الفضائل، وإنما يمارسها بنفسه، وهو ليس رجلاً عادياً من عامة الشعب، بل ملك ذو نفوذ وسلطان، فيكون بذلك مثلاً أعلى لشعبه كي يمارس فضائل العدل والرحمة والإحسان وإكرام الضيف، والتسامح تجاه الديانات الأخرى.

المسالمة والأمانة والاعتدال في شرب الخمر:

ومن فضائل الهنود- بل الصينيين أيضاً كما سوف نرى- أنهم لا يحبون النزاع أو الشجار، وأنهم كثيراً ما يقومون بتسوية مشاكلهم دون اللجوء للقضاء يقول ديورانت: "إن المؤرخ اليوناني الذي أرخ لحملات الإسكندر، يصف الهنود بأنهم يستوقفون النظر باستقامتهم، وأنهم بلغوا من سداد الرأي حداً يجعل التجاءهم إلى القضاء نادراً، كما بلغوا من الأمانة حداً يغنيهم عن الأقفال لأبوابهم، وعن العهود المكتوبة تسجيلاً لما اتفقوا عليه، فهم صادقون إلى أبعد الحدود"^(١٦).

ومما يؤيد ذلك أيضاً ما رواه المجسطي الذي كان سفيراً في باتاليبوترا عن سلوكس نكتار ملك سوريا وذلك في عهد قريب من تحرير الهند من حكم الإسكندر الأكبر، فلقد أعجب هذا السفير بالمدينة في الهند، والتي اعتقد أنها أكثر رقياً من مدينة اليونان خاصة أنها كانت تخلو من الرق، فهم في سلوكهم يتصفون بالبساطة وهم كذلك مقتصدون فهم لا يشربون الخمر قط إلا في الاحتفال بتقديم القرابين، والدليل على بساطة قوانينهم ومواثيقهم هو أنهم قلما

يأجأون إلى محاكمهم بقضايا من خرق العهود أو نهب الودائع بل هم لا يحتاجون إلى أختام أو شهود، ولكنهم يودعون أشياءهم على ثقة بعضهم ببعض..إنهم يقدرون الحق والفضيلة قدراً عظيماً^(١٧). كل ما سبق من الفضائل.

التسامح الديني والحرية الاجتماعية والإحسان

كانت الديانة الهندوسية منتشرة في الهند على نحو ما هو معروف، غير أن طائفة كبيرة من الهنود اعتنقت البوذية لا الهندوسية، ونظراً لما بين الديانتين من خلاف حيث أن إحداهما روحية وهي الهندوسية، والأخرى سلوكية لا علاقة لها بالروح، نظراً لكل ذلك فقد كان من المتوقع أن ينشأ الخلاف بين الديانتين، ومع ذلك كان السلام - فيما يبدو - سائداً بينهما.

فكثير من المرسومات التي أصدرها أشوكا فارذانا الذي تولى العرش سنة ٢٧٣ ق.م هي مرسومات بوذية، لا تنى تذكر مرة بعد مرة ضرورة التسامح الديني، فعلى المرء أن يحسن إلى كهنة البراهمة، كما يحسن إلى كهنة السبوذيين سواء بسواء، ولا ينبغي لأحد أن يسيء بالقول إلى عقيدة من العقائد. ويعلم الملك أن كل أفراد شعبه بمثابة أبنائه الذين يحنو عليهم، فهو لن يفرق بينهم بسبب اختلافهم في العقيدة^(١٨). وواضح أن التسامح الديني والإحسان من الفضائل الأخلاقية.

وهاهو حجاج صيني آخر هو فارهين الذي جاء من الصين إلى الهند بغرض الحج في مستهل القرن الخامس الميلادي، يصف رحلته إلى الهند وكيف كان طوال الرحلة، فلم يتعرض للإيذاء أو السرقة، على عكس ما حدث له في الصين وطنه حيث تعرض لبعض المتاعب ثم يصف إعجابه بما كان للشعب الهندي من ازدهار وفضيلة وسعادة، ومن حرية دينية واجتماعية، وقد أدهشته

(١٨) ديورانت ١٠٣/٣

(١٧) ديورانت ٩٣/٣

المدن الكبرى بكثرتها وحجمها وعدد سكانها، كما أدهشته المستشفيات المجانية وغيرها من مؤسسات الإحسان التي امتلأت بها أرجاء البلاد، وعجب لعدد الطلاب الذي يختلفون إلى الجامعات والأديرة، والقصور الملكية الهائلة بعظمتها وفخامتها، وإنك لتقرأ وصفه فلا تجد فيها إلا مدينة فاضلة (يوتوبيا) إذا استثيت عاداتهم من قطع الأيدي لبعض الآثمين^(١٩).

وواضح أن الحرية الدينية والعطف على المرضى الفقراء كل ذلك من الفضائل.

النظافة وآداب السلوك الطيب:

للنظافة منزلة رفيعة لدى الهندوس، وهي مرتبطة بالعبادة برباط وثيق، إذ تأتي في منزلة بعد العبادة مباشرة . . بل هي عندهم جزء حيوي من العبادة، ولقد سنّ مانو منذ عدة قرون تشريعاً يستلزم تهذيب البدن، ففي تعليماته مثلاً: يجب على البرهمي أن يستحم في الصباح الباكر، وأن يزين جسده وينظف أسنانه ويغسل عينيه ويعبد الآلهة، والمدارس الأهلية تجعل أولى المواد في برامجها آداب السلوك الطيب والنظافة الشخصية، فعلى الهندي ذي المكانة المحترمة، أن يغسل جسده كل يوم، وأن يغسل ثوبه الذي سيرتديه، وإنه ليقشعر تقزراً إذا ما لبس الثوب - بغير غسل - أكثر من يوم واحد^(٢٠).

وقد يبالغون في النظافة فلا تستعمل أوعية الطعام أكثر من أكلة واحدة، فما كان منها مصنوعاً من الخزف أو من الخشب يجب رميه بعد استعماله وأما ما كان مصنوعاً من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد يجب إعادة صقله، ولا يلبث الهنود بعد فراغهم من طعامهم أن يلوكوا مساويكهم لتنظيف أسنانهم، ولا

(٢٠) ديورانت ١٨٦/٣

(١٩) ديورانت ١١٠/٣-١١١

يلمس أحدٌ منهم أحدًا إلا إذا اغتسلوا متوضئين^(٢١). فلقد ارتبطت العقائد الهندية بالعديد من الفضائل.

وها قد انتهيا من عرض بعض الفضائل والقيم لدى الهندوس، وقد رأينا أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالديانة الهندوكية، ورأينا أنهم اهتموا بالفضيلة والشرف في عمومها، كما اهتموا "بالفكر الصالح" والذي حددوا أسسه بالأنا نامل أو مرغوب في أي شيء ليس حلالاً، وأن لا نفكر بسوء أو بشر نحو أي من البشر وعدم إخلاف الوعد، وأنهم كما اهتموا "بالفكر الصالح" اهتموا أيضاً "بالعمل الصالح"، ولقد اهتموا اهتماماً خاصاً "بالوفاء"، الوفاء للإله الذي خلقنا، ولم يتركنا سدى، بل أرسل لنا الحكماء والأقوياء الهندوس لهدايتنا. أما بالنسبة للنساء، فقد حفلات الهندوكية بإحدى القيم الفريدة في الثقافات التي عرضنا لها، فقد حدث تشريع مانو على الرفض المستير في معاملتهن إذ "لا يجوز ضربهن حتى بزهره". وقد رأينا كيف أن الملك هارشا كان يعطف على الفقراء والمعوزين، وأنه كان يكرم رجال الدين البوذيين وهو الهندوسي، قبل رجال الدين الهندوس رغم ما بين العقيدتين من اختلاف، بل لقد وصل في تسامحه إلى درجة تكريم الجائتين، وهي طائفة معارضة للهندوكية، ولقد رأينا أن الملك كرشنا راي قد فعل نفس الشيء أيضاً- وإن كان ذلك في عصر متأخر، وأغلب هذه الفضائل والقيم جاءت قبل نزول الأديان الإلهية أو بعيداً عن مكان نزولها، وإن كانت تكاد تتفق مع نظيرتها بتلك الأديان على النحو الذي نعرفه. ولننتقل الآن لكي نرى الفضائل والقيم لدى البوذيين •

(٢١) ديورانت ١٨٦/٣

الفصل السادس الفضائل والقيم لدى البوذيين

مقدمة:

تعتبر البوذية ديناً سلوكياً أكثر منها عقيدة، بمعنى أنك تجدها غنية بمعايير السلوك وقيمته، ولا تجد فيها من المعتقدات الغيبية إلا النذر اليسير، إذ أنها كانت تعتقد في البعث ويوم القيامة وفي وجود الجنة والنار، وإن استبعدت الغيب من صميم العقيدة، ومع ذلك فقد لجأت إليه في بعض الأحيان.

هذا ولقد تحدث بوذا عن الخير والشر كثيراً فقد كانا محورين هامين من محاور اهتمامه إلى جانب اهتمامه بالخلاص والسلام النفسي للبوذي، فقد كان يحث على اتباع السلوك الذي يؤدي إلى الخير وتجنب السلوك الذي يؤدي إلى الشر دون أن يحدد في كل مرة ما هو هذا الخير وذلك الشر، فقد وضع مهمة هذا التحديد في أحيان كثيرة على عاتق البوذي، فالإنسان عند بوذا هو الذي يحدد القيم والفضائل على خلاف حكماء المصريين القدماء الذين كانوا يحددون القيم والفضائل تحديداً دقيقاً، ويجعلنا هذا نستنتج أن بوذا كان يؤمن ضمناً بوجود حاسة خلقية عند الإنسان يمكن أن توجهه لإدراك ما هية هذه القيم والفضائل التي تؤدي ممارستها إلى تحقق الخير، بل إن بوذا كان يضمن ذلك طالما كان هدف الإنسان هو الفضيلة "فالذين يفكرون دائماً بمنطق الفضيلة في كل غاياتهم ومقاصدهم يزدادون قوة على قوة في سلامة منطقتهم فلا يتقيدون برباط دنيوي أو شهواني وهم الذين سوف يصلون إلى (نيبانا) في هذه الحياة"^(١).

وفي موضع آخر يقول بوذا "واجب على البشرية أن تجاهد للحصول على الفضائل. إن البشرية مطالبة بأن تعدل فكرها من الاتجاه السيئ إلى الاتجاه الحسن"^(٢) وكان بوذا يرى - مثلما رأى معظم الأخلاقيين فيما عدا اللاهوتيين والمثاليين - أن مصدر الإلزام الخلفي كامن في الإنسان ذاته وليس خارجاً عنه؛ فقد كان يسخر من فكرة إرسال الدعوات إلى المجهول، وفي ذلك يقول "إنه لمن الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سبباً في سعادتك أو شقائك، لأن السعادة والشقاء دائماً نتيجة سلوكنا نحن وشهواتنا نحن. وهو يابى أن يبني تشريعه الخلفي على عقوبة تفرضها قوة وراء الطبيعة كائنة ما كانت هذه العقوبات، ولا يجعل جزءاً من عقيدته جنةً ولا مطهراً ولا جحيماً، وهو أرفه حساسية للألم والقتل الذي ينزل بالكائنات الحية بحكم العملية البيولوجية في الحياة من أن يفرض أن هذا القتل وذاك الألم قد أرادهما إله مشخص إرادةً عمداً وتدييراً"^(٣). أي أن الالتزام بالفضائل عند بوذا لا يكون خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة، فأخلاقه إنسانية، وإن كان قد لجأ إلى التلويح بالجنة والنار في أحيان قليلة كما سوف نرى.

ولقد انتشرت البوذية، ومن بعدها الكونفوشيوسية في الصين، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الهند واليابان، غير أن البوذية كانت أكثر تفوقاً من الكونفوشيوسية في هاتين النقلتين، وإلى جانب هاتين الديانتين الكبيرتين، كان هناك حكماء وفلاسفة ومفكرون داخل هاتين الديانتين، يتفقون مع بوذا وكونفوشيوس أحياناً، ويختلفون معهما أحياناً أخرى. وسوف نتحدث أولاً عن الفضائل والقيم البوذية في الصين.

(٣) ديورانت ٨٢/٣

(٢) رؤوف ١٧١



خريطة حديثة للصين واليابان

أولاً: الفضائل والقيم لدى البوذيين الصينيين

كبح الجماح ومحاسبة الذات وواد الشهوات:

نستطيع أن نقول - مع قليل من المغامرة - أن كبح الجماح، هو قمة الفضائل البوذية، وسوف يرى القارئ بنفسه أن فضيلة كبح الجماح سوف تتردد كثيراً في كتاب البوذية؛ وهاهو بوذا يشترط للرجل الفاضل أن يسيطر على نفسه "فمن يعد قنوات المياه يتسبب في جريان الماء كيفما يشاء، وصانع السهام يعدلها ويجعلها مستقيمة، وصانع الخشب يهندس أبعاده، فكذلك الرجل الفاضل فإنه يقود نفسه ويحاسبها"^(٤). فالرجل الفاضل في نظر بوذا هو الذي يوجه نفسه ويسيطر على أفعاله وهو الذي يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون.

ولقد أكد بوذا كثيراً على محاسبة الذات، بل وتهذيبها فيقول "إِذَا فَرَضْنَا أَنْ هُنَاكَ شَخْصاً يُحِبُّ نَفْسَهُ وَيَعْطِفُ عَلَيْهَا، دَعَهُ دَائِماً يَلْحَظُ ذَاتَهُ وَيَسْعِدُهَا، لَكِنْ الرَّجُلُ الْحَكِيمُ الْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَهْذِبُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكُلِّ حِينٍ"^(٥). وهو إن فعل ذلك فسوف يكون مثلاً لغيره من الذوات "إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَرْبِطَ ذَاتَهُ بِالْخُلُقِ الْفَاضِلِ فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُودَ غَيْرَهُ [إِلَى] مِثْلِ هَذَا الْخُلُقِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ بِنَاءَ الذَّاتِ صَعْبٌ مَرَّاسُهُ"^(٦). غير أن محاسبة النفس وكبح جماحها يوجب المكافأة "فَعِنْدَمَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَسْطِرَ عَلَى نَفْسِهِ، فَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ يَلْتَقِي بِالْأَسْتَاذِ الَّذِي يَصْعَبُ الْحُصُولَ عَلَيْهِ كَثِيراً"^(٧)

وكنتيجة لكبح الجماح تأتي فضيلة احتقار الدنيا وواد الشهوات والملذات،

(٥) رؤوف ١٧٨

(٧) رؤوف ١٧٨

(٤) رؤوف ١٧٥

(٦) رؤوف ١٧٨

وقد ألح بوذا على ذلك في مناسبات عديدة، فيقول مثلاً "انظر إلى الحياة على أنها زبد يذهب جفاءً، اعتقد أن الحياة مثل الظل أو الخيال. إن من يصدق هذه التعاليم سوف لا يقابل ملك الموت"^(٨). وهو يقصد بذلك أنه طالما احتقر الدنيا فإنه لن يخشى الانتقال إلى الحياة الأخرى. ثم يقول بعد ذلك تنبيهاً على أن الحياة زخرف زائل "تعالوا نعتقد أن هذه الدنيا مثل عربة الملك جميلة الزينة والزخارف، المغفلون هم الذين يقعون في شرك هذه الزخارف، أما العقلاء والحكماء، فإنهم لا يقعون في هذه الشرك"^(٩).

ومن مظاهر كبح جماح النفس عدم التأثر لا للمدح ولا للذم، أي لا فرح ولا غضب. يقول بوذا "ولكن الذي يستطيع أن يتغلب على المدح والثناء فلا يتأثر به، يكون مثل اليوم الصافي الذي لا سحابة فيه ولا غيوم"^(١٠)(*)

أما الوسيلة لكبح الجماح عند البوذيين، فهي لا شك السيطرة على البدن ومطالبه. يقول بوذا "فلتكن إرادة الناس جميعاً يقظة دائماً تجاه ما يثير شهوات الجسم، فليتنظفوا أبدانهم، وليحافظوا عليها، وليفعلوا بأبدانهم خيراً"^(١١). ولكي يحققوا ذلك فعليهم أن يحذروا "من المثيرات التي تهيج مطالب الجسد واللسان والكلام لينتخبوا الألفاظ والكلمات بعد ما يطهرون نفوسهم من الذنوب والآثام. وعندما يعملون صالحاً عليهم أن يقرنوه بالكلام الطيب"^(١٢)، والصالحون هم "الذين يسوسون دائماً أبدانهم وكلماتهم وأفكارهم، هم الذين - بحق - سيطروا على أبدانهم بأسلوب واضح ومتين"^(١٣).

(٩) رؤوف ١٨٠

(٨) رؤوف ١٨٠

(*) في الأصل: "ولكن الذي لا يستطيع . . . والصحيح عدم وجود (لا)

(١١) رؤوف ١٩٠

(١٠) رؤوف ١٩٠

(١٣) رؤوف ١٩١

(١٢) رؤوف ١٩٠

الطهارة والعفة والأمانة:

ومن القيم البوذية الطهر والعفة، فلا ينبغي أن ينظر الرجل لزوجته رجل آخر، ومن يفعل ذلك سوف يعاني "من العيب والقلق وسوء التصرف وأخيراً يدخل النار. .، إنها لذة قصيرة تلك التي يعاقرها المذنب الزاني. . ولذلك ينبغي أن لا تفكر في زوجة رجل آخر"^(١٤)، ونلاحظ هنا أن العقاب بالحرق هو من المرات القليلة التي يلجأ فيها بوذا إلى وازع خارجي.

غير أن التطهر عند بوذا ليس هو الزهد فحسب، بل لابد من الإيمان واليقين الخالص "ليس فقط من أجل الملابس والصفائر، ولا من أجل ما يوسخ به الإنسان نفسه، ولا من أجل الصوم أو النوم على الأرض أو لأنه يدلك جسمه بالتراب، وليس لطريقة جلسته دون حركة، ليس لكل هذا يحصل الإنسان على التطهر، ما دام يحمل في طياته نفسه الشك والريب، الذين يمتدحون ويحفظون فكرهم متزناً هادئاً، هم الذين يعيشون الحياة الطاهرة لأنهم لا يؤذون مخلوقاً سواء كان ذلك المخلوق براهما أو بتابا Petapa أو بيهكو Bihku"^(١٥)

ومن الطهر والعفة أن لا نمارس الحرام ليس فقط بأيدينا، بل أيضاً لا نمارسه بحواسنا؛ وهذه الحواس التي لا تمارس الحرام هي حواس عفيفة فاضلة "قالعين التي تصان عن الحرام فاضلة، وهكذا الأذن التي تصان والأنف الذي يصان، كلها فاضلة، ومثل هذا أيضاً اللسان الذي يصان، يكون فاضلاً"^(١٦)

غير أن الطهر الذي يعنيه بوذا ليس الطهر الذي يبدو للناس من أفعالنا، بل المهم أن يكون ذلك الطهر من الباطن^(١٧)، إنه طهر الضمير .

ومما يرتبط بالطهر والعفة، الأمانة؛ ومن النصائح التي تؤدي إلى الفضيلة، هو أن لا تبحث عن الثروة أو الولد أو الجاه عن طريق غير أمين،

(١٥) رؤوف ١٧٤

(١٧) رؤوف ١٥١

(١٤) رؤوف ٢٠٤

(١٦) رؤوف ٢١٤

فالذين لا يفعلون ذلك هم حقاً الحكماء السالكون طريق الحق المنير.^(١٨)
ومن التعفف أيضاً أن لا تبحث عن عيوب الآخرين، والشخص الذي
يبحث عن عورات الآخرين دائماً ويراقب أعمالهم، سوف تكبر أهواء نفسه،
ويصعب عليه بعد ذلك التغلب على شهواته.^(١٩)

ومما يلفت النظر فإن الطهارة عند البوذيين لها مرتبة سامية بين
الفضائل، فهي أفضل من السلطة- وهذا أمر مفهوم- ولكنها أفضل من دخول
الجنة، وهذا ما يحتاج منا للتأمل. يقول بوذا "الأفضل والأعظم من السلطة في
هذه الدنيا، والأفضل من دخول الجنة، والأفضل من السيادة فوق الدنيا كلها،
الأفضل من كل هذا الشخص الذي حصل على المرتبة الأولى في الطهارة
والنقاء"^(٢٠). ونستنتج من ذلك أن هناك عند بوذا مرتبة للجزاء أعلى من الجنة
يمكن الوصول إليها على الأرض عن طريق الطهارة.

الصدق وعدم النفاق والعفة ووضوح المعاني:

وتحتل فضيلة الصدق مكانة مرموقة في الديانة البوذية وهو موضع آخر
من المواضع النادرة التي يزرع فيها بوذا أتباعه بتخويفهم بالنار " فكل من يتحدث
بغير صدق سوف يدخل النار، وكل من يعمل شيئاً ثم ينكره. فإنه بعد الموت
يدخل مع صاحبه الأول كمن فعل شراً وكلاهما يدخل النار"^(٢١). ولقد وصل
طالب الصدق عند بوذا إلى درجة أنه جعله آية للبرهمناني؛ يقول بوذا "إنني اسميه
برهمنانياً ذلك الذي إذا تحدث كان صادقاً وحديثه خال من الألفاظ النابية، ومعانيه
واضحة مفهومة ولا تسبب آلاماً للسامعين"^(٢٢). ولا شك أن وضوح المعاني

(١٩) رؤوف ١٩٤

(٢١) رؤوف ٢٠٤

(١٨) رؤوف ١٦٥

(٢٠) رؤوف ١٨١

(٢٢) رؤوف ٢٢١

أحد معايير الصدق، وهو من المرات القلائل التي نجد فيها وضوح المعنى فضيلة.

ومن الصدق أيضاً ألا نكون منافقين، فبرغم [أن] الزهر الجميل عديم الرائحة أو غير زكي الرائحة يشبه الكلمات اللطيفة التي تخرج من الفم ولكنها لا تطابق العمل، غير أن الزهر جميل المنظر وجميل اللون وزكي الرائحة فيشبه الكلمات اللطيفة التي تخرج من فم الرجل الذي يطابق سلوكه أقواله^(٢٣)، فمهما كانت ألفاظنا جميلة ومنمقة ولكنها لا تخرج من القلب، فإنها مجرد ضجيج.

ومن الصدق أيضاً أن نخضع للحقيقة، أما "الذين يقبلون الحقائق فيجعلون غير الحق حقاً ويجعلون الحق باطلاً سوف ينتهون على أن يحصدوا العبت، أما الذين يقرون الحق حقاً، والباطل باطلاً، فإنهم سوف يصلون إلى الحقيقة ويحصدون الغاية النبيلة التي ينشدونها"^(٢٤).

ومن ارتباط الصدق بالحق، يقول بوذا "كل من يقيم شخصيته على الحق والصدق والعمل الفاضل بدون تعسف أو قهر، فإن نفسه تتهدب وتُقاد إلى الخير ويسيطر عليها الشخص غير المعيب وهو حكيم، إنه الشخص الذي يصح أن يطلق عليه حقاً إنه شخص أو إنسان"^(٢٥).

وإذا كان الكذب هو المدخل تقريباً لكل الشرور، فلا بد إذن أن تحتل فضيلة الصدق مكانة ممتازة في كافة الأديان والعقائد، يقول بوذا "كل من يقتل هو دائماً يكذب، ويغتصب الودائع [أي الأمانات]، ويخالل زوجات الآخرين، والذين يستسلمون للمسكرات يعيشون في الدنيا كأنهم يحفرون قبورهم بأنفسهم، ولتعلم أيها الأخ الشقيق أن فاعل المعاصي ليس من السهل أن يحبه إنسان،

(٢٤) رؤوف ١٥١

(٢٣) رؤوف ١٥٩

(٢٥) رؤوف ١٩٥

فأحذر أن تترك نفسك تضللها أفعال الشر فتلقي بك على وجهك في التعاسة
وخيبة الرجاء»^(٢٦)!

الرحمة والتعاطف ورقة الحاشية:

كل شخص وصل إلى قمة الفضيلة هو براهماني، وبوذا يطلق هذا اللقب
على الشخص إذا حافظ على أرواح الضعفاء، وكان رحيماً بهم. يقول بوذا "إنني
اسميه برهمانياً ذلك الذي لا يعذب مخلوقاً من المخلوقات الضعيفة، والقوى الذي
لا يستخدم قوته في القتل، أو لا يتسبب في قتل أي مخلوق"^(٢٧)، ونلاحظ هنا أن
بوذا لم يقصر رحمته على الإنسان، بل على كل المخلوقات الضعيفة "وجماعة
تلاميذ السيد بوذا دائماً في يقظة بالليل والنهار، ويفكرون في العطف والشفقة،
والإحسان"^(٢٨).

ولقد حث بوذا أتباعه- بالإضافة إلى الرحمة والتعاطف- على رقة
الحاشية ولين الطبع، فعليك أن تكون مهذباً في اختيار ألفاظك. فإذا كان الذي
أمامك إنساناً رقيقاً فقد تسيء إلى قلبه، وإذا كان إنساناً شرساً فسوف يرد لك
الإساءة، لذلك ينبغي عليك "أن تحذر أن تتلفظ بكلمة تسيء إلى القلب مهما كان
المخاطب الذي أمامك، وتعلم أنه يمثل أسلوبك في الحديث وسوف يرد عليك،
فإن الألفاظ النابية تقلق القلب والرد سيكون أقسى"^(٢٩).

(٢٧) رؤوف ٢٢١

(٢٩) رؤوف ١٧٣

(٢٦) رؤوف ١٩٣

(٢٨) رؤوف ٢٠٢

حب الآخرين وعدم الحقد عليهم:

رأينا في مقدمة الكتاب أن " الحب " هو واحد من المحركات الأساسية لممارسة الفضائل. "والحب" خبرة أخلاقية أو عاطفية- ومع ذلك- يمكن أن نعتبره مع جانكليفنش في نفس الوقت فضيلة كسائر الفضائل^(٣٠).

بل إن بعض فلاسفة الأخلاق يذهبون أبعد من ذلك فيعتبرونه فضيلة الفضائل لأنه ينطوي في صميمه على قيمة أخلاقية كبرى ألا وهي " الإرادة الخيرة"^(٣١). وأياً كانت طبيعة الحب فهو لدينا أحد منابع الأخلاق.

وحب الآخرين وعدم الأنانية من الفضائل البوذية. فإذا عرفنا أن الهدف الأساسي للبوذية هو الحصول على السلام النفسي عرفنا كيف تكون أهمية فضيلة الحب والتسامح وعدم الحقد على الآخرين عند البوذي.

فحب الآخرين هو الطريق للسعادة، على عكس حب النفس؛ يقول بوذا: "إذا أحببت نفسك فلن تقابلك السعادة"^(٣٢)، ومن الطبيعي ما دام الأمر كذلك أن نطالبنا البوذية بعدم الحصول على السعادة عن طريق شقاء الآخرين، ومن يفعل ذلك "سوف يقع فيما دبره لغيره من الشقاوة، ثم لن يتخلص مما هو فيه من الكراهية"^(٣٣).

ولم يحض بوذا على الحب فقط، بل أيضاً على عدم معايشة الحاقدين الكسارهيين أي الذين لا يمارسون الحب. يقول بوذا " نحن نعيش في سعادة طالما لا نكره أحداً من الناس، ولا يعيش معنا أحد يكره أحداً من الناس، نحن نعيش أحراراً من عاطفة البغض التي توجد بين الذين يتبادلون الكراهية"^(٣٤)، وفي نص آخر يقول بوذا "الذين يحطمون في داخل أنفسهم الحسد والكراهية، هم الذين

(٣١) زكريا [أ] ٢٩٠

(٣٢) رؤوف ٢٠١

(٣٠) زكريا [ب] ١٢٧

(٣٢) رؤوف ٢٠٣

(٣٤) رؤوف ١٨٥

يقضون الليل والنهار في نعمة الراحة والطمأنينة^(٣٥)، وفي نص ثالث يشيد بوذا بالتسامح وعدم الحقد حتى أنه يستحق أن يسمى براهمانياً "الذي لا يحمل حقداً لأحد بينما هو وسط قوم يحقدون عليه"^(٣٦).

الوفاء بالعهد وعدم التهرب من الواجب:

والوفاء بالعهد من الفضائل عند البوذيين، ولقد أضاف بوذا إلى الوفاء بالعهد إتقان العمل، فهو نوع من الوفاء. يقول بوذا "العمل الذي يؤدي بطريقة فاسدة أو طائشة، والوعد الذي لم يوف به فإنه يكون خارجاً عن الصدق ولا يستحق ثواباً"^(٣٧). لقد وحد بوذا هنا بين فضيلتين هما اتقان العمل والوفاء بالعهد، وجعلهما معياراً للصدق.

وقيام الإنسان بأداء واجبه هو نوع من الوفاء، وعلى الإنسان أن يؤدي بنفسه ما عليه من تكاليف لا أن يتركها لغيره "فليس هناك إنسان يؤدي واجباته من أجل قضاء عمل واجب على إنسان آخر، فما أجمل وما أعظم أن يفهم المرء واجباته وأن يقدم نفسه عبداً لوظيفته"^(٣٨).

القناعة والكرم:

من الطبيعي بالنسبة لعقيدة تتخذ من كبح الجراح عموداً لها، أن تكون القناعة فضيلة هامة بها، حقاً لم يقابلنا لفظ "القناعة" صراحة، ولكن هناك من التراكيب اللغوية العديدة التي تقوم مقامه "فالموت هو الذي يجذب الطامعين الذين يجمعون حطام الدنيا بأية وسيلة، سوف يرسل على هؤلاء الفياضانات التي تغرقهم في غرف نومهم، والموت هو الذي يجذب أولئك الذين يحرصون على

(٣٦) رؤوف ٢٢١

(٣٨) رؤوف ١٧٩

(٣٥) رؤوف ١٩٤

(٣٧) رؤوف ٢٠٤-٢٠٥

جمع مطامع النفس وشهواتهم، وأولئك هم أصحاب الفكر المشوش، إنهم سوف يمرتون قبل أن يقنعوا بما تتعموا به مما جمعوه" (٣٩).

ومن الطبيعي أن الدعوة لفضيلة القناعة، سيتلوها مباشرة دعوة أخرى

للبعد عن الطمع والشراهة. يقول بوذا "نحن نعيش في سعادة إذا تخلصنا من الشراهة والطمع اللذين يعيشان بين الطماعين والشراهين" (٤٠).

"والطمع مرض شديد الخطورة، والميل مع هوى النفس ورغائبها، هو في الحقيقة ألم ومتاعب جمة، وعلى هذا فكل من يفعل هذا البيان فعليه أن يحصل على (نيباننا) لأنها السعادة العليا" (٤١).

غير أن القناعة يجب أن لا تدعونا إلى الكسل، بل لابد من أن يكون الإنسان نشطاً مجتهداً إلى جانب القناعة " فعندما يتحول الإنسان إلى كمول أو طماع، ويحب دائماً النوم في أي مكان، هذا الشخص مثله مثل الخنزير الشراه" (٤٢). إن محاولة تجنب هاتين الرذيلتين في نفس الوقت ليحتاج إلى ضبط كبير للنفس.

إذا كانت القناعة الاكتفاء بالقليل، فإن ذلك سوف يمهد بالضرورة لفضيلة أخرى هي "الكرم"، وذلك أن يتقدم الإنسان الفاضل بخطوة أخرى فيجود بما عنده إلى المحتاج إيثاراً له على الذات، ولكن قد يقف البخل حائلاً دون ذلك، لهذا يحذر بوذا البخيل من أنه سوف يحرم من مصاحبة المملأ الأعلى؛ يقول بوذا "في الحقيقة، الرجل البخيل سوف لا يستطيع أن يصعد إلى عالم الألوهية، وكذلك الشخص الغبي لا يحب أن يقدم تبرعاً أو إحساناً، ولكن الرجل المحسن الحكيم هو الذي يعمل الخير ويحبه، وذلك له عاقبة طيبة في العالم الآخر" (٤٣)، وهو

(٤٠) رؤوف ١٨٥

(٤٢) رؤوف ٢٠٦

(٣٩) رؤوف ١٥٨-١٥٩

(٤١) رؤوف ١٨٦

(٤٣) رؤوف ١٨١

موضع من المواضع التي يشير فيها بوذا إلى العالم الآخر ويتخذة ذريعة للحث على الفضيلة.

الحق والخير والعدل:

إن من يفكر في "الحق والخير" تفكيراً عميقاً يعتبر براهمانياً، أي فاضلاً، ولا تؤتي هذه الفضيلة أبداً لجمال المظهر أو النسب. يقول بوذا "ليس لأن شعره ممشطٌ وليس من أجل نسبه ولا من أجل طبقتة Kasta يكون الإنسان براهمانياً، إنما يكون براهمانياً عندما يجلس وحيداً يفكر في الحق والخير"^(٤٤).

ومن الفضائل التي ترتبط بالحق والخير برباط وثيق: العدل، فالقضاة الذين يحكمون بين الناس لابد أن يكونوا عادلين، أما القضاة الظالمون فسوف تحيق بهم سلسلة من المصائب التي تنتهي بدخولهم النار. يقول بوذا "إن الأحكام الظالمة التي تصدر على الأبرياء غير المخطئين، سوف يلحق قضاتها أثر هذه الأحكام بالعواقب العشرة التالية: إنه سوف يلحق القاضي بها همٌ نفسي ثقيل أو تضييع أمواله، أو يجرح، أو يمرض، أو يفقد وعيه، أو يسقط عليه عذاب من الملك، أو يُتهم، أو يفقد أصحابه أو أقرباءه، أو تنتفد نهائياً جميع ممتلكاته، أو يحرق بيته، وعندما تنتهي هذه البلايا يدخل هذا المغفل نار جهنم"^(٤٥).

التواضع والحلم والزهد والصبر:

في عقيدة مثل البوذية حيث لا يكون الإنسان براهمانياً لشعره المضفر أو لسمو مظهره، وحيث يطرح الإنسان ملذاته ظهرياً، يكون لفضيلة التواضع وعدم الكبرياء قيمة كبيرة، وهم يحثون على هذه الفضيلة بشتى الطرق، ومن أهمها تذكير الإنسان بالموت، فالجسم بعد الشيخوخة "سوف ينتهي" وتهجم عليه

الأمراض، وسوف تضعف كل عناصر المقاومة حتى تتفتت إلى أشلاء متناثرة، وفي الحقيقة أن هذه الحياة سوف تنتهي بالموت . فهذه الجيف مكونة من مجموعة عظام ولحم ودم، ولها عمر مقدر، إذن الشعور بالكبرياء هو شعور زائف، إن عربة الملك الفخمة سوف تفنى وتتحطم، وهكذا هو الجسد سوف يفنيه العمر الطويل، ولكن ثمار الأعمال الطيبة سوف لا يأكلها الزمان، فالذي يقدم خيراً لا بد أن يلقي خيراً^(٤٦). فالتواضع فضيلة بوزية، بل "إن البرهماني الأصيل سوف يسير في طريقه بعيداً عن المضايقات بعدما يطهر نفسه من ١- الكبرياء، ٢- أهواء النفس"^(٤٧).

وقد يرتبط الحلم مع التواضع والزهد يقول بوذا "لتكن رغبة الإنسان في أن لا يغضب، ولتكن رغبته في التخلص من الكبرياء، ولتكن كذلك في قطع علاقته بالدنيا"^(٤٨). ويقرن بوذا ذلك ببعض القيم الأخرى فيقول: "فليحاول الناس أن يسيطروا على الغضب بالصبر، فليحاول الناس التغلب على الشرور بالعمل الفاضل، فليحاول الناس على التغلب على البخل بأسلوب الكرم، فليحاول الناس التصدي للكذب بالتحلي بالصدق"^(٤٩).

وإذا غضب الإنسان فيجب عليه أن يسيطر على ثورة غضبه، يقول بوذا "كما يجب على كل فرد إذا تحدث أن يكون صادقاً وألا يضعف أمام ثورة غضبه إذا ما أريد منه شيء ولو كان صغيراً، وبهذا يكون الفرد قد اتخذ طريقه إلى الأعالى"^(٥٠).

(٤٧) رؤوف ١٨٩

(٤٩) رؤوف ١٨٩

(٤٦) رؤوف ١٧٦

(٤٨) رؤوف ١٨٩

(٥٠) رؤوف ١٨٩

الخير وكراهية الشر:

تحدث بوذا عن الخير والشر كثيراً، فقد كانا محورين هامين من محاور اهتمامه، غير أنه لم يكن في كل مرة يحدد الأعمال الخيرة والأعمال الشريرة، وهذا - كما جاء بالمقدمة - سوف يلقي عبئاً كبيراً على البوذي، إذ عليه وحده أن يضع معايير ما يعتبره خيراً وما يعتبره شراً.

ونرى بوذا ينبه على أن " كل الأعمال غير الصالحة تحمل في عواقبها السوء والأحزان والأسف والأسيف الذي يجعل صاحبه ينوح وينتحب ويبكي ويستغيث، أما الأعمال الطيبة النافعة فإن عواقبها تكون حسنة وطيبة وسعيدة"^(٥١) وبصفة عامة، فإنه "واجب على البشرية أن تجاهد للحصول على الفضائل، إن البشرية مطالبة بأن تعدل فكرها من الاتجاه السيئ إلى الاتجاه الحسن"^(٥٢).

على أن بوذا طلب من الإنسان أن يمارس الخير بقلب صادق ونية خالصة، وليس بطريقة آلية لأن العادة جرت على ذلك، بل لابد أن يفعله بوعي وإدراك "لأن من يفعل الخير وهو عازف عنه وفكره مخدر، سوف تنتهي حالته إلى السوء والشر"^(٥٣).

ومع ذلك فلو ارتكب الإنسان الشر مسوقاً بضعفه البشري. ذلك الضعف الذي يدركه بوذا جيداً، فإن بوذا لا يغلق الباب أمام أمل التوبة، بل إنه يحثه عليها. يقول بوذا "ليعزم ذلك الذي يفعل الشر مرة، ألا يكرر فعله مرة ثانية، فإن عاقبة أفعال الشر شر مثله، وثمار الشر الحسرة والندم والفقير"^(٥٤).

فإن فعلت الخير لا يهملك أن كان ضئيلاً "إذ لا ينبغي للمرء أن يقلل من قيمة أفعال الخير لأن الحوض تملأه كذلك قطرات الماء التي تترى تتساقط عليه،

(٥٢) رؤوف ١٧١

(٥١) رؤوف ١٦٢

(٥٤) رؤوف ١٧١

(٥٣) رؤوف ١٧١

والإنسان الفاضل الكريم هو الذي يجمع الفضائل رويداً رويداً كذلك" (٥٥).
ولا شك أن في ذلك دعوة لأن لا يتقاعس غير القادرين، فهو تشجيع
للجميع على فعل الخير كل على قدر طاقته.

ومن شرور الحياة عند بوذا "الذات" و"الهوى" وكثيراً ما تراه يهاجمهما
حتى في أثناء حثه على فضائل أخرى، فيجب أن لا ترتبط بلذات الحياة، وأن لا
نجعل الهوى يسيطر علينا، بل نجعل الجنة هدفاً "فكم من الناس يولدون من
جديد، وأفعال الشر إلى جهنم، والشخص الصالح يدخل الجنة، أما الذين تخلصوا
من هوى النفس وقيود الحياة، فهم الذين وصلوا إلى نيبانا Nibbana (٥٦).
وواضح هنا تلويح بوذا بالجنة.

ولن يفلت الشرير وصاحب المعصية أبداً "فليست في السماء وليست في
عرض البحر ولا هي في الغار وليست في مكان يمكن أن تختفي فيه كل ذات لم
تستطع أن تتجنب فعل المعاصي" (٥٧).

التفكير والتعقل والحكمة:

تُعلي البوذية من شأن الفكر فتجعله هو المسئول عن كافة أعمالنا سواء
كانت خيراً أم شراً، وهذا يعني أن بوذا من أهل الاختيار وليس من أهل الجبر،
فالإنسان إذن عند بوذا مسئول تماماً عن أفعاله، فلا عجب إذن أن نرى بوذا
كثيراً ما يحذر أتباعه من "الغفلة" و"المغفلين"، "فالذين يعملون الصالحات ولا
يغفلون هم الذين يحصلون على المعرفة الكاملة، وسوف لا تصادفهم غوايات
الشیطان وأخطار وسوسته" (٥٨).

(٥٦) رؤوف ١٧٢

(٥٨) رؤوف ١٦٠

(٥٥) رؤوف ١٧٢

(٥٧) رؤوف ١٧٢

وبما أن "التعقل" هو تفكير خيّر فلا عجب إذن إذا رأينا بوذا يشيد به "فالتعقل هو الطريق إلى الخلود، وعدم التعقل هو طريق الفناء والموت، والذين يتعقلون فهم الذين لا يموتون، أما الذين لا يتعقلون فهم في أقل تقدير الذين ماتوا"^(٥٩). والذين يتعقلون سوف يتصرفون بحكمة بطبيعة الحال والذي يتصرف بحكمة سوف يعرف حقيقة نفسه وسوف يشعر بالسعادة في حركة تفكيره وقدرته على التصرف الميسر للأمور، إنه سوف يكون من عداد النبلاء"^(٦٠)، ولا يغيبن عن البال أن معنى النبالة عند بوذا سوف يختلف بطبيعة الحال عن معناه عند غير البوذيين.

ويرشد بوذا أتباعه عن الطريق الذي يؤدي إلى التصرف بحكمة؛ "الذين يتصرفون بحكمة هم المركزون للتفكير بصورة قوية تجاه الأعمال التي يقومون بها باستمرار، ولهذا فهم يملكون الإرادة القوية والعزم الصحيح للوصول إلى الغاية المنشودة وهم الحاصلون على السعادة الأبدية التي لا تنتهي"^(٦١).

طالما أن التفكير المركز والتصرف بحكمة يؤديان إلى السعادة الأبدية، فلا بد أن يكون التفكير - وهو أداة الحكمة - فضيلة عند البوذيين شريطة أن لا نتوقف عنه، يقول بوذا "إن الذين يفكرون باستمرار هم الذين يعيشون في وعي كامل، فهم دائماً . متيقظون، وأفعالهم دائماً نظيفة، وتصرفاتهم دائماً . مبنية على أساس من التوازن الدقيق والتساهل المحمود، وهم منظمون، وسلوكهم قائم على التعاليم الصحيحة، ولذا فإن شرفهم ونبيلهم دائماً في زيادة مطردة"^(٦٢).

طالما أن التفكير له مثل هذه النتائج، فإننا نتوقع أن تتفاضل النتائج إذا تفاضل التفكير، وكما أن التفكير يقود إلى الخير والحكمة، فقد يقود أيضاً إلى الشر، وهنا تصبح السيطرة على التفكير عملاً صعباً. يقول بوذا إن "أحتواء

(٦٠) رؤوف ١٥٣

(٥٩) رؤوف ١٥٣

(٦٢) رؤوف ١٥٣

(٦١) رؤوف ١٥٣

الفكر الذي يصعب قيادته عمل فاضل، والفكر الذي يروض ويوجّه للخير ينتهي بصاحبه إلى البهجة والسعادة، والرجل الحكيم في تصرفاته قمين به أن يحافظ على أسلوب تفكيره في الأمور الدقيقة وخاصة تلك الأفكار التي تموج حسب الهوى والشهوة، إن الفكر الذي يحافظ عليه يحمل صاحبه إلى مستقبل السعادة^(٦٣). وبطبيعة الحال، فإننا بعد أن نفكر، تتكون لدينا وجهات نظر، ومن الفضائل في البوذية أن تكون لك وجهة نظر في شتى الأمور على أن تكون وجهة النظر هذه واضحة جلية، "ومن بين كل الناس الذين يملكون وجهات نظر، الأفضل فيهم من تكون وجهة نظره واضحة نيرة وهذا هو الطريق لا طريق سواه الذي يوصل إلى النقاء والصفاء في الرأي"^(٦٤).

غير أن الرجل الحكيم له صفات تميزه عن غيره "الشخص لا يكون حكيماً إذا كان كثير الكلام، أما الشخص المتزن الهادئ السعيد المتحرر من الشعور بالبغض وبالخوف فهو الشخص الذي يوصف بالحكيم أو العابد أو المنصف"^(٦٥).

العمل الطيب:

إن سلوك الرجل الطيب لا يمكن أن يخفى، بل سيذيع على الجميع وهو أقوى من رائحة الزهر الجميلة "فرائحة الزهور الجميلة لا تنتشر في الجو عن طريق مخالفة اتجاه الهواء، ولكن صفة الرجل الطيب تنتشر في كل الاتجاهات"^(٦٦). فرائحة الأزهار لا تنتشر إلا في اتجاه الرياح ولا يمكن أن تنتشر ضد اتجاه الرياح، أما صفة الرجل الطيب فتنتشر في كل الاتجاهات سواء مع اتجاه الريح أو ضد اتجاه الريح، كما يجب أن لا نغتر بالروائح العطرية مهما كان

(٦٤) رؤوف ١٩٨

(٦٦) رؤوف ١٥٩

(٦٣) رؤوف ١٥٦

(٦٥) رؤوف ١٩٥

زكاؤها، فهناك ما هو أكثر منها زكاءً وإن لم يكن عطراً. يقول بوذا "ليست بذات قيمة كبيرة تلك الروائح العطرية التي تتبعث من أعواد العطور والبخور، إنما ذات القيمة العليا الممتدة إلى يوم القيامة هي روائح الطيبات من الأعمال" (٦٧).

مصاحبة الصالحين:

بعد أن حصل البوذي على الطهارة والمرتبة العالية، أصبح معداً لمرافقة الصالحين أمثاله، بل يجب أن يختارهم أكثر منه فضلاً؛ فمن النصائح التي تقرب إلى حد الفضيلة والعقيدة في البوذية، أن يكون للإنسان إمام يأتّم به، أو حتى رفيق يرافقه في الحياة، بيد أن هذا الرفيق أو الإمام لا بد أن يكون هو الآخر فاضلاً ذكياً. يقول بوذا "وعلى افتراض أن الرجل الجوّال الباحث عن هدف لم يقابل رجلاً فاضلاً أحسن منه أو رجلاً يساويه، وعليه أن يستمر في الطريق وحده ولا يصاحب غيباً أو مغفلاً" (٦٨). وهو من المواضيع التي يهاجم فيها بوذا الغباء والغفلة فإذا وجد الإنسان مثل ذلك الرجل فعليه أن يتخلى عن الصفات المشينة وذلك من أجل أن يأتّم بذلك الرجل الحكيم العاقل، عليه أن يتخلى عن أموال مثل أموال قارون (؟) من أجل أن يتبع طريقة الرجل الصالح الحكيم المنصف، ومهما كان أمر هذا الرجل الصالح الحكيم، أكان موجّهاً أم مرشداً، ناهياً أو آمراً، فإنه سوف يكون محبوباً لدى الإنسان الفاضل الطيب، ولو أنه سوف يكون مكروهاً من كل إنسان وحشي أثيم، واحذر أن تصادق رجلاً فاحشاً مجرمًا، أو رجلاً معيباً فاسقًا، وعليك أن تصادق الإنسان الذي يفعل الخيرات، وأن تصاحب الإنسان الطاهر النقي" (٦٩).

(٦٨) رؤوف ١٦١

(٦٧) رؤوف ١٥٩-١٦٠

(٦٩) رؤوف ١٦٤

فضيلة العفة:

العفة تعد من الفضائل السامية لدى الصينيين ولا بد أن هذه الفضيلة كانت بتأثير البوذية التي دعت إلى وأد الشهوات، فلقد كان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص مع بناتهم، وقد نجحوا في غرس هذه الفضيلة في البنات نجاحاً منقطع النظير، يدل عليه أن البنات الصينيات - كما يقول ديورانت - كُنَّ في بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة^(٧٠).

حفظ حياة الآخرين والأمانة والصدق والشفقة والمحبة:

لما طلب تلاميذ بوذا من أستاذهم أن يحدد معنى الحياة السليمة في رأيه، ولكي يزيد الأمر وضوحاً، فقد صاغ لهم قواعد خلقية خمساً يهتدون بها، وهي بمثابة الوصايا ولكنها بسيطة مختصرة، وأما هذه الوصايا الخمس فهي:

١. لا يقتلن أحد كائناً حياً.
٢. لا يأخذن أحد ما لم يعطه.
٣. لا يقولن أحد كذباً.
٤. لا يشربن أحد مُسكرأ.
٥. لا يقيمن أحدٌ على دنس^(٧١).

وكانت هذه الوصايا في نظر بوذا كافية في حد ذاتها لطهارة الإنسان، فقد كانت فكرته عن الدين - كما يقول ديورانت - خلقية خالصة، فكان كل ما يعنيه هو سلوك الناس، وأما الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة واللاهوت، فكلها عنده لا تستحق النظر، وإن كان قد اعتمد أحياناً على مفاهيم غيبية كالجنة والنار والملا الأعلى كما رأينا سابقاً. وحدث ذات يوم أن همَّ

(٧١) ديورانت ٧٧/٣

(٧٠) ديورانت ٢٦٧/٤

برهمي بتطهير نفسه من خطاياها باستحمامه في جايا [مدينة]، فقال له بوذا استحم هنا نعم هاهنا ولا حاجة بك للسفر إلى جايا. كن رحيماً بالكائنات جميعاً، فإذا أنت لم تنطق كذباً، وإذا أنت لم تقتل روحاً، وإذا أنت لم تأخذ ما لم يُعط لك، وليثبت آمناً في حدود إنكارك لذاتك، فماذا تجني من الذهاب إلى جايا؟^(٧٢).

وبعد أن قدم بوذا وصاياها الخمس، نراه يضيف في مواضع أخرى عناصر يتسلف بها - كما يقول ديورانت - تعاليم المسيح عليه السلام، قبل أن يوجد، على نحو يدعو إلى العجب، وتشتمل هذه الوصايا على الحلم والشفقة والحب. يقول بوذا "على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة، وأن يزيل الشر بالخير، إن النصر يولد المقت، لأن المهزوم في شقاء، إن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها، إنما تزول الكراهية بالحب"^(٧٣).

الشورى:

إن تشاور المجتمع لحل مشكلاته فضيلة، إذ أنها تؤدي إلى الوصول إلى أفضل الآراء لما فيه خير الجماعة بأقصر السبل، بل لن نغالي إذا قلنا إن التشاور فضيلة أيضاً على المستوى الفردي. "ويروى عن بوذا أنه قال في سؤال لمن كان له بمثابة القديس يوحنا: "هل سمعت يا أنندا أن الفاجيين [آريون من المنطقة القزوينية هاجروا إلى شمال الهند قبل عصر بوذا بكثير] يجتمعون عادة ليتشاوروا في الأمر قبل الحسم فيه، وأنهم يرتادون الاجتماعات العامة، التي تعقدها قبائلهم؟ فما دام الفاجيون يا أنندا يجتمعون هكذا عادة، ويرتادون الاجتماعات العامة التي تعقدها قبائلهم، فتوقع منهم ألا يصيبهم انحلال، بل يصيبهم النجاح"^(٧٤).

(٧٢) ديورانت ٧٧/٣

(٧٣) ديورانت ٧٨/٣

(٧٤) ديورانت ٢٢-٢١/٣

ونستطيع أن نستخلص من هذا تضميناً أن بوذا يدعو أصحابه إلى اتباع فضيلة الشورى حتى لا يتطرق الانحلال إلى مجتمعهم.

المساواة بين البشر:

كان بوذا- على عكس العقيدة البراهمية- ينكر تقسيم المجتمع إلى طبقات عليا وأخرى أقل منها إلى أن نصل إلى أدنى الطبقات أو المنبوذين، فكان يقول لتلاميذه في وضوح وجلاء " انتشروا في الأرض كلها وانثروا هذه العقيدة، تملوا للناس إن الفقراء والمساكين والأغنياء والأعين كلهم سواء، وكل الطبقات في رأي هذه العقيدة الدينية تتحد لتفعل فعل الأنهار، تصب كلها في البحر" (٧٥).

الرحمة والتقوى والخير والصدق:

لقد بلغت فضيلة الرحمة عند بوذا حداً جعله يخالف العادات المتبعة في معظم الشرائع من حيث ذبح الحيوان وتقديمه قرباناً للآلهة؛ "فقد كان يرفض الأخذ بفكرة التضحية في سبيل الآلهة، ويفزع أشد الفزع لرؤية الحيوان يذبحونه ليقيموا أمثال هذه الطقوس، ويرفض كل اعتقاد وكل عبادة كائنات أعلى في هذه الطبيعة" (٧٦). فلا عجب أن نرى عند البوذيين معاملة خاصة للحيوان.

إن فضيلة التقوى تعتبر من أمهات الفضائل التي تؤدي إلى فضائل أخرى، وفي هذا الجو المفعم بالفضيلة التي أشاعها بوذا وحث عليها، فإنك لو خيرت الملك أشوكا- وهو أحد ملوك الصين- بين التقوى والخير، لاختار الاثنين معاً. ففي أحد مرسوماته- أمر تابعيه قائلاً: "إن قانون التقوى شيء جميل. لكن مما يتكون قانون التقوى؟ يتكون من هذه الأشياء: قليل من عدم التقوى [أي الكثير منها]، وكثير من الأفعال الخيرة والرحمة والإحسان والصدق والصفاء، ولكي

يضرب أشوكا المثال لما يريد، أمر موظفيه في كل مكان أن ينظروا إلى الناس نظرتهم إلى أبنائهم، وأن يعاملوهم بالصبر والحسنى، فلا يعذبونهم ولا يسجنونهم بغير مبرر معقول، وأمر موظفيه أن يقرؤوا هذه الإرشادات قراءة دورية على الشعب" (٧٧).

وكان بناءً على دعوة هذا الملك الصالح للتقوى، أن زاد التراحم بين الناس والناس، وبين الناس والحيوانات "فقد امتنع الناس اليوم بفضل قانون التقوى الذي سنه صاحب الجلالة المقدسة الرحيمة الملك عن ذبح الكائنات الحية ليقدموها في قرابينهم، أكثر من امتناعهم عن ذلك من قبل، امتنعوا عن قتل الأحياء، وسلكوا إزاء أقربائهم سلوكاً فاضلاً وكذلك إزاء البراهمة [وهم بمثابة أعدائهم]، وأصبحوا يستمعون لما يأمرهم به أبائهم وأمهاتهم ومن هم أكبر منهم سنًا" (٧٨).

ولقد بلغت التقوى بهذا الملك الصالح، " أن جعل نفسه رئيساً للطائفة البوذية وأجزل لها العطايا، وشيد لها ثمانية وأربعين ألفاً من الأديرة لرجالها وبنى باسمها في أرجاء مملكته كلها مستشفيات للإنسان والحيوان، وأرسل مبشرين بالعقيدة البوذية إلى أجزاء الهند جميعاً، وإلى جزيرة سيلان بل أرسل هاتيك البعث إلى سوريا ومصر واليونان حيث يحتمل أن تكون قد هيأت الطريق هناك للأخلاق المسيحية" (٧٩).

ثانياً: الفضائل والقيم لدى البوذيين اليابانيين

مقدمة:

لم تَدِنِ اليابان بالبوذية في بداية تاريخها المعروف، فقد كانت تدين بدين آخر غير البوذية، دين روجي طوطمي سلفي، فلقد كانت العاطفة عند اليابانيين الأولين تجد ما يشبعها في العقيدة بأن لكل كائن روحاً في الطوطمية، وفي عبادة الأسلاف، وعبادة العلاقة الجنسية، فعندهم أن الأرواح سارية في كل شيء: في كواكب السماء ونجومها وفي نباتات الحقل وحشراتة، في الأشجار والحيوان والإنسان. ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم حول الدار وساكنيها، ويرقص مع ضوء المصباح ووجهه إذا رقص، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة . . . وكانوا يخافون الموتى ويعبدونهم^(٨٠) وبصفة عامة، كان اليابانيون يتصفون في هذه الفترة بفضائل عديدة لعل أهمها الأمانة إذ تروي المدونات اليابانية القديمة عن أهل اليابان "أنه لا يقع بينهم سرقة وقلما يشكو أحدهم إلى القضاء"^(٨١) فهم يشبهون في ذلك جيرانهم من الهند والصينيين الذي يسوون خلافاتهم دون اللجوء إلى القضاء.

وفي عام ٥٢٢ ق.م جاءت البوذية، وكانت قد دخلت الصين قبل ذلك بخمسائة عام، وقد دخلت اليابان خلال قارة آسيا، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً سريعاً، وقد تأمر عاملان فكتب لهما النصر وهما: الحاجات الدينية عند الشعب، والحاجات السياسية عند الدولة، لأنه لم تكن بوذية بوذا هي التي جاءت إلى

(٨١) ديورانت ١٢/٥

(٨٠) ديورانت ١٢-١٣/٥

اليابان بما عُرِفَتْ به تلك البوذية من لا أدريّة وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انمحاء الفرد في الكل، بل جاءت بوذية ياماها بألهتها الدينية الوديعة، واعترافها ببوذيين منتظرين يخلصون البشر، وبخلود الروح الإنسانية^(٨٢) وفي عصر متأخر ، دخلت الكونفوشيوسية اليابان، ولكنها كانت محدودة الأثر، ولم يكن لها ما للبوذية من سلطان - والآن نتحدث عن الفضائل والقيم لدى البوذيين اليابانيين.

الزهد والرحمة والحرية:

عرفت اليابان كثيراً من الفضائل التي بدت لنا في تاريخها المكتوب، وكان من ضمن هذه الفضائل فضيلة الزهد والرحمة التي يتصف بها طغاتها، والحرية التي وصلت في عصر الإمبراطور بوشيموني، إلى حد أن أطلق العنان للشعب لكي يعبر عن شكواه، فلقد جند بوشيموني نفسه، للغاية التي ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين، وهي محو الفقر. وكان ذلك في نفس الوقت الذي كانت ميزانية حكومته تعاني فيه عجزاً جاوز المألوف، فاستقرض من طبقة التجار قرضاً طائلاً، وهاجم إسراف الأغنياء، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقي، الذي ذهب إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللاتي كن أجمل السيدات واكتفى في ثيابه بلبس القطن، وفي نوسه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون، وفي طعامه بأبسط ألوان الطعام ووضع صندوقاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفي الحكومة على أي نحو شاءوا، فلما قدّم رجل يدعى ياماشيتا عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها، أمر

بوشيموني بالاتهام فقري على مسمع من الملأ وكافأ كاتبها على صراحتة بأجزل العطاء^(٨٣).

النزاهة والشهامة والطاعة والوفاء :

كان السيفون اليابانيون، الذين يطلق عليهم الساموراي (الفرسان) في عهد الإقطاع، لهم أخلاقيات يتحلون بها للدفاع عن سادتهم، ومن هذه الأخلاق التي تهمننا في هذا المقام "أنهم كانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية، ويأبون أن يُقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم، وكانوا لا يترددون في المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة، وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خسنة مقتررة، فلا يأكلون في اليوم إلا وجبة واحدة^(٨٤).

وكان هؤلاء السيفون يكونون الولاء لسادتهم الإقطاعيين لدرجة تزيد على حبهم لأبائهم أو أبنائهم فكان من مألوف الأمر عند الساموراي، أن ينتحر الرجل منهم إذا مات سيده لكي يخدمه ويحميه في الحياة الأخرى^(٨٥). فنحن نرى هنا جملة من الفضائل منها النزاهة والترفع عن المادية، والوفاء بالوعد والشهامة. ومن الطبيعي والأمر كذلك، أن نجد أن طاعة الأبناء للأباء هي الفضيلة العليا الأساسية عند اليابانيين بل إن علاقة الياباني بالإمبراطور كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده، ولبثت هذه الفضيلة الرئيسية في التشريع الخلقي كله تقريباً عند عامة الناس في اليابان حتى جاء الغرب بأفكاره الثورية- كما يقول ديورانت- التي تنادي بحرية الأفراد^(٨٦) (*) .

(٨٥) ديورانت ٣٩/٥

(٨٤) ديورانت ٣٩/٥

(٨٦) ديورانت ٦٥/٥

(*) لاشك أن هذه الفضيلة مازالت موجودة حتى يومنا هذا رغم انتشار الحضارة الغربية في اليابان، بل إنها لتعلل لنا كيف يفنى العامل الياباني في خدمة المؤسسة التي يعمل بها، حتى أنهم قد اعترضوا مرة عندما قررت الحكومة زيادة أيام العطلات، ولعل ذلك يفسر سر تقدم =

العفة والطهارة:

كانت العفة والطهارة من الفضائل التي يوليها اليابانيات اهتمامهن حتى لقد قتلت بعض النساء الطبقة العالية أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر، لكن كجوة واحدة - كما يقول ديورانت - لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاءً كاملاً^(٨٧).

الرحمة:

لقد أضافت البوذية اليابانية في عقيدتهم بعض المشاعر الرحيمة التي يفيض بها الإنسان خلال عودته للحياة مرات ومرات عن طريق التناسخ. ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية اليابانية تدفع كثيراً من البوذيين لأن يعتقدوا أنهم على استعداد أن يخلعوا على بني الإنسان جزءاً من الرحمة التي جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة، وفي كل مرة يقضون حياتهم في فضيلة، وكانت هناك عقيدة في آلهة رحيمة مثل مولاتنا كوانون ومثل جيزو الذي يشبه المسيح وفي أمثال هؤلاء تجد الرحمة الإلهية بأدق معانيها^(٨٨).

وما نحن قد انتهيينا من عرض بعض الفضائل والقيم عند البوذيين ورأينا كيف أن كبح الجراح ومحاسبة الذات وواد الشهوات كانت من الفضائل عند بوذا، ومن فضائلهم أيضاً احترام الجسد وحفظه من تأثير الشهوات وذلك بالطهر والعفة، ومن الطهر والعفة أيضاً أن لا نمارس الحرام بجوارحنا،

=اليابان وازدهارها في عصرها الراهق، ومن تحولها من دولة محطمة ومنهزمة عسكرياً إلى دولة منتصرة اقتصادياً وحضارياً.

أو حواسنا، وأن نمارس الأمانة، ومن التعفف أيضاً عدم البحث عن عيوب الآخرين، أما فضيلة الطهارة والنقاء فلها عند البوذيين مرتبة سامية، فهي أفضل من السيادة على الدنيا كلها، بل أفضل من دخول الجنة.

أما الصدق فلقد وصل عند بوذا إلى درجة أنه جعله آية للبرهمني. ومن الصدق أيضاً عدم النفاق وأن يطابق سلوكنا أفعالنا، و"الصدق" هو الطريق لتهديب النفس، ولقد حث بوذا إلى جانب كل ذلك على الرحمة والتعاطف، بل ورقة الحاشية حتى لا تسيء إلى الآخر... وحب الآخر هو الطريق المؤدي إلى السعادة "أما إذا أحببت نفسك فلن تقابلك السعادة"، ولم يحض بوذا على الحب فقط، بل أيضاً على عدم معايشرة الحاقدين الكارهين.

"والوفاء بالعهد" من الفضائل عند البوذيين، ولقد أضاف بوذا إلى الوفاء إتقان العمل، بل إن قيام الإنسان بأداء واجبه هو نوع من الوفاء، فالملاحظ أن الفضائل عند بوذا متداخلة يؤدي كل منها إلى الآخر.

ومن الفضائل عند بوذا القناعة وعدم الطمع، غير أن القناعة يجب ألا تدعونا إلى الكسل، إنما تدعونا إلى الكرم، فالرجل البخيل لن يستطيع الصعود إلى الملأ الأعلى

ومن الفضائل التي حث بوذا عليها "الحق والخير"، فمن يفكر في الحق والخير تفكيراً عميقاً يعتبر نفسه برهمانياً، ومن الفضائل التي ترتبط بالحق والخير برباط وثيق: العدل، فالقضاة الذين يحكمون بين الناس لابد أن يحكموا بالعدل، أما الذين يظلمون الأبرياء فسوف تحيق بهم المصائب.

وفي عقيدة مثل العقيدة البوذية، لابد أن يكون للتواضع وعدم الكبرياء قيمة كبيرة، فالشعور بالكبرياء شعور زائف.

ومن الفضائل التي تمثل محوراً في عقيدة بوذا السلوكية، حثه على ممارسة الخير وكراهية الشر، وأما إذا ارتكب الإنسان الشر، فباب التوبة مفتوح له.

ومن الفضائل التي تلفت النظر عند بوذا "التفكير والتعقل والحكمة"، وكل ذلك سوف يؤدي بالإنسان إلى السعادة، بل إنه يساعدنا على أن تكون لنا وجهات نظر، وأن يكون للإنسان وجهة نظر، هو في حد ذاته فضيلة عند بوذا على أن تكون وجهة النظر واضحة جلية.

ومن الفضائل النادرة التي لم تتكرر كثيراً في الأديان الإنسانية "الشورى" فلقد اعتبرها بوذا فضيلة اجتماعية هامة، كما اهتم بوذا بفضيلة أخرى يعتبرها الأخلاقيون قاعدة أساسية في الأخلاق، وهي المساواة بين البشر، ولقد حث بوذا أتباعه صراحة أن يبشروا بين الناس بهذه الفضيلة.

ومن الفضائل النادرة أيضاً التي رأيناها، وإن كانت منتشرة في الهندوكية والزرادشتية، رحمة بوذا بالكائنات الحية غير الإنسان، فقد رأينا أنه كان يفرع من فكرة ذبح الحيوانات قرباناً للإله، بل إنه حرم قتل أي كائن حي بإطلاق. ومع كل هذا رأينا أن بوذا لم ينس القيم التي وردت في معظم الشرائع، مثل الأمر بعدم الكذب، وأن لا يأخذ أحد شيئاً لم يعطه، وعدم شرب الخمر، وأخيراً لا يقيمن أحد على دنس.

هذه هي بعض الفضائل والقيم التي قابلتنا عند دراستنا للبوذية في الصين، ولقد رأينا أن الفضائل والقيم للبوذية في اليابان لا تختلف كثيراً عنها في الصين إلا في بعض الخصائص التي تلفت النظر، فقد كان طغاتها يتصفون بالزهد والرحمة، وبيروز النزاهة والشهامة و الطاعة كفضائل عند طائفة الساموراي أو السيفيين، وطاعة الأبناء لأبائهم، وشدة ولاء الشعب للإمبراطور، وتقدير الناس

لكسبار السن بصفة عامة، ولعل هذه الصفة انحدرت إليهم من عقيدتهم القديمة في عبادة الأسلاف، كل ذلك بالإضافة إلى الفضائل الموجودة عند البوذية الصينية. وأياً كان الأمر، فكل هذه الفضائل والقيم التي وجدناها في الديانة البوذية في الصين واليابان، كل ذلك جاء بعيداً عن الوحي آلاف الأميال، وإن اتفقت مع الفضائل والقيم التي جاء بها الوحي على نحو ما نعرف، وهو دليل آخر على أن الإنسان قد حمل المسؤولية الخلقية على عاتقه.

والآن ننتقل إلى فضائل الكنفشيوسيين وقيمهم •

الفصل السابع

الفضائل والقيم لدى الكونفوشيوسيين

مقدمة:

ولد كونج-فو-دزه، أوكونج المعلم كما كان تلاميذه يسمونه عام ٥٥١ ق.م في مدينة تشو-ني التي تقع الآن فيما يسمي ولاية شان تونج^(١). ولم يكن كونفوشيوس يختلف كثيراً عن سالفه بوذا من حيث اهتمامه بالسلوك والحياة الدنيوية، دون أدنى اهتمام بالحياة بعد الموت، بيد أن كونفوشيوس لم يدع إلى الرهبانية كما دعى بوذا، وإن كان قد دعا إلى الزهد مثله، أما الخلاف الآخر بين كونفوشيوس وبوذا - على ما نرى - هو أن كونفوشيوس كان يعتنق الاشتراكية، بل نحن نظنه الواضع الأول للأسس الاشتراكية، ولقد داعبت خياله فكرة العالم الواحد "إذا ساد المبدأ الأعظم (مبدأ التماثل الأعظم)، أصبح العالم كله جمهورية واحدة، واختار الناس لحكمهم ذوي المواهب والفضائل والكفايات"^(٢).

وفيما عدا هذين الخلافين، فإن كونفوشيوس يعتنق كثيراً من فضائل البوذية وقيمها على النحو الذي سوف نراه، بحيث أننا نستطيع أن نقول أن كونفوشيوس كان حكيماً بوذياً.

(٢) ديورانت ٦٣/٤

(١) ديورانت ٤٠/٤

أولاً: الكونفوشيوسية في الصين

الوضوح والأمانة في الرأي:

اشترك كونفوشيوس مع بوذا في الاهتمام بفضيلتي "الوضوح والأمانة في الرأي"، فلقد كان أول الدروس التي يلقيها المعلم بحث تلاميذه فيها على الاهتمام بهاتين الفضيلتين حيث يقول "كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوماً . فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه، وإذا لم تعرفه فأقر بأنك لا تعرفه وذلك في حد ذاته معرفة"^(٣)، وهذا يذكرنا بقاعدة فقهية إسلامية تقول "من قال لا أعلم، فقد أفتى".

الحكمة وأداء الواجب :

لا عجب أن تكون الحكمة فضيلة هامة لدى مذهب كمذهب كونفوشيوس يهتم بالسلوك، ولقد سار كونفوشيوس، في نفس الدرب الذي سار فيه بوذا والهندوس من قبل، وهو طريق الحكمة، فلقد سأله أحد تابعيه أن يدلّه عليها فقال له كونفوشيوس "إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس، وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة"^(٤)!

وواضح جداً أن كونفوشيوس هنا ما زال يسير على درب البوذية والهندوسية في إجمال الفضيلة فهي "الواجب نحو الناس" وعليك أنت أن تحدد هذا الواجب وتفصّله. أما عن الحكمة في البعد عن الكائنات الروحية، فلقد تابع كونفوشيوس هنا البوذية والجانتية في البعد عن الغيبيات حتى لا ينشغل الإنسان

(٤) ديورانت ٥٣/٤

(٣) ديورانت ٥٢/٤

بشيء سوى السلوك مع احترام هذه الغيبيات، فالمسئولية الخلقية عندهم معلقة أولاً وأخيراً على رقبة الإنسان، وعليه شخصياً أن يعثر على فضائله وقيمه بنفسه لا أن يلتمسها من الخارج.

المعرفة هي المدخل للفضيلة:

يبدأ كونفوشيوس منهجه لإصلاح الأخلاق التي سادتها الفوضى بأن يتجه للحكام ليتبع طريقهم في نشر الفضائل، ذلك أن نشر الفضائل لا يمكن أن يبدأ إلا بالبحث عن حقائق الأشياء، أي أن المعرفة هي المدخل للفضيلة كما فعل اليونانيون بعد ذلك حين قالوا إن المعرفة خير والرذيلة جهل. يقول كونفوشيوس "إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدؤوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم، بدؤوا بتنظيم أسرهم، ولما أرادوا تنظيم أسرهم، بدؤوا بتهديب نفوسهم، ولما أرادوا أن يهدبوا نفوسهم، بدؤوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولاً على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، بدؤوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء.

فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً، ولما كفل علمهم خلصت أفكارهم فطهرت قلوبهم، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم، ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم، ولما صلح حكم ولاياتهم أصبحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة"^(٥).

فهدف كونفوشيوس إذن هو تحقيق أرقى الفضائل، والطريق إلى ذلك لا يكون إلا بممارسة بعض الفضائل الأخرى مثل تنظيم المدينة، وتنظيم الأسرة، وتهذيب النفس وتطهير القلوب والإخلاص في التفكير والبحث عن حقائق الأشياء

الشجاعة والذكاء وحب الخير والصدق والثقافة وسعة الفكر:

إن الرجل الفاضل في نظر كونفوشيوس لابد أن يتحلى بالثقافة فهو أولاً "يجب أن يتقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام"^(٦). أما الإنسان الكامل في رأيه فيحوز على فضائل ثلاث كان سقراط ومنتشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال في كل واحدة منها بمفردها كما يقول ديورانت، تلك هي الذكاء والشجاعة وحب الخير، وهو يخشى أن لا يصل إلى الحقيقة، ولكنه لا يخشى أن يصيبه الفقر، واسع الفكر غير متشيع إلى فئة، وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح^(٧). لقد أصبحت الثقافة فضيلة ربما لأول مرة في التاريخ. وهنا يجب أن نشير إلى فضيلة "سعة الفكر وعدم التشيع إلى فئة" فإن ذلك سوف يؤدي بلا شك إلى أن يسود السلام والتواد بين الناس.

الطهارة

ومن ضمن الفضائل التي يهدف كونفوشيوس إليها، طهارة القلب والعقل، ولقد سلك إلى ذلك طريقاً فيزيقياً مضموناً سلكه اليونانيون فيما بعد؛ فإذا أتقن الإنسان الموسيقى وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها، تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً سليماً رقيقاً، عامراً بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة. فخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات أن توجه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلاد، والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب أن لا يهملها الإنسان، فالخير شديد الصلة بالموسيقى، والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام"^(٨).

(٧) ديورانت ٥٦/٤-٥٧

(٦) ديورانت ٥٦/٤

(٨) ديورانت ٦٢/٤

الوقار والعطف والرحمة فضائل الحكام:

ذلك أن كونفوشيوس لم يهتم فقط بأخلاق العامة من الناس، بل اهتم أيضاً بأخلاق الحكام، وما ينبغي عليهم أن يتحلوا به من فضائل. فلقد سأل كي كانج - أحد تلاميذ كونفوشيوس - أستاذه يوماً ما الذي يجعل الناس يحبون حاكمهم وأن يخلصوا له وأن يلتزموا بالفضيلة؟ فأجاب المعلم " فليرأسهم في وقار، يحترموه، وليكن عطوفاً عليهم رحيماً بهم، يخلصوا له، وليقدم الصالحين ويعلم العاجزين يحرصوا على أن يكونوا فضلاء"^(٩).

ومن رحمة الحكام بالمحكومين، يطلب كونفوشيوس منهم، تخفيف العقاب لمن يستحق العقاب^(١٠). فالوقار والعطف والرحمة والعدالة في تقديم من يستحق التقديم، كلها فضائل ينبغي على الحاكم الصالح أن يتحلى بها.

التفكير والقناعة والتواضع والعطف والوسطية :

رأينا فيما سبق أن " التفكير " و " المعرفة " هما من الفضائل عند كونفوشيوس، وهو ما يزال يلح عليهما في تأديبه لتلاميذه؛ فمن أقواله " ما أشقى الرجل الذي يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم، دون أن يجهد عقله في شيء، لا يتواضع في شبابه التواضع الخليق بالأحداث، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره، ثم يعيش إلى أرذل العمر، إن هذا الإنسان وباء"^(١١).

وتمثل القناعة ركناً هاماً في الأخلاق، وقلما تجد داعية للأخلاق لا يهتم بالقناعة اهتماماً خاصاً؛ يقول كونفوشيوس: إن الذي يبحث عنه الرجل الأعلى هو ما في نفسه، أما الرجل المنحط فيبحث عما في غيره، والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته، ولا يحزنه ألا يعرفه الناس، ولكنه مع ذلك يكره أن يفكر في إلا

(١٠) ديورانت ٦٢/٤

(٩) ديورانت ٦١/٤

(١١) ديورانت ٤٣/٤

يذكر اسمه بعد موته، وهو متواضع في حديثه، ولكنه متفوق في أعماله.. وهو معتدل في قوله وفعله. والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط^(١٢). فإلى جانب أعمال الفكر والقناعة والتواضع، يضيف كونفوشيوس فضيلة أخرى هي الترام الطريق الوسط. ولقد ظهرت هذه الفضيلة بعد ذلك عند أرسطو.

أما قاعدته الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى فهي العطف الفياض على الناس جميعاً^(١٣) إنه الحب، تلك العاطفة التي اعتبرها كثير من الأخلاقيين قمة القيم^(١٤)، "والرجل الأعلى لا يغضبه أن يسمو غيره من الناس، فإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم، وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقصى حقيقة أمره"^(١٥).

وهو متسامح لا يبالي أن يفترى عليه الناس، أو يسلقوه بألسنة حداد، ولا يحقر من هم أقل منه^(١٦).

الإخلاص والعمل الجاد والصدق :

اهتم كونفوشيوس بالحكم كما سبق أن رأينا، وهو ما زال يعالج هذه القضية لأهميتها، ففي هذه الفقرة يرى كونفوشيوس أن المبدأ الأول الذي يقوم عليه الحكم، هو نفسه المبدأ الأول الذي تقوم عليه الأخلاق، ألا وهو "الإخلاص"، ولهذا كانت أداة الحكم في نظره - كما يقول ديورانت - هي القدوة الصالحة، ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون هو المثل الأعلى في السلوك الحسن حتى يحذو الناس حذوه، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه^(١٧).

ولكن "الإخلاص" حتى ولو كان كاملاً، لا يميز الرجل الأعلى، ولكن

(١٣) ديورانت ٥٨/٤

(١٥) ديورانت ٥٨/٤

(١٧) ديورانت ٦١/٤

(١٢) ديورانت ٥٧/٤

(١٤) زكريا [ب] ٣٢٠

(١٦) ديورانت ٥٩/٤

العمل الجاد والصدق يجب أن يضافا إليه "إنه- أي الرجل الأعلى- يعمل قبل أن يتكلم، ثم يتكلم وفق ما عمل"^(١٨).

فالإخلاص والعمل الجاد والصدق، كلها فضائل لا بد أن تسود المجتمع خاصة الرجل الأعلى.

حب لأخيك ما تحب لنفسك:

فكونفوشيوس يتمسك هنا بالقاعدة الذهبية في الأخلاق، التي نص عليها هنا صراحة قبل هيل بأربعة قرون، وقبل المسيح بخمسة. فقد سأل جونج جنج المعلم عن الفضيلة الكاملة، فكان جوابه "الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك"^(١٩). فالرجل الأعلى يتحرك حيث تكون حركاته في جميع الأجيال طريقاً عاماً، ويكون سلوكه بحيث تتخذه جميع الأجيال قانوناً عاماً، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ، وهذا يعني أنه سبق قانون الأخلاق الإلزامي لكانط في كتاب ميتا فيزيقا الأخلاق وهو "لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قانوناً عاماً شاملاً"^(٢٠).

ثم يضع كونفوشيوس بعد ذلك قاعدة أخلاقية عامة أخرى، والتي هي في الواقع العامود الفقري للاجتماع البشري، ذلك أن تزه جونج سأله مرة: أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته؟ فأجابه المعلم: أليست هذه الكلمة هي المبادلة؟^(٢١)، فمن المعروف أن القوة المحركة للاجتماع البشري هي "التبادل"، والتبادل قانون أخلاقي أيضاً، فمن أحسن إليك وقدم إليك الود والإخلاص. الخ، لا بد أن تبادل نفسك هذه الخيرات على الأقل.

(١٩) ديورانت ٥٨/٤

(٢١) ديورانت ٥٨/٤

(١٨) ديورانت ٥٧/٤

(٢٠) ديورانت ٥٨/٤ وكانط ٧٩ ، ١١٠

إن لم يكن أكثر منها.

الرحمة بالمسنين والأرامل واليتامى

من حسن حظ المسنين - وأنا منهم - أن الذين يضعون قواعد الأخلاق يكونون من المسنين غالباً، ولذلك فإنهم يتعاطفون معهم، على الأقل بحكم التجربة ولقد قلنا فيما سبق، أن كونفوشيوس كان صاحب دين سلوكي عالمي، وكان يظن أنه يمكن بتطبيق الاشتراكية والمبادئ الفاضلة أن يتوحد العالم أجمع في دولة واحدة. وكان من ضمن الفضائل التي دعا إليها داخل جمهوريته القراحم بكبار السن؛ فالأبناء ليسوا بالضرورة هم الذين ولدونا، فأبي كبير للسن هو أب لنا، كما أن أي طفل هو بالتالي ابن لنا. ولذا ينبغي على هؤلاء المواطنين أن يهيئوا سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم، ويهيئوا العمل للكحول، ووسائل النماء للصغار ويكفلوا الحياة للأرامل من الرجال والنساء واليتامى وعديمي الأبناء، ومن أقددهم المرض عن العمل، هنالك يكون لكل إنسان حقه، وهناك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها^(٢٢).

القناعة للدولة بأكملها والعدالة في توزيع الثروة:

قلنا إن كونفوشيوس كان يدعو إلى دولة عالمية، وإلى أن تتحقق هذه الجمهورية الفاضلة، فإنه يدعو دولته - أي الصين - إلى القناعة "وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك، ويعملوا على توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن تركيز الثروة هو السبيل إلى تسقيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته"^(٢٣).

وبالطبع سوف تتقارب الطبقات في دخولها ويقل الحقد بين الطبقات الدنيا والطبقات الأعلى ويسود السلام الجميع. وهنا نرى الاشتراكية تتجلى بأوضح صورها.

هذا ولقد ظلت فضائل كونفوشيوس مثلاً أعلى في الصين إلى عصر قريب - وربما حتى الآن - فحين مات (أبياسو) في نفس العام الذي مات فيه شكسبير خلف هذا الحاكم العسكري القوي سلطانه إلى ابنه (ميدينا) مصحوباً بنصح بسيط وهو "ارع أبناء الشعب، وحاول أن تكون فاضلاً، ولا تهمل أبداً في حماية البلاد، وكذلك قدّم النصح إلى الأشراف الذين وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره، فكان نصحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عرفت عند كونفوشيوس ومنشئوس، إذ قال لهم: لقد بلغ ابني الآن سن الرشد، ولست أشعر بأي قلق على مستقبل الدولة، ولكن إذا ما اقترب خلفي خطأ فادحاً في إدارة حكومته فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم، فليست البلاد ملكاً لرجل واحد، ولكنها وطن للأمة بأسرها، وإذا ما أضعاف حفتي سلطانهم بسبب أخطائهم، فلن آسف على ضياعه منهم" (٢٤).

وأخيراً، فإن كل هذه الفضائل التي دعى إليها كونفوشيوس، تتبع من داخل الإنسان لا خوفاً من عذاب في الآخرة، ولا طمعاً في ثواب عند الحساب ودخول الجنة، ولكنها تتبع من ضميره ذاته طالما أن كونفوشيوس نحى الغيب جانباً عند وضع قواعده الأخلاقية، وأحل الضمير محله، وفي نطاق فضائل كونفوشيوس، ومن قبله بوذا، يمكن - بصفة عامة - القول بأن الصيني العادي كان مثلاً يحتذى في طاعة الأبناء للأباء، وإخلاصهم ووفائهم لهم، وفي احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضا واختيار (٢٥)، وأنه وإن كان يستطيع

أحياناً أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب، إذا توالى عليه المظالم، ولكنه في جميع أحواله تقريباً، رجل مسالم رحيم، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه، يحتقر المجرمين والمحاربين^(٢٥)، مقتصد مجد مثابر على عمله، وإن كان لا يعجل فيه بسيط في أسلوب حياته، لا يحب التظاهر والتصنع. شريف إلى حد كبير في معاملاته التجارية، وكان من عاداته الصبر على النوائب^(٢٦). كافة الفضائل جاءت بعيداً عن موضع نزول الوحي وإن اتفقت معه على النحو الذي نعرفه.

والآن ننتقل إلى الفضائل والقيم لدى بعض حكماء الصين واليابان •

الهوامش:

(٢٥) على عكس الهنود، الذين كانوا يمجدون المحاربين ويجعلونهم طبقة عليا كما رأينا في الفصل الخاص بالهندوس.

(٢٦) ديورانت ٢٧٥/٤

الفصل الثامن

الفضائل والقيم لدى بعض حكماء الصين واليابان

أولاً: حكماء الصين

تناولنا فيما سبق الأخلاق عند الصينيين البوذيين والكونفوشيوسيين ، غير أن البحث في الأخلاق لم يكن وفقاً على بوذا أو كونفوشيوس ، بل لقد تناولته بعض الحكماء وفيما يلي عرض لأرائهم:

أ- دوق جَدّ: (٨٤٥ ق.م)

حرية الرأي:

جاء هذا الحكيم بعد عصر بوذا بحوالي ١٥٠ عاماً، ولقد اهتم هذا الحكيم بحرية الناس بصفة خاصة، وكانت له آراء عملية في الحرية أعلنها في خطبة ألقاها بين يدي الملك لي- وانج حوالي عام ٨٤٥ ق.م فحدد المعايير التي تحدد مدى نجاح الملك في حكم بلاده. ومما جاء في هذه الخطبة "يَعْرِفُ الإمبراطور كيف يحكم، إذا كان الشعراء أحراراً في قرض الشعر، والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات، والمؤرخون أحراراً في قول الحق، والوزراء أحراراً في اسداء النصح، والفقراء أحراراً في التذمر من الضرائب، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرة، والعمال أحراراً في مدح مهارتهم وفي السعي إلى العمل، والشعب حراً في أن يتحدث عن كل شيء، والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء"^(١)، فهذه المعايير تدور حول فضيلة واحدة هي "حرية الرأي"، ومن المعروف أن حرية الرأي عمود من عمود الديمقراطية.

ب- منشيس:

الحرية والسلام والصلاح:

كان منشيس الذي جاء بعد كونفوشيوس يمجّد الحرية تمجيداً كبيراً لدرجة أنه كان ينادي بحق الشعوب في الثورة، وينادي بهذا المبدأ في حضرة الملوك، وكان يندد بالحرب ويرأها جريمة، ولشد ما صدم عبأ الأبطال في أيامه حين كتب يقول " من الناس من يقول إنني بارع في تنظيم الجند، وإنني ما هر في إدارة المعارك، أولئك هم كبار المجرمين"^(٢).

وقال في موضع آخر "ليس ثمة حرب عادلة"^(٣)، وكان يندد بترف حاشية الملوك، ويوجه أشد اللوم لذلك الذي يطعم كلابه وخنازيره، ويترك الناس يموتون جوعاً. "ولما قال أحد الملوك أنه لا يستطيع منع المجاعة، أجابه منشيس بأنه ينبغي له أن يعتزل الملك"^(٤).

وكان من شدة صراحته وتقديسه لحرية الرأي، أن سأله الملك شوان مرة عن من هم الوزراء العظام، فأجابه منشيس: " إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة، وجب عليهم أن يعارضوه، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة، وجب عليهم أن يخلعوه"^(٥).

وكان منشيس وهو يعظ الحكام، يدعو إلى الصلاح وكان همه أن يرسم طريقة للحياة الصالحة، وتولى خيار الناس مقاليد الحكم، وكان مبدؤه الأساسي أن الناس أختيار بطبيعتهم - على عكس ما قال هوبز فيما بعد^(٦) وأن منشأ المشاكل الاجتماعية ليس طبيعة الناس، بل منشأها فساد الحكومات، ومن ثم يجب أن

(٢) ديورانت ٨٢/٤

(٢) ديورانت ٨٢/٤

(٥) ديورانت ٨٢/٤

٤) ديورانت ٨٢/٤

(٥) أحد فلاسفة الاجتماع^(٦)

(٩) انظر الطويل ١٧٨

يصبح الفلاسفة ملوكاً، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة^(٦)، والحاكم الصالح في رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية، بل يشنها على العدو المشترك وهو الفقر، لأن الفقر والجهل، هما منشأ الجرائم، واضطراب النظام، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنه لا تتاح لهم فرص للعمل شركاً دنيئاً ينصب للإيقاع بالناس^(٧).

مودى الفيري (٤٥٠ ق.م)

المحبة للناس جميعاً والتراحم:

أما مودى الفيري الذي ولد بعد كونفوشيوس بقليل، فقد كان مسيحياً قبل مجيء المسيحية، فلقد كان "يحب الناس جميعاً، وكان يود لو يستطيع أن يبلى جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه إذا كان في هذا خيراً لبني الإنسان"^(٨) فكانه - كما يقول ديورانت - يبشر بالمسيح قبل مجيئه بما يزيد عن أربعة قرون، ولقد تحدثنا في المقدمة عن أهمية الحب باعتباره محركاً أخلاقياً هاماً.

ولقد رفض مودى تفكير كونفوشيوس - كما يقول ديورانت - لأنه في ظنه تفكير خيالي غير عملي، وأراد أن يستبدل بهذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يحب بعضهم بعضاً، "فالحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية، فإذا ما عمَّ الحبُّ العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التي يحب الناس فيها كلهم بعضهم بعضاً، ولا يفترس أقوياءهم ضعفاءهم، ولا تنهب كثرتهم قلتهم، ولا يزدري أغنياءهم فقراءهم، ولا يسفه عظماءهم صغارهم، ولا يخدع الماكرون منهم السذج"^(٩).

(٧) ديورانت ٨٠/٤-٨١

(١٠) ديورانت ٧١/٤

(٦) ديورانت ٨٠/٤

(٨) ديورانت ٧٠/٤

ثانياً: حكماء اليابان

رأينا فيما سبق طرفاً من الفضائل والقيم عند اليابانيين البوذيين، غير أنه كان هناك - بطبيعة الحال - حكماء يابانيون لهم وجهة نظرهم في الأخلاق التي لا تتفق مع وجهة النظر البوذية، ولكنها تتفق مع تصور هؤلاء الفلاسفة للوجود.

أ- نا كايي

الضمير:

فها هو الفيلسوف نا كايي الذي يشبه اسبينورا يعتقد بوجود ضمير كوني، وهي نظرة من نظرات وحدة الوجود التي كانت تظهر في الفكر الفلسفي والصوفي ثم تختفي. كان هذا الفيلسوف يقرر وجود عالمين، عالم المادة، أي عالم الأشياء، وعالم الضمير "إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذي يخضع في سيره لمنطق العقل، لكن هناك عقلاً آخر يسمى بالضمير، وهذا هو الجانب الذي لا ينتمي إلى عالم الأشياء، بل هو لا نهائي وأبدي، لأنه لما كان الضمير فينا هو العقل الإلهي أو الكوني، كان بغير بداية أو نهاية، فإذا ما سلطنا في أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل، أي الضمير، كنا بمثابة التجسيد اللانهائي والأبدي، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد"^(١١). المهم في كل ذلك أن الفيلسوف نا كايي قد بحث في الضمير وهو العنصر الرئيسي في الأخلاق، وبشر بأن الذي يتبع الضمير فسوف يخلد أبد الدهر.

ب- أوجيو سوراي

الضمير:

إذا كنا في الفقرة السابقة رأينا أن ضمير الإنسان هو جزء من الضمير الإلهي أو الكوني، فإن من فلاسفة اليابان من لا يرى ذلك على الإطلاق، بل يرى أن "الضمير" من صنع الإنسان، اخترعه لحاجة عملية بحت، فهو عمل من عمل العقل الإنساني. فهذا المفكر وهو أوجيو سوراي يرى - كما رأى الفيلسوف هوبز فيما بعد - أن الإنسان شرير بطبعه، ولا يجعل منه مواطناً مقبولاً إلا الأخلاق والقوانين التي يضعها الحكماء، فيقول سوراي "تثور في الإنسان شهواته بمجرد ولادته، فإذا عجزنا عن تحقيق تلك الشهوات في أنفسنا - وهي شهوات لا حد لها - ينشأ النزاع، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة في السلوك، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس، فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية، فهي لم تنشأ مع الفطرة، ولا مع نزوات القلب الإنساني، لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتازت بذكائها ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان" (١٢).

والحقيقة نحن لم نرفض أبداً في هذا البحث مصدراً معيناً للإلزام الخلقي فالذي يهمنا في هذا المقام هو وجود الأخلاق من أي مصدر إلزام حتى ولو كانت موضوعة، بل إن "وضع" الأخلاق واستهدافها يلقي على الإنسان مسئولية أكبر في إدراكه للقيم.

ها قد رأينا أن حكماء الصين الذين كانوا يعيشون في ظل البوذية، كانت لهم معالجاتهم للأخلاق، فاهتم دوق جَدَّ "بحرية الرأي" التي يتيحها الحاكم لمحكوميته، وجعلها معياراً لمدى صلاحية هذا الحاكم، ولقد اهتم منشيس بالحرية

والرحمة والسلام والصلاح، فأقر حقوق الشعوب في الثورة على حكامها الفاسدين، وأدان الحرب فهي دائماً غير عادلة، وكان يوجه أشد اللوم لأولئك الذين يطعمون كلابهم وخنازيرهم، ويتركون الناس يموتون جوعاً. أما مودى الفيورى فقد كان يحب الناس جميعاً. وكان يود لو يبلى جسمه كله من أجل خلاص الإنسان، ومن ثم فقد بشر بالحب بين الناس حتى تعم السعادة للجميع.

أما حكماء اليابان الذين عرضنا لهم، فقد اهتم نا كايي "بالضمير" واعتبره عنصراً إلهياً حل في البشر جميعاً، أما أوجيو سوراى فقد اهتم أيضاً بالضمير، وإن كان يعتبره من صنع الإنسان.

وأياً كان مدى اتفاق هؤلاء الحكماء أو اتفاقهم، فقد بحثوا جميعاً في الحياة الخلقية التي تحقق السعادة للإنسان، وكانوا جميعاً بعيدين عن مواطن الوحي، فحملوا بذلك المسؤولية الأخلاقية على عاتقهم، خاصة أن فضائلهم وقيمهم لم تخرج عما جاء بالوحي إلا قليلاً، كالثورة على الحكام وخلعهم إذا فشلوا فى حكم البلاد كما رأينا عند منشيس، فلا أظن أن الأديان الإلهية قد احتوت على شئ من ذلك. ولننتقل بعد ذلك لليونان لنرى ما هى قيمهم وفضائلهم.

الفصل التاسع

الفضائل والقيم لدى اليونان القديم

مقدمة

لليونانيين القدماء ديانة ككل الشعوب الوثنية، فهناك آلهة عديدة قد يصعب حصرها، ولكن كبير الآلهة هو الإله زيوس، أما الآلهة الأخرى فأقل منه شأنًا، وقد رأينا أن الآلهة الصغرى في البنية اللاهوتية الوثنية، تقابل الملائكة في البنية اللاهوتية الإلهية، وكانت كل مدينة لها آلهتها الخاصة بها على حدة، ولها معتقداتها التي تختلف قليلاً أو كثيراً عن سائر المدن الأخرى. فالكريتي مثلاً (٣٥٠٠ ق.م - ١٠٠٠ ق.م) ربما كان وحشياً قاسياً، ولكنه كان بلاشك متديناً [بدين] يتركب من مزيج بشري من كل من الفنشية والخرافة من جهة، والمثالية وتعظيم الأربب [أي الأرباب] من جهة أخرى، "فهو يعبد الجبال والمغارات والعدد ٣ والأشجار والأعمدة، والشمس والقمر، والمعز والأفاعي واليمام والثيران، وقلما يسلم شيء من عبادته، والهواء في اعتقاده مملوء بالأرواح الطيب منها والخبيث، وتنتقل منه إلى بلاد اليونان طائفة شفاقة من جن الحراج [الأحراج]، منها الذكور ومنها الإناث"^(١).

غير أنه في الفترة ما بين عام ١٠٠٠ ق.م إلى عام ٤٨٠ ق.م^(٢) أصبح في وسعنا أن نلقي شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيماً مصطنعاً إلى سبع مجموعات: آلهة السماء وآلهة الأرض،

(٢) ديورانت ١٢٣/٦

(١) ديورانت ٢٨/٦



خريطة حديثة لليونان

والهة الخصب والآلهة الحيوانية والهة ما تحت الأرض والهة الأسلاف أو الأبطال، والآلهة الأوليمبية. أما أسماؤها فما يشق على الإنسان ذكرها كما يقول هزيود^(٣).

وكانت الأرض لا السماء موطن معظم الآلهة اليونانية، فكانت الأرض نفسها في بادئ الأمر، هي الإلهة جي Ge أو Gaea الأم الصابرة السمحة الجزيلة العطاء^(٤). وليس في أساطير اليونان ذكر لخلق العالم. فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة. ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ، بل خلقتة من تزواج الذكور منها بالإناث، أو بتزاوجها بأبنائها غير الخالدين، و(الله) في دين اليونان ليس إلا والداً، كما أن الآلهة الأوليمبية ليست قادرة على كل شيء عارفة بكل شيء، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً^(٥) وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن تخدع، غير أنها عن بكرة أبيها تقر له بالسيادة عليها، وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ومُنزِل المطر الذي لا غنى للناس عنه، ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر الهادئ القوي الجالس فوق أليمبس الملتهى الوقور، رأس النظام الأخلاقي ومصدره في العالم كله، يعاقب غير البررة من الأبناء، ويحمي أملاك الأسرة، ويوثق الإيمان، ويعاقب الخائنين، ويحفظ الحدود والمساكن والمتضرعين والأضياف^(٦).

ومع هذه الكثرة من الآلهة ذات الاختصاصات المتباينة، لم يكن للدولة دين رسمي يستمسك به جميع أفرادها، أو عقائد ثابتة مقررة، ولم يكن قوام الدين

(٣) ديورانت ٣٢١/٦

(٤) ديورانت ٣٢٢/٦

(*) يمكننا أن نظن - مع قليل من المغامرة - أن ذلك يعتبر أصلاً بعيداً لمبدأ الفصل بين السلطات، ورقابة بعضها على الآخر المطبق في نظم الحكم الديمقراطية، بل ربما كان هو الأصل الديني لفكرة الديمقراطية اليونانية.

(٥) ديورانت ٣٢٩/٦

هو الإقرار بعقائد معينة، بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية، وكان في وسع أي إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد، على شريطة ألا يكفر بالآلهة المدينة أو يسبها، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً في بلاد اليونان^(٦) من كل ما سبق، فإنه يبين لأول وهلة - كما يقول ديورانت - أن الدين اليوناني لم يكن ذا أثر كبير في الأخلاق، فقد كان في أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة، وبقي إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان، وكان لصحة المراسم والطقوس في هذا الدين شأن أكبر للسلوك القويم، ولم تكن الآلهة نفسها الأولمبية، والأرضية مثلاً طيباً في الأمانة والعباد ودمائة الأخلاق، وحتى الشعائر الألويسينية الخفية كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس^(٧)، وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر في النجاة من العذاب، وإن كنا لا ننكر - كما يقول ديورانت - أنها كانت تبعث في النفوس أمالاً كباراً، لكن الدين اليوناني رغم هذا كان عوناً خفياً للشعب وللدولة في أكثر الشئون الأخلاقية حيوية، من ذلك أن مراسم التطهير، وإن كانت كلها مظاهر خارجية، ترمز إلى الأخلاق القويمة، كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة، وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة، وغامضة وغير مطردة، ذلك أنها كانت تغضب على الشرير، وتتقم من المتكبر، وتحمي الغريب، وتستجيب لمن يتوسل إليها، وتحمي بجبروتها قدسية الإيمان، فهم يقولون لنا إن ديكي Dike كانت تعاقب على كل ظلم، وإن يومنيديس Eumenides الرهيب كان يقتني أثر القاتل كما يفعل أرسيتيز حتى يجن أو يموت، وكان الدين يخلع القدسية

(٦) ديورانت ٦/٣٤٨-٣٤٩

(٧) لا شك أن طهارة النفس هي بذرة الضمير.

والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها كالمولد والزواج والأسرة والعشيرة والدولة، وينتسبها من فوضى الشهوات العاجلة^(٧).

ومن وجود بصيص من الحث على الفضيلة في الدين اليوناني، هو شيوع اعتقاد جديد - بعد عصر هومر - بين الطبقات الفقيرة مضمونه أن الجحيم مكان يكفر فيه المذنبون عن ذنوبهم، ويصور اسكلس زيوس [كبير الآلهة] وهو يحاسب الموتى في ذلك المكان، فيعاقب المذنبين، وإن كان لا يذكر كلمة واحدة عن إثابة الصالحين، غير أنه كانت هناك بعض الأقوال القليلة عن الجزائر المباركة، أو الحقول الأليزية مواطن السعادة الأبدية، التي ينعم فيها عدد قليل من أرواح الأبطال^(٨).

غير أنه مما يحمد لليونان، أن يكون منشئ الفلسفة الخلقية هو فيلسوف من أعظم فلاسفتهم وهو سقراط (- ٣٩٩ ق.م)^(٩)، وهذا دليل آخر على أن الدين لم يكن ذا صلة وثيقة بالأخلاق عند اليونان بالذات، فلقد كان سقراط ملحداً لدين أثينا.

والملاحظ في الفضائل والقيم عند اليونان، أن حكماءهم وفلاسفتهم قد اهتموا اهتماماً كبيراً بتعريفها. يقول الدكتور توفيق الطويل " كانت المحاورات التي كتبها أفلاطون في بدء حياته - وهي التي تغلب عليها النزعة السقراطية - يشيع فيها البحث في تعريف المفاهيم الأخلاقية، فمحاورة شارميدس Charmides تتوخى تعريف العفة أو الاعتدال temperance or modiration ومحاورة ليسس Lysis تهتم بتعريف الصداقة، ومحاورة لآخس تُعني بتعريف الشجاعة... الخ"^(١٠).

(٧) ديورانت ٢٦٥/٦-٢٦٦

(٩) الطويل ٢٩

(٨) ديورانت ١٣١/٧

(١٠) الطويل ٣٣

ومن الغريب في الأمر أن هؤلاء الفلاسفة رغم اهتمامهم الكبير بالفضائل والقيم والتنظير لها، فإنهم لم يحثوا عليها مثلما رأينا عند قدماء المصريين وفراعنتهم مثلاً، أو كما رأينا عند الهنوس والبوذيين والزرادشتيين وغيرهم. أي أن فلاسفة اليونان - في غالب الأمر - حين تحدثوا عن الفضائل والقيم، لم يتحدثوا عنها من جانب عملي أي من جانب ممارستها لها، بل من جانب عقلي تحليلي، فلقد طبقوا عليها منهجهم الإستمومولوجي. يقول الدكتور توفيق الطويل "وكما اهتدى سقراط بالعقل إلى الحقائق الثابتة في مجال المعرفة، توصل عن طريقه إلى القيم المطلقة في مجال الأخلاق، وبدأت الطبيعة البشرية في نظره جسماً وعقلاً يسيطر على دوافع الحس ونزواته، وليست مجرد حشد من الشهوات كما تصورها السوفسطائية وإذا كانت قوانين الأخلاق تتعارض مع الجانب الحيواني، فإنها تتمشى مع طبيعتها الإنسانية العاقلة، وهي شريعة العقل، ومن هنا كانت عادلة، وطاعتها احترام العقل، وعصيانها خليك بالعقاب إن لم يكن في دنيا الحاضر، ففي حياتنا الأخرى" (١١).

أما الوجه الآخر للأخلاق عند فلاسفة اليونان، فهو ما نراه عند السوفسطائيين الذين كانوا يرون الإنسان مقياساً لكل شيء، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من إرضاء الإنسان. يقول الدكتور توفيق الطويل "وكان السوفسطائية يقولون باللذة غاية لأفعال الإنسان اعتقاداً منهم بأن الطبيعة البشرية لا تعدو أن تكون شهوة وهوى، فقالوا لن تكون سعيداً متى خضعت لقانون، فمن حقه أن تستخدم ذكائك في إشباع شهواتك وتحقيق سعادتك، وإن اقتضاك الحرص على مصلحتك أن تتخفى وتظاهر بالتقوى والاستقامة، أما سقراط فقد رفض هذا الموقف برمته ونفر من القول باللذة غاية لأفعالنا، وطالب بالسعادة التي تقوم عنده في سيطرة العقل على دوافع الشهوة ونوازع الهوى، ورد الإنسان إلى حياة

الاعتدال، ومتى عرف الإنسان ماهيته وأدرك خيره؛ أتاه لا محالة، لأن الفضيلة وليدة المعرفة، فمتى عرفت الخير حرصت على فعله، ومتى أدركت الشر توخيت أن تتجنبه، ولا يأتي الشر إلا من جهله، وهكذا بدت العلاقة وثيقة بين الفضيلة والمعرفة، وهي علاقة ميزت سقراط وأفلاطون وكادت تشيع في الفكر اليوناني كله^(١٢).

بعد هذه المقدمة الطويلة شيئاً ما نتحدث على الفضائل والقيم عند اليونان بشيء من التحديد.

الخداع والقسوة:

نبدأ في هذه الفقرة بعرض فضائل منتشرة، كانت موجودة في عصر الأخيين (١٣٠٠-١١٠٠ ق م)، ولكنها لم تستمر في العصور التالية، فلقد أدت وظيفتها في عصرها، وهجرها أهلها بعد أن كانت من الفضائل لديهم، ونعني بها الغدر والكذب والقسوة فالأخيون - كما يقول ديورانت - يتصفون فضلاً عن حبهم للنهب والقتل دون أن يخشوا في ذلك تأنيب الضمير، يشتهرون بالكذب والخداع دون حياء، فأديسيوس لا يكاد ينطق بقول دون أن يكذب فيه، أو يعمل عملاً دون أن يشوبه الغدر، ومن لا يمارس ذلك من الأخيين يحسدون أديسيوس ويعجبون به، ويرونه أنموذجاً للخلق الطيب، وحتى الإلهة أثينا نفسها [كما جاء في الإلياذة] تنثى عليه لكذبه وتضيف هذه الصفة إلى محاسنه الخاصة التي تحببه إليها^(١٣).

ويعتذر ديورانت عن هذه الأخلاق قائلاً: "والحق أن المعايير الخلقية عند الأخيين تختلف عن معاييرنا اختلاف فضائل الحرب عن فضائل السلم، فالرجل الأخي يعيش في عالم مضطرب، كدراً جوعاناً، على كل إنسان فيه أن

(١٣) ديورانت ٩٥/٦

(١٢) الطويل ٣٤

يُعنى بحراسة نفسه، وأن يكون على الدوام ممسكاً بقوسه ورمحه، قادراً على أن ينظر في هدوء إلى الدم المراق... وإذا كان الأخي لا يجد إلا القليل من الأمن والسلامة في بلاده، فإنه لا يرمى شيئاً منهما في خارجها، ويرى أن من حقه أن يفترس كل ضعيف، وأسمى الفضائل في رأيه فضيلة الذكاء المقرون بالشجاعة والقسوة، ولفظ الفضيلة في لغته مشتق من لفظ الرجولة ومن صفة Ares المريح^(١٤) وهذا يدل من جهة أخرى على أن الفضائل اجتماعية، تنشأ في المجتمع لتؤدي دوراً اجتماعياً، وحين يتعرض هذا المجتمع للتغير ويصبح في غير حاجة إلى بعض فضائله، يتخلى عن هذه الفضائل ويهجرها، بل إنها حين تتلأ في الرحيل تصبح من الرذائل المكروهة والتي يعاقب من يرتكبها إما بزجر المجتمع له، أو بإقامة الحد عليه بعد أن كان يثاب عليها، ونستطيع القول إن الفضائل والقيم بنوية أي توجد في بنيات اجتماعية، وأنها مرتبطة بسائر عناصر البيئة، ولا يمكن فصل فضيلة ما من مجتمع معين للحكم عليها منعزلة، بل لا بد من الحكم عليها داخل هذا المجتمع بالذات بظروفه الجغرافية والإكولوجية والتاريخية، وعلى أي حال فإن الأمر لم يستمر في اليونان بهذه الصورة، ولكننا سوف نرى فيما يلي تغيراً هائلاً في الفضائل والقيم عند اليونانيين في العصر التالي لعصر الأخيين، بل إن هذا العصر لم يكن يخلو من الفضائل والقيم طبقاً لمعاييرنا نحن كما سوف نرى في الفقرة التالية.

التعاطف والكرم:

وعن اليونان في عصر الأخيين أيضاً (أي عصر الأبطال كما جاء في أشعار هوميروس)، كانت الحياة الهومييرية فقيرة في الفنون غنية في النشاط العمل، وهي ثقافة ينقصها التفكير والتأمل، وهي أصغر سناً وأصلب عوداً من

أن تهتم بالأخلاق أو الفلسفة، وهذا يؤيد الرأي القائل بأن الفضائل والقيم لا تنشأ دفعة واحدة، ومع ذلك فكما يقول ديورانت "لسنا ننكر أننا نشهد في هذه الثقافة كثيراً من الصفات والمناظر الرقيقة الرحيمة، وإنك لترى المحاربين أنفسهم كراماً يعطف بعضهم على بعض، كما ترى بين الأب والابن حباً به من العمق قدر ما به من السكون والصمت، فما هو ذا أديسيوس يقبل رؤوس أفراد أسرته وأكتافهم حين يعرفونه بعد غيابه الطويل، وهامهم أو لاء يقبلونه كما يقبلهم وحين يعلم منيلوس وتعلم هين أن تليمكس الطفل النبيل ابن أديسيوس المفقود الذي حارب من أجلهم حرب الأبطال يبكيان ويتحسران ... وهم شديدو السخاء على الأضياف لأن الغرباء والمتسولين أبناء زيوس. والعداري يغسلن قدمي الضيف أو جسمه ويدهنه بالأدهان، وربما قدمن له ثياباً غير ثيابه، وهو يجد الطعام وانماوى إذا كان في حاجة إليهما"^(١٥).

ويعلق ديورانت على ذلك بأن هذه الصورة تكشف عن الحنو الإنساني والشعور اللذين يختلفان حتماً في الألياذة بين نفع الحرب وقعقة السلاح^(١٦).

العطف على الموتى:

كان الكريتي يبجل موته إلى درجة عبادتهم مثل معظم الشعوب القديمة، ولكنها عبادة لا تسمو إلى عبادة الآلهة، فكان يضع معهم في قبورهم قدراً غير كثير من الطعام وأدوات الزينة ودمى صغيرة من الصلصال في صورة نساء يقمن على خدمتهم أو يواسينهم إلى أبد الدهر، أو وضع بعض الأشياء التي كان يحبها صاحب القبر. وهذا السلوك - كما يرى ديورانت - دليل على العطف على الأموات^(١٧).

(١٦) ديورانت ٩٣/٦

(١٥) ديورانت ٩٣/٦

(١٧) ديورانت ٣١/٦

ونسنتج من ذلك أن الكريتيين - رغم ميلهم إلى القسوة مثل بعض الشعوب القديمة - كانوا مع ذلك يمارسون فضيلة العطف على موتاهم على الأقل.

تقديس النفس البشرية:

من المعروف لدى الشعوب القديمة أن آلهتها كانت تفضل الأضاحي البشرية، ولكن لما تقدمت البشرية، تقدمت آلهتها أيضاً وأصبحت لا تطلب الأضاحي البشرية، وإنما تكتفي بالأضاحي الحيوانية من البقر والخراف وغير ذلك، ولم تختلف اليونان عن ذلك، إذ يحكي ديورانت كيف وُضعت بذرة عدم التضحية بالإنسان عند اليونان فيقول: «لما رأى بلبيداس Belopidas أحد القواد في الليلة السابقة لمعركة لوكترا (٣٧١ ق.م) حلما ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر نصحه بعض مشيريه أن يلبي الطلب، وعارضه البعض الآخر وقالوا له: إن هذا العمل الهمجي المجرد من كل معاني التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أياً كانت، وإن الجبابرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عليا يسرها التقتيل والتضحية بالأميين»^(١٨).

ونحن نعتبر أن ذلك يعتبر نقلة كبيرة للأخلاق لدى الإنسان في طريقه الشاق نحو رقة الشعور تتفق مع ما جاء بالأديان الإلهية، غير أن هناك من يعتقد أن الإنسان ما زال أمامه طريق طويل في مسألة إراقة الدماء.

العفة والطهارة والفضيلة من أجل الخلاص:

ما لبث أمر الأخلاق في اليونان أن تأثر تأثراً كبيراً عن طريق انتقال أفكار التتاسخ لدى الهنود إلى اليونان عن طريق أورفيوس الأسيوي صاحب النحلة المسماة باسمه، وهي النحلة الأورفيه، وربما كان الفيلسوف الرياضي فيثاغورس هو من أوائل من اعتنق هذه النحلة من اليونانيين، حيث كَوَّن مجتمعاً يدين بها، ومن الطبيعي أن تكون هذه العقيدة سرية لأنها تختلف عن دين اليونان، ومع ذلك فقد اعتنقها فلاسفة كبار بعد ذلك سراً، والذي يهمننا من هذه النحلة هو فضيلة الطهارة والعفة، وغير ذلك من الفضائل التي حثت عليها، "فلقد كان الانضمام إلى المجتمع الفيثاغوري يتطلب، فضلاً عن تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات، تطهير العقل بدراسة العلم"^(١٩).

وهنا نلاحظ أن العفة أصبحت ليست مجرد طقوس كما هو في ديانة اليونان أو في بعض الديانات الأخرى، أما عن كيف يحدث التطهير في النحلة الأورفيه، فإن النفس تمر بعد الموت بفترة من التطهير في الجحيم Hadis وتعود بعدها إلى الأرض وتدخل في جسم جديد، ثم في جسم آخر، وتمر في سلسلة من التتاسخ لا تنتهي إلا إذا كان صاحبها قد جَبِيَ حياة فاضلة منزهة عن الرذائل بأجمعها^(٢٠).

إن التطهير هنا هو وسيلة للخلاص، وواضح جداً العلاقة الوثيقة بين هذه العقيدة وعقيدة التتاسخ عند الهندوس.

أما فيثاغورس فقد اشتق عقيدة من هذه النحلة واختصر الطريق، فبدلاً من التطهير عن طريق التتاسخ والمرور على الجحيم، فإن ذلك ممكن عن طريق السلوك. يقول ديورانت "القصد من الحياة في النظام الفيثاغوري أن نَخْلَصَ من

(٢٠) ديورانت ٢٩٩/٦

(١٩) ديورانت ٢٩٦/٦

المتقمص والسبيل إلى ذلك هو الفضيلة، والفضيلة هي انتلاف الروح مع نفسها ومع الله" (٢١).

أما كيف نحصل على هذا التآلف فإن ذلك يكون بالحصول على الحكمة "وهي فهم الحقائق التي يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئاً، وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الإنسان التواضع والاعتدال" (٢٢).

الكرم والعطف على العاجزين:

كان أغنياء اليونان أسخياء في عطائهم وكانت عادة العطف على الإنسانية عادة يونانية اسماً وفعلاً، واللفظ الذي يطلق عليها Philanthropy من أصل يوناني، وكان التصدق Cathritas أي الحب من طباعهم، وكانت لهم هيئات [أي مؤسسات] للعناية بالغرباء والمرضى والفقراء والطاعنين في السن، وكانت الحكومة تقرر معاشات للجرحى من الجنود، وتربي أيتام الحرب على نفقة الدولة، ولما حل القرن الرابع قبل الميلاد، قررت مرتبات للعمال العاجزين عن العمل (٢٣).

الضمير:

يعتبر علماء الأخلاق أن "الضمير" هو العامود الفقري للفضائل والقيم، ولن نناقش بالطبع وجهات النظر في الضمير، ولكننا سوف نعرض فقط هنا لظهور "الضمير" صراحة عند اليونان، وإن كنا لا ننكر وجوده ضمناً في كافة فضائلهم التي تحدثنا عنها أو التي سوف نتحدث عنها. وفيما نعتقد أنه إشارة إلى الضمير، يقول ديموقريطس: قوة الجسم لا تكون من أسباب النبل إلا في دواب النمل، أما قوة الخلق فهي سبب النبل في الإنسان " والأعمال الحسية يجب أن

(٢١) ديورانت ٢٠٠/٦

(٢٢) ديورانت ٩٤/٧

(٢٣) ديورانت ٢٠٠/٦

تصدر عن عقيدة لا عن قسر، ويجب أن يفعلها الإنسان للرجبة فيها لا أملاً فيما يناله عليها من جزاء.. ومن واجب الإنسان أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله^(٢٤).

أليس ما يتحدث عنه ديموقريطس من شعور بالعار أمام النفس، هو نفسه ما نشعر به من وخزٍ أمام الضمير، وإن كان ديموقريطس لم يذكر لفظ الضمير؟ ولقد جاء سقراط بعد ذلك و أعلنت نزعتة الفردية - كما يقول ديورانت - من شأن الضمير وجعلته أعلى من القانون، وهو ما أصبح فيما بعد من العقائد الجوهرية في المسيحية^(٢٥)

ولابد أن المرء قد لاحظ هنا هذه النظرة الوجدانية للضمير رغم أن سقراط قد نظر للأخلاق نظرة عقلانية كما سوف نرى.

العدالة وكرهية الفساد والرشوة:

من المعروف أن أول ديموقراطية في العالم نشأت في أثينا التي تمتعت بأعلى درجة من الديموقراطية، ثم توزعت الديموقراطية بعد ذلك بدرجات متفاوتة على المدن اليونانية المختلفة. ومما لا شك فيه أن الديموقراطية تدعو إلى العدالة، إذ أن توزيع السلطة السياسية متساوية على الجميع سوف يستتبعه بالضرورة توزيع الدخل توزيعاً عادلاً كذلك. " فلقد كان كل مواطن - في عصر بركليز - يستمتع، ويصر أن يستمتع بما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون، وفي الجمعية الوطنية. ولم يكن المواطن في نظر الأثيني هو الذي يقترع فحسب، بل كان هو الذي يشغل بالقرعة - إذا جاء دوره على مر الأيام - منصب الحاكم أو

القاضي، ويجب أن يكون حراً مستعداً لخدمة الدولة حين تناديه وقادراً على خدمتها»^(٢٦).

فالجميع متساوون في الحقوق والواجبات، وأعباء الحكم والسلطان توزع على الجميع بالتساوي، وهو من الفضائل التي تفوقت بها أثينا.

وبطبيعة الحال طالما أن الناس أحراراً، أن يلجأ الجميع إلى القضاء إذا احتاج الأمر، ومن ثم فلا بد أن يكون القضاء عادلاً وكفئاً للنظر في القضايا المختلفة. يقول ديورانت "إصلاح القضاء آخر ما تفعله الديمقراطية، ولقد كان أعظم إصلاح قام به افيلتيز وبركليز هو نقل الحقوق القضائية التي كان يمارسها الأركونون والأريويجوس^(*) إلى الهيئية، أي المحاكم الشعبية، وكان إنشاء هذه المحاكم هو الذي وهب أثينا ذلك النظام القضائي الذي أخذت عنه أوروبا نظام المحلفين والذي عاد عليها بالخير العميم"^(٢٧).

ولكن طالما أن الأمر كذلك، وطالما كان القضاء شعبياً يعتمد على نظام المحلفين، فإن ذلك لن يجعل هذا النظام بمنجاة من الظنون، ولقد أدرك الآثينيون ذلك، ولكي ينقصوا الرشوة والفساد في القضاء إلى الحد الأدنى كان أعضاء المحكمة الذين يوكل إليهم النظر في قضية ما، يختارون بطريق القرعة في آخر لحظة، وإذا كانت معظم القضايا لا يطول النظر فيها أكثر من يوم واحد، فإننا لا نسمع كثيراً عن الرشوة في المحاكم، وذلك أن الآثينيين أنفسهم كانوا يجدون صعوبة في إرشاء ثلاثمائة رجل في لحظة واحدة"^(٢٨).

جمع من الفضائل اليونانية:

(٢٦) ديورانت ٢١/٧

(*) لابد أن هذه ألقاب للمديرين والحكام

(٢٧) ديورانت ٣٠/٧

(٢٨) ديورانت ٣١/٧

وأخيراً نقدم للقارئ مجموعة ضخمة من الفضائل اليونانية التي احتوى عليها القسّم المعروف بقسّم أبو قراط، فأبوقراط هذا - كما يعرف القارئ - هو طبيب يوناني مشهور، وكان رجلاً فاضلاً، فأنشأ هذا القسّم الذي نجتزئ بعضه، وحتّم على الطبيب الجديد أن يتلو هذا القسّم قبل ممارسته مهنة الطب، لما لهذه المهنة من قداسة.

فبعد القسّم بأبولوا الطبيب وسائر الآلهة، يتعهد الطبيب بأن يبر بهذا القسّم الذي يتضمن مجموعة من الفضائل وأولها أن يضع معلمه من هذا الفن في منزلة أبوية، وأن يشركه في ماله الذي يعيش منه، فإذا احتاج معلمه إلى مال اقتسم ماله معه، كما يتعهد بأن يعلم أفراد أسرة أستاذه هذا الفن - إذا رغبوا في ذلك - دون أن يتقاضى أجراً. ويقول القسم أيضاً: " وسوف استخدم العلاج لأساعد المرضى حسب مقدرتي وحكمتي، ولكن لا استخدمه للأذى أو لفعل الشر، ولن أسقي أحداً السم إذا طلب إلي أن أفعل هذا، أو أشير بسلوك هذا السبيل [وذلك للمرضى الذي لا يرجى شفاؤهم] كذلك لن أعطي امرأة صوفة لإسقاط جنينها، ولكنني سأحتفظ بحياتي وفني كليهما طاهرين مقدسين... وإذا دخلت بيت إنسان أيضاً كان فسأدخله لمساعدة المرضى، وسأمتنع عن كل إساءة مقصودة، أو أذى متعمد، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أي رجل أو أية امرأة، سواء كانا من الأحرار أو من الأرقاء، ومهما رأيت أو سمعت في أثناء قيامي بفروض مهنتي، وفي خارج مهنتي من خلال حديثي مع الناس مما لا يجب إذاعته، فلن أفشيّه، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة^(٢٩).

ثم يوصي أبو قراط بعد ذلك الطبيب ببعض الوصايا الهامة مثل النظافة وحسن المظهر، ولكنه يعود للجانب الأخلاقي مرة أخرى، فيوصيه قائلاً: ألا تقسو على أهل المريض وأن تراعي بعناية حال مريضك المالية، وعليك أيضاً

أن تقدم خدماتك من غير أجر، وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدي خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال، فقدم له معونتك كاملة، ذلك أنه حيث يوجد حب الناس، يوجد أيضاً حب الفن» (٣٠).

ومن الجدير بالذكر، أن هذا القسم الذي أصدره أبو قراط (ت ٤٢٠ ق.م) منذ أكثر من ٢٤ قرناً، ما زال صالحاً في أغلبه حتى اليوم، ومن الصعب أن يضيف إليه علماء الأخلاق فضيلة جديدة.

انتهينا الآن من عرض بعض الفضائل والقيم عند اليونانيين كما جاءت في ممارساتهم الشعبية والاجتماعية، وننتقل الآن لنرى كيف عالج فلاسفة اليونان هذا الموضوع. وبطبيعة الحال سوف نجد فرقاً كبيراً بين الحاليين، فالفلاسفة لم يهتموا كثيراً بمفردات الأخلاق كالصدق والعدل والأمانة والإحسان، وإنما اهتموا أكثر بالغايات القصوى، فكل ما سبق يمكن أن يوضع مثلاً تحت كلمة واحد هي "الخير" أو "الفضيلة" أو غير ذلك من الحدود وفرق آخر، وهو أن الفلاسفة بطبيعتهم قد اهتموا أكثر بالتنظير للأخلاق، فتراهم يتحدثون كثيراً عن الفضائل والقيم دون أن يحرثوا عليها، فالحث على السلوك جانب عملي، وهم معنيون بالجانب النظري لا غير.

الفضيلة عند سقراط :

المعرفة :

جاء سقراط في نهاية عصر السوفسطائيين ، ولقد أدرك. أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة ، وذلك بإضعاف أحد الأسس التي تقوم عليها الأخلاق ونعنى به خوارق الطبيعة . ولقد وضع سقراط السؤال الهام التالي : هل يُستطاع وجود علم الأخلاق قائماً على أساس من الطبيعة ؟ أى هل

إذا صاغت الفلسفة قانونا أخلاقيا دنيويا غير ديني ، يكون في مقدورها أن تتنقذ الحضارة التي تهددها حريتها الفكرية من الانهيار والزوال ؟

ولقد كانت الإجابة أن كل ذلك ممكن ، بل لقد فصل سقراط الأخلاق عن الدين فصلا تاما حين قال " ليس الخير خيرا لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير ، وعلى ذلك فإن " الخير " فضيلة نصل إليها بالعقل . ومادام الأمر كذلك ، فإن المعرفة عند سقراط هي أسمى الفضائل ، والرذيلة جميعها هي الجهل ، والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة^(٣١) . وهذا يعنى أن الفضيلة عمل من أعمال العقل ، ولا فضل للآلهة في وجودها ، ولقد أثر هذا المبدأ على أفلاطون وأرسطو فيما بعد كما سوف نرى .

الفضيلة عند أفلاطون :

تأثر أفلاطون كثيرا بأراء استاذة سقراط ، ونظر إلى الفضيلة نظرة عقلية . فالفضائل عند أفلاطون هي الحقائق العقلية الخالدة والمعاني المجردة ، وبطبيعة الحال لنا أن نتوقع أن تقع فضائل أفلاطون داخل عالم المثل^٣ لديه الذي يجمع كافة الحقائق في العالم .

ولقد قضى بعض الوقت يحاول وضع قانون أخلاقي طبيعي يبعث في نفوس الناس الرغبة في الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمد على السماوات والمطهر والجحيم^(٣٢) . ومن ثم كان عليه أن يعتمد على العقل ، وما على العقل إلا أن يقوم بتحليل النفس البشرية إلى مركباتها ثم يرى ما يقابل هذه المركبات

(٣١) ديورانت ٢٢٥ / ٧

(٣٢) ديورانت ٤٨٠ / ٧

من الفضائل ، ومن الواجب أن نربي في الطفل عادة الاعتدال وإدراك الأوساط الذهبية للأمور خشية أن يأتي الذكاء متأخرا بعد فوات الوقت^(٣٣) .

تتكون النفس أو أصل الحياة عند أفلاطون من ثلاث درجات أو أجزاء : الشهوة ، والإرادة ، والفكر . ولكل جزء من هذه الأجزاء فضيلته الخاصة . فالشهوة فضيلتها الاعتدال ، والإرادة فضيلتها الشجاعة ، أما الفكر فضيلته الحكمة التي يجب أن نضيف إليها التقوى والعدالة وأداء الإنسان الواجب نحو والديه وآلهته . ويمكن تعريف العدالة - كما يرى أفلاطون - بأنها هي تعاون الأجزاء [في] الكل ، أو العناصر في الأخلاق ، أو الأهلين في الدولة ، بحيث يقوم كل جزء بواجبه اللائق على الوجه الأكمل^(٣٤) .

هذه هي الفضائل والقيم عند أفلاطون الفيلسوف ، أما إذا جئنا لأفلاطون الإنسان ، فكما يقول ديورانت أنه كان متدينا وله قصائد دينية " ولكنه حرق قصائده الدينية وإن ظل شاعرا عابدا ، يغمر فكرته عن الخير إحساس قوى بالجمال ، وتقوى ممتزجة بالتعبد والتقشف ، توحدت فيه الفلسفة والدين ، وامتزجت فيه الأخلاق بحاسة الجمال ، ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة"^(٣٥) .

ولأفلاطون رأى في الخير^(٣٥) ، فقد كان سقراط يرى أن ماهيات الأشياء أي صفاتها ، متحققة في الأشياء نفسها ، وبما أن هذه الأشياء متغيرة أحيانا ، ويصيبها الفساد في أحيان أخرى ، فإن الحقيقة التي نصل إليها عن طريق هذه الأشياء ، سوف تكون ظنية نسبية ؛ غير أن أفلاطون رفض ذلك وقرر أن

(*) عندما نتحدث عن " الخير " عند فلاسفة اليونان . لابد أن نتناسى مفهومه لدينا ، بل حتى في معظم الثقافات ، فهو لدينا كما قد يكون في الثقافات الأخرى رديف للإحسان للآخر ، أما عند فلاسفة اليونان فإنه يعنى جماع الفضائل كلها .

(٣٣) ديورانت ٤٨١ / ٧ (٣٤) ديورانت ٤٨١ / ٧ (٣٥) ديورانت ٤٨١ / ٧ - ٤٨٢

حقائق الأشياء أو ماهياتها ثابتة لا يدركها التغير أو الفساد ، غير أن هذه الماهيات لا توجد في الأشياء ذاتها ، ولكنها توجد في عالم مفارق ، وهذه الماهيات هي "المُثَل" ، وهي عنده مبادئ المعرفة ومعايير الأحكام ، والخير أسمى المُثَل وهو مصدر الوجود والكمال ، فخالف سقراط من حيث أنه تجاوز الماهيات المتحققة في المحسوسات إلى ماسماه بالمثل . وهكذا قضى أفلاطون على نسبية الحقائق في مجال المعرفة ، كما قضى على نسبية القيم في مجال الأخلاق ، وأبطل رد الخيرية إلى اللذة^(٣٦) .

وقد بحث أفلاطون في الخير الأقصى ، وكان سقراط قد ذهب إلى أن الخير هو السعادة التي اعتبرها غاية كل فعل أخلاقي ، وجاء أفلاطون وشارك أستاذه في رفض الموقف السوفسطائي في التوحيد بين الفضيلة واللذة الفردية ، واعتناق فكرته عن السعادة ، وإن جاهر بأن السعادة تقترب بالعدالة^(٣٧) .

الفضيلة عند أرسطو :

لم يبتعد أرسطو كثيرا في نظريته للفضيلة عن أستاذه أفلاطون ، فأرسطو يرى أن الثروة لا تُطلب لذاتها ، وإنما هي وسيلة لا أكثر ، فهي لا تُرضى غير البخيل ، وإذا كانت الثروة نسبية ، فإنها لا ترضى إنسانا زمنا طويلا ، وسر السعادة هو " العمل " أي بذل الجهد بطريقة تتفق مع طبيعة الإنسان وظروفه ، والفضيلة هي حكمة عملية ، وهي تقدير الإنسان بعقله لما فيه من خير ، وهي في العادة وسط بين نقيضين^(٣٨) .

والخير أيضا هو جوهر الفضائل والقيم عند أرسطو كما كان كذلك عند سقراط وأفلاطون . وكما يقول الدكتور توفيق الطويل " لقد سار أرسطو في اتجاه سقراط وأفلاطون ، فحارب اللذة غاية قصوى لأفعالنا الإنسانية ، واعتنق

(٣٦) الطويل ٥٥ - ٥٦ (٣٧) الطويل ٥٧ - ٥٨

(٣٨) ديورانت ٧ / ٥٠٨

السعادة واستوفى بحثها حتى بدت على يده لأول مرّة مذهباً فلسفياً دقيقاً منظماً ،
وصرح في مستهل كتابه الأخلاق النيقوماخية ، بأن الخير ما يقصد إليه الكل .
وبهذا أقر الغائية في حياة الإنسان ، وجاهر بأن الإخلاق علم عملي يهدف إلى
تحقيق غاية ، بغيرها يتعذر على الإنسان أن يقوم بفعل أو تصرف «(٣٩)» .

أما عن علاقة السعادة بالفضيلة ، وعلاقة الحس بالعقل في مذهب
أرسطو فإن ذلك يبين لنا من نظريته في التأمل ، وموجزها أنه "لما كان الإنسان
يجمع بين الحيوانية والإنسانية ، كانت الفضائل صنفين ؛ صنف يتمثل في التغذية
والحس وصنف يتمثل في حياة التأمل العقلي والنظر المجرد ، وتقوم فضيلة
الصنف الأول في إخضاع الشهوات والأهواء لسلطان العقل ، أما حياة التأمل
فأسمى بكثير ، إنها ترتفع بالإنسان حتى تضعه تحت عرش الله «(٤٠)» .

فأما الصنف الأول فيأتي بالتربية والتعود ، وينشأ الصنف الثاني عن
طريق التعلم ، ومن أجل هذا وجب على المشرع أن يروض مواطنيه على تعود
العادات الطيبة ، لأن الفضائل إنما تُكتسب بالمران والتعود ، وعندئذ تقترب
مزاولتها بمتعة ، بل إن الفضيلة لا تكون فضيلة إلا متى أصبحت عادة تصدر
عن صاحبها في يسر وسهولة حتى يجد في مزاولتها لذة ، ومن وجد في مباشرة
الفضيلة مشقة أو عناء ، دل بهذا على عدم استعدادها لها ، فاللذة ترشد
إلى الفضيلة وتقترب بها ، ومن هنا وجد العفيف في ضبط نفسه لذة «(٤١)» .

ولكن كيف يتيسر تحديد الفضائل الخلقية ؟ لأرسطو مذهب معروف
يقتضى الأخذ بالوسط الذهبي ومؤداه أن كل فضيلة وسط بين طرفين كلاهما
رذيلة ؛ فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الإسراف

(٣٩) الطويل ٦٥ (٤٠) الطويل ٦٨

(٤١) الطويل ٧٠

والتفتير ، والاعتدال وسط بين الغرور والمسكنة أو المذلة ، والتواضع وسط بين الخجل وانعدام الحياء ٠٠٠ وهلم جرا (٤٢) .

الفضائل والقيم عند الرواقيين :

اتخذ الكليون -أحدى الفرق الأخلاقية - من " ضبط النفس " عند سقراط مبدأ سلوكيا لهم ، غير أن الرواقيين حولوه إلى " وأد للشهوات " لخدمة معتقداتهم الستي تتلخص فى معتقدين اثنين " أولا هما أن العالم يخضع لقانون مطلق لا يبيح استثناءا ، ويرى ثانيهما أن طبيعة الإنسان التي تميزه عن سائر الكائنات تتمثل فى جانبه العاقل ، ولقد لخص هذين المبدئين شعارهم الذى يقول : عس على وفاق الطبيعة (أى العقل) لأن لهذا الشعار وجهين ؛ فالناس مطالبون من ناحية أن يتشبهوا بالطبيعة بمعناها الواسع ، بمعنى أن يتصرفوا بمقتضى قوانين انوجود ، ثم هم من ناحية أخرى مطالبون بأن يخضعوا سلوكهم للطبيعة بمعناها الضيق وهو العقل" (٤٣) ، وهنا يعمل مبدأ وأد الشهوات عمله ، وبذا تصبح الفضيلة " هي العيش وفاقا للعقل ، وترتد الأخلاقية إلى حكم العقل ، ويستبعد الهوى كما تستبعد إرادة الفرد باعثة على الأفعال الإنسانية ، والحكيم هو الذى يخضع حياته واعيا لسنن الوجود كله ، ويعتبر نفسه مجرد ترس فى الآلة الكبرى يسير معها ولا يشذ عنها" (٤٤) .

ولقد نظر الرواقيون إلى الفضائل والرذائل نظرة ضيقة ، " فأكدوا أن الفضيلة وحدها هي الخير ، والرذيلة وحدها هي الشر ، وكل ما عداهما يعتبر على الحياد تماما neutral ، وبهذا خرج من نطاق الشر الفقر والمرض والألم والموت ونحوه ، واستبعد من الخير الثراء والصحة واللذة والحياة ونحوها" (٤٥) .

(٤٢) الطويل ٧٠ (٤٣) الطويل ٨٧ (٤٤) الطويل ٨٨

(٤٥) الطويل ٨٩

ومضى الرواقيون فى نظرتهم الضيقة للأخلاق وكراهيتهم للذة ، ولكنهم أعلوا من شأن الواجب ، فقالوا إن من حماقة أن ينشد الإنسان لذته. فليلتمس سعادته التى لا تتحقق إلا بمزاولة الفضيلة والإنسان لا يتوخى أن يكون فاضلا ابتغاء اللذة ، بل إنه يتمسك بالفضيلة من أجل الواجب^(٤٦). فكانوا بذلك سابقين للفيلسوف كانط ، فيلسوف الواجب . أما أساس الفضيلة عند الرواقيين فهو العقل كما ألمحنا ، أى أنها استندت إلى المعرفة ، فارتدوا بهذا إلى رأى سقراط فى التوحيد بين الفضيلة والمعرفة ، ولكنهم لم يكونوا عقلانيين بالمعنى الأتم ، إذ استخفوا بالنظر العقلى الخالص ، وربطوا التفكير بالعمل ، وكان من الطبيعى والأمر كذلك ، أن يصرحوا بأن رأس الفضائل الحكمة ، وأن الحكيم هو الذى تتمثل فيه أسمى آيات الكمال ، يُحسِّن كل ما يفعل ، ويلتزم الهدوء دوما ، ولا يحس ألما ولا حزنا ولا خوفا ولا ندما ، تحفل حياته بالخير والسعادة ، وعن الحكمة تصدر الفضائل الرئيسية الأربع : الاستبصار والشجاعة والعفة والعدالة ، ومن أجل هذا كان الحكيم جماع الفضائل^(٤٧) ، وكافة مشاعر ضبط النفس هذه تذكرنا بما دعت إليه البوذية من قبل .

ونأتى إلى الملمح الأخير فى الأخلاق عند الرواقيين ؛ فلقد جاهرُوا بأن الوقوع فى الرذيلة اختياري ، ولقد عزا كريسيبوس Chrysippus (ت ٢٠٧ ق م) هذا الوقوع إلى المحيط الاجتماعى وما يوحى به للإنسان من أحكام خاطئة ومعتقدات باطلة ، وبذلك يكونون قد سبقوا جان جاك روسو فى القول بأن الشر ليس أصيلا فى طبائع البشر كما زعم هوبز وأمثاله ، ومن الممكن فى رأيهم أن يستفادى الإنسان الوقوع فى الشر لو استفتى عقله واستجاب لحكمه ، ومن ثم كان الإنسان مسئولاً عن أفعاله^(٤٨) .

الفضائل والقيم عند أبيقور :

أقام الأبيقورية الأخلاقية على وجدان اللذة كما فعل أسلافهم من القورينائية ، غير أن كثيرين من غير المتخصصين يعتقدون خطأ أن أبيقور إنما هو فيلسوف بوهيمي أى يدعو إلى اللذة . وهو وهم كبير ، فلقد كان إنسانا فاضلا ؛ لقد قرر أبيقور مع سلفه أرسطيوس القورينائي أن اللذة هي الخير الأسمى والألم هو الشر الأقصى ، وليس للفضيلة قيمة في ذاتها ، ولكن قيمتها تستمد من اللذات التي تقترن بها ، غير أن أبيقور رغم هذا كان متزهدا ، فلقد عدل مدلول اللذة وجعله أرحب وأنبل مما كان عند سلفه^(٤٩) .

غير أن أبيقور وإن اعترف أن الإنسان كالحَيوان من حيث أنه يطلب لذته منساقا بفطرته ، وهو أمر لا يمكن الاعتراض عليه طالما أن اللذة بحكم تعريفها من الأمور الفطرية ، غير أن أبيقور عاد فسخر العقل لتهينة الوسائل المؤدية إلى اللذة ، واعتبر أن كل لذة خيرا ما لم تقترن بألم فتصبح من أجل هذا شرا ، بل رأى أن الألم إذا نتجت عنه لذة وجب طلبه [مما يتناقض مع ما سبق] ، فتحول مذهب اللذة عنده إلى مذهب في المنفعة ، ومن أجل هذا توخى اللذة التي تدوم طوال الحياة ، أى أنه دعا إلى الحياة السعيدة ، ومن أجل هذا رأى أن يحرص الإنسان على ألا تستعبده رغبة شخصية أو لذة فردية ، وأوجب عليه أن يسيطر على شهواته ويتحكم في أهوائه^(٥٠) .

أى أن أبيقور لم يسر في طريق اللذة مغمض العينين ، بل طالب تلامذته بتحكيم العقل في أهوائهم ، وطلب اللذات التي تدوم طوال العمر والتي تعم أكبر عدد من الأفراد ، وكما يقول الدكتور توفيق الطويل " بهذا أثر اللذات

(٤٩) الطويل ١٠٩ (٥٠) الطويل ١٠٩

الروحية والعقلية على لذات الحس . . . من أجل هذا وجب أن ننشد طمأنينة العقل ، وأن نذكر أن لذات الحس قصيرة الأمد ، ولذات الروح أبقي وأدوم ^(٥١) .
مما سبق يتبين لنا أن أبيقور لم يكن لذياً بوهيمياً ، ولكنه قيد اللذة بالعقل ، فأعلى من قيمة العقل ، وإن زاد فرفع الصداقة فوق جميع اللذات العقلية ^(٥٢) . بل إننا نستطيع أن نقول أن أبيقور يكاد يكون عدواً للذة فقد صرح " أن الإكثار من المطالب يجعل إشباعها عسير المنال ويسلب الحياة بساطتها ، ويباعد بين الإنسان وسعادته ، ومن هنا جاء ميل أبيقور إلى الزهد ، فجاهر بأن الحكيم الذي يعيش على حاجته من الطعام والشراب يعيش مع زيوس [كبير آلهة اليونان] في نعيم مقيم ، فخير وسائل السعادة عنده البساطة والبشاشة والاعتدال والتعفف ، ومن هنا انتفتت ضرورة الرغبات وإشباعها ، ووجب الابتعاد عن الطموح الذي يلازم الظماً إلى الشهرة ^(٥٣) ، أما عن الإحسان فلقد قررت الأبيقورية أن فعل المعروف في الآخرين أدعى إلى السرور من أن نلتقاء عنهم مما يعنى الاهتمام بفضيلة الكرامة ^(٥٤) .

ونستطيع أن نقول أخيراً أن أبيقور كان مثالاً عالياً للحكيم الأبيقوري الزاهد الورع ، القادر على ضبط شهواته والسيطرة على أهوائه ^(٥٥) .

الفضائل والقيم عند شكاك اليونان :

بعد انهيار المدينة اليونانية ، وبعد انهيار أسوارها على يدي فيليب المقدوني ، وبعد أن بدأ الإسكندر فتوحه وواصلها إلى أن امتدت إلى الصين في أقصى الشرق ، انقلبت حياة اليوناني رأساً على عقب ؛ فبعد أن كان اليوناني يعيش في مدينة لها أسوارها لا يدخلها غريب إلا بتصريح ، فتحت المدن أبوابها

(٥١) الطويل ١٠٩ (٥٢) الطويل ١١٠

(٥٣) الطويل ١١١ - ١١٢ (٥٤) الطويل ١١٢ (٥٥) الطويل ١١٢

للغرباء ، فقد بدأ عهد جديد هو عهد الإمبراطورية اليونانية حيث تلاشت الحدود بين الدول، فلم تتهاو فقط أسوار المدن ، بل تهاوت أيضا أسوار الدول - أى حدودها- لينصهر الجميع فى إمبراطورية واحدة هى الإمبراطورية اليونانية ، فانهارت القيم اليونانية العريقة ، وتدهورت الأخلاق ، وزالت الطمأنينة ، وشعر الإنسان اليونانى بالإغتراب alienation ، وكل ذلك مهدّ لنشأة مدارس الشكّك اليونانية حيث أصبح الشك هو أحد الوسائل لمواجهة ذلك الواقع الأليم^(٥٦) .

توفى أفلاطون وآلت الأكاديمية إلى أركسيلاوس واتجه القائد الجديد بالأكاديمية وجهة شكية ، فسميت من أجل ذلك بالأكاديمية الجديدة ، وكذلك كان موقف كارنيادس Carniades (ت ١١٨ ق م) الذى رفض المعرفة التى تجيء عن طريق الحس أو العقل ، وأنكر وجود مقياس للحقيقة ، غير أنه انتهى إلى نظرية فى الاحتمال والترجيح ، ومع ذلك ، ومع أن كارنيادس ينكر المعرفة اليقينية ، فإنه كان يعتقد أقوى يقين ممكن فى المبادئ الخلقية والحياة الاجتماعية ويعتبر اشباع الدوافع الطبيعية غايةً فى ذاته ، وكان يبيح للفيلسوف - مع اعتناقه مبادئ شكية - أن يعتقد فى مجال الأخلاق وأهدافها بيقين علمى لا خفاء فيه^(٥٦) .

(*) وهو حال يشبه ما يمر به العالم الآن من تحولات بسبب العولمة ، حيث انهارت فى واقع الأمر الحدود السياسية بين الدول ، وسهلت المواصلات ، وتلاشت المسافات فاندمجت الدول فى مدينة واحدة كبيرة ، غير أنه إذا كان المواطن اليونانى القديم قد هرب إلى السعادة أو اللذة أو الشك أو غير ذلك ، فإن مواطن اليوم قد هرب إلى الدين فى الأغلب الأعم ، أو انغمس فى العلم ، أو طلب الثراء ، أو مجرد الجرى وراء لقمة العيش ، وأثر بعضهم الانغماس فى الإباحة . ولكنهم فى جميع الحالات لا بد أن ينغمسوا فى شيء يهربون إليه . إنه عصر الانغماس . ويظل الحال كذلك إلى أن نتعود على العصر الجديد بتحولاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية المعقدة ، بعدئذ يعود سلوكنا طبيعياً مرة أخرى ، ونشفى من حالة الاغتراب التى نعانيها .

أما من ناحية السلوك الشخصي ، فقد كان دعاة الشك القديم - في كل صوره - على خلق حميد ، لا يبيحون لأنفسهم السلوك الشائن باحتمائهم بالشك الذى يساورهم بصدد مبادئ الأخلاق اليقينية وافتقارهم إلى الاقتناع الكامل بحقيقتها أو قيمتها ، بل قصرُوا شكهم على مجال المعرفة ، واستبعدوا الحياة الخلقية والعملية من نطاق الشك ، هذا ما فعله قدماء الشكاك ، بيرونيين تجريبيين ، أو أكاديميين نظريين^(٥٧).

ننتهى الآن من كل ذلك إلى أن اليونانيين كانت لهم فضائلهم وقيمهم ، وكان زيوس الملتحي الوقور رأس النظام الأخلاقى فى العالم ، وكانت رابطة الدين بالأخلاق واهية للغاية ، وإن كانت هناك بعض الروابط مثل مراسم التطهير ، وكانت الآلهة كذلك تُعين على الفضيلة وتغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر وتحمى الغريب وتستجيب لمن يتوسل إليها ، أى أن الآلهة تمارس بعض الفضائل ، كما وُجد الجحيم الذى يُكفّر فيه الناس عن ذنوبهم بعد الحساب .

ورأينا أن الكريتى كان يعطف على موته ، كما كان المحارب اليونانى فى عصر الأخيين يعطف على إخوانه المحاربين ، كما ترى مظاهر الحب واضحة بين الأب وابنه وبين سائر أفراد العائلة ، وكانوا فى هذا العصر شديدي السخاء على الأضياف . كما رأينا فى نهاية هذا العصر كيف بدأ تقديس النفس البشرية فامتنعوا عن تقديمها قربانا للآلهة ، ثم ما لبثت أن انتقلت أفكار النحلة الأورفية إلى اليونان بما تأمر به من تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات وتطهير العقل بدراسة العلم ، والحصول على الخلاص من التناسخ بممارسة الفضيلة .

ومن ممارسة اليونانيين للفضائل أيضا ، فقد رأينا أن أغنياءهم كانوا أسخياء فى عطائهم ، وكانوا يعتزون بالصدقة والعطف على الفقراء ، ورأينا كيف تحدث ديموقريطس عن الضمير وأن من واجب الإنسان أن يشعر بالعار

أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله ، ثم رأينا كيف عملت
أثينا على تحقيق العدالة بين الجميع ، ورأينا كيف احتوى قَسَم أبوقراط على باقة
من القيم كالبر بالمُعَلِّم والرحمة بالمرضى وصيانة أسرارهم ، ثم انتقلنا بعد ذلك
إلى الفلاسفة : سقراط .وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من المدارس ورأينا أنهم
جميعا بحثوا فى السعادة والخير الأقصى والفضيلة ، كما بحثوا فى مصدر الإِزام
الخلقى ، أهو العقل أم اللذة أم السعادة أم الواجب . وأيا كانت آراؤهم فقد بحثوا
المسألة الخلقية بصبر وأناة وجدية ، وكانت لهم المذاهب المختلفة التى مازالت
تتردد أصداؤها إلى يومنا هذا ، بحيث أنه يمكن القول بأن فلاسفة اليونان ، هم
أساتذة التنظير لعلم الأخلاق بحق . كل ذلك حدث بعيدا عن الوحي الإلهى
وبمجهود إنسانى بحت ، ولم تخرج فضائلهم وقيمهم فى أغلبها الأعم عن تلك
التى جاء بها الوحي بعد ذلك ، فيما عدا القسوة والخداع والغدر التى ظهرت عند
اليونان فى عصر الأخيين ثم اختفت فيما تلى من عصور . والآن ننتقل إلى فضائل
الرومان وقيمهم .

الفصل العاشر

الفضائل والقيم لدى الرومان

مقدمة

يبدأ التاريخ الرومانى المكتوب من تسكانيا عام ٨٠٠ ق م. وبطبيعة الحال كان للتوسكانيين دينهم القومى ، وكان فى هذا الدين - مثل كثير من الأديان - كل البواعث التى تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلع التوسكانيون على آلهتهم كل الصفات التى تبعث الرهبة فى القلوب ، وتكبح جماح الفتیان والفتيات ، وتخفف أعباء الآباء والأمهات ، وكان أعظم الآلهة هو (تينا) Tina المتصرف فى السرعد والبرق ، وكانت حوله جماعة من الأرباب يأمرون بأمره ، لاتأخذهم فى ذلك رافة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا حدا جعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ولقد كان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هو (منتوس) Mentos . أما (مين) Mean إلهة الأقدار ، فقد كانت تمسك بيدها سيفاً أو أفعى تلوح بهما وتتسلح بقلم ومداد تستخدمهما فى الكتابة ، وبمطرقة ومسامير تدق بهما أوامرهما التى لا تتحول عنها ، وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت فى صور صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور^(١) . وكانت أهم مظاهر الدين التوسكانى الإيمان بوجود الجحيم فى الدار الآخرة ، فقد كانت روح الميت كما نراها فى الصور والنقوش التى على القبور يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة حيث تتاح لها الفرصة فى يوم الحساب الأخير للدفاع عن أعمالها فى الحياة الدنيا ، فإذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال ، حُكِمَ عليها بضروب مختلفة من التعذيب كما كان فى وسع الأحياء من أصدقاء الموتى أن يُقَصِّرُوا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرابين ، فإذا نجت

(١) ديورانت ١٦/٩



خريطة قديمة للدولة الرومانية

الروح من هذا العذاب ، انتقلت من العالم السفلى إلى صحبة الآلهة الأعين لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التي صورتها آمال الأحياء على القبور^(٢) .

لما كانت الأسرة عند الرومان هي المحور الذي يلتف الدين والأخلاق حوله ، لذلك ينبغي أن نلقى نظرة عليها ؛ فلقد كانت حقوق الأسرة كبيرة إلى حد بعيد ، غير أنه كانت نتيجة لهذه الحقوق " أن قويت وحدة الأسرة ، فكانت هي الأساس الذي قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدبت الرومان تأديبا بعث في أخلاقهم صلابة و قوة ، خير ما توصف به أنها قوة رواقية ، وكانت قوانينهم في حريتها أشد منها صرامة في تطبيقها ، ولما كانوا يطبقون أقسى هذه القوانين ٠٠٠ فلم يكونوا يقفون في سبيل حنان الآباء القوي الطبيعي على أبنائهم ، أو تعظيم الأبناء لأبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور في رومة تبلغ من الرقة ما بلغته في بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن في هذه الأيام"^(٣) .

وفي نطاق هذا المجتمع الذي يضم في داخله وظائف الأسرة والكنيسة والمدرسة والنظم الصناعية والحكومة ، شب الطفل الروماني وترعرع على حب الطاعة والتقوى فكان منه مواطن صلب العود في دولة لا تغلب (سيرانت^{١٢}).

ولقد كانت الأسرة اليونانية رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة ، وبين الأشخاص والآلهة من جهة أخرى ، وكانت هي المركز الذي يلتف حوله اتنين - كما سبق أن ذكرنا- " والخلق والنظام الاقتصادي وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هي المنبع الذي تستمد منه هذه المقومات كلها ، وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر ، وكل مظهر من مظاهر وجودها يرتبط ارتباطا وثيقا جديا بالعالم

(٣) ديورانت ١٢٠/٩

(٢) ديورانت ١٧/٩

الروحي ، فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التي لا تخمد ليست إلامرأ الإلهة (فستا) Vesta ومادتها ، وأنها هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ، ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار وأن يُعنى بها العناية المقدسة " (٤) .

ولقد تطور الأمر بعد ذلك تطورا بعيدا ، فدخل الرومان مع اليونان في حروب طويلة انتهت بانتصار الرومان ، غير أنه يمكن القول أنه إذا كان الرومان هم المنتصرون على اليونان عسكريا ، ولكن اليونان - في واقع الأمر - كانت هي المنتصرة على الرومان حضاريا ودينيا ، إذ لم يلبث الرومان بعد انتصارهم ، أن تأدبوا بأداب اليونان ، وواصل اليونانيون انتصارهم حيث انتقلت أربابهم إلى روما جنبا إلى جنب أرباب الرومان كما يقول ديورانت: " وارتفع جوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس غير زيوس اليونان ، فصار شاهد الإيمان الصارم وحارسها وقاضى الأخلاق الملتحي ، والقيم على القوانين، وإله الآلهة، وهيئت عقول الرومان المتعلمين على مهل لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية " (٥) . وقد انتقلت الرواقية اليونانية بعد ذلك إلى روما على يدى سنيكا الوزير ، وإيكتيتوس العبد وماركوس أوريلوس (٦) .

غير أن الرومان - مع ذلك - كانوا أقل وثنية من اليونانيين في تدينهم " ولم يكن الروماني كما كان الإغريقي يفكر في آلهته كأن لها صورا كصور الأدميين، ولم يكن يسميها إلا مميना Mumina أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة أو الشباب أو الذاكرة أو الحظ أو الشرف أو الخوف أو الفضيلة أو العفاف أو الوفاق (٧) (٥) .

(٤) ديورانت ١٢٢ / ٩ (٥) ديورانت ١٣٠ / ٩ (٦) أميرة ٤٠٣ (٧) ديورانت ١٢٤ / ٩
(*) وهو أمر يدعو على الدهشة ، أن يكون اليونانيون أصحاب الفلسفة والمنطق الصوري وهندسة إقليدس ، وكلها علوم تجريدية أكثر تجسيما ووثنية في دينهم من الرومان الذين لم يكونوا يفقهون شيئا من هذه العلوم .

ولنطلع الآن على بعض فضائل الرومان وقيمهم :

الاحترام والتقوى فى الأسرة :

بعد هذه المقدمة عن الدين عند الرومان ، يحق لنا أن نتساءل: ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ يجيب ديورانت على ذلك قائلاً أنه بالرغم من أن الدين كان يهتم بالطقوس والمراسم ، ما يوحى بأن الآلهة لا تجزى الشخص لصلاحه ، بل لما يقدمه من الهدايا، وما يتلوه من الصيغ ، وهذا فى رأى ديورانت - من بعض النواحي- يبعث على الفساد الخلقى ، ولكن الدين القديم^(٥) مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق، وإلى النظام والقوة فى الفرد والأسرة والدولة، وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل قبل أن يتسرب إليه الشك ويعوده التأديب وأداء الواجب ولطف المعاشرة ، كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمانات ومعونة مقدسة ، فكان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى، وجعل للمولد والوفاء كرامة ومعنى قدسياً خاصاً، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج^(٨).

العفة والطهارة

العفة والطهارة من الفضائل التى اهتمت بها شعوب وجماعات كثيرة خاصة بالنسبة للإناث . يقول ديورانت " ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته ، ظلت خشنة طليقة ، ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة ، وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن"^(٩).

^(٥) أى قبل أن يتأثر الدين الرومانى بالدين اليونانى .
^(٨) ديورانت ١٣٩ / ٩ (٩) ديورانت ١٤١ / ٩

أما عن الدعارة بالذات فيبدو أنها كانت منتشرة عند الرومان كما كانت منتشرة عند اليونان ، ونستطيع أن نقول بدون كثير من المبالغة ، إنها كانت منتشرة لدى كافة الشعوب كثيرة الحروب ، غير أن الرومان كانوا يبررونه بشتى الوسائل ، ومع ذلك كانوا يزدرون العاهرات " ولم تكن العاهرات كثيرات فى روما فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس منزر الأمهات ، وهو شعار الزوجة المحترمة ، وكُنَّ محصورات فى الأركان المظلمة من روما ومن المجتمع الرومانى " (١٠)

الأمانة وعدم الغش :

رغم أن المؤرخ بولسبيوس من اليونان ، ورغم وجود عداة تاريخى بين اليونان والرومان ، ولكن هذا المؤرخ اليونانى يلتزم الحيده مع ذلك حين يصف أخلاق الرجل الرومانى ، فبالرغم من أن الرومان كانوا يحبون المال ، إلا أن بولسبيوس يصفهم حوالى عام ١٦٧ ق ٠ م بأنهم " رجال مجدون شرفاء " ثم يقارن بينهم وبين اليونانيين الذين كثر بينهم الاختلاس ويقول : " أما الرومان فكانوا يتصرفون فى مبالغ طائلة من الأموال العامة ، ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا فى حالات جد نادرة " ، بل إن فضيلة الأمانة كانت هدفا للمجتمع الرومانى قبل ذلك بكثير ، حين اهتمت الدولة بنزاهة الانتخابات فى أوائل عهد الجمهورية فأصدرت قانونا عام ٤٣٢ ق ٠ م لمنع الغش فى الانتخابات (١١) .

البر بالوعد والوفاء والنظام :

يسبدو أن الرومانيين من هذه الناحية كانوا ذوى أخلاق صلبة راسخة ؛ ففى رواية أن هانيبال - القائد القرطاجنى - أرسل بعد معركة (كاتى) عشرة أسرى

(١٠) ديورانت ١٤٢/٩ (١١) ديورانت ١٤٧/٩ - ١٤٨

من الرومانيين إلى روما ليفاوضوها في افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ،
ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه ؛ وفوا كلهم عدا واحدا منهم بما وعده به ،
فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر ، وصفده
بالأغلال ، وأعادوه إلى هانيبال^(١١) ، مما يدل على وجود فضيلة الوفاء والبر
بالوعد لدى الرومانيين والدولة على حد سواء ، ولا يهم أن شذ واحد منهم عن
ذلك .

ومن الفضائل الأخرى للرجل الروماني بالإضافة إلى الوفاء ، أن الروماني
العادي في ذلك العهد ، كان محبا للنظام ، محافظا وفيما ، لا يفرط في الشراب ،
وقورا ، بخيلا ، قاسيا ، عمليا ، وكان يحب النظام ويسر منه ، ولا يستمع إلى
ما يقال عن الحرية عند اليونان ، وكان مطيعا يرى أن الطاعة خير سبيل إلى
اعتياد الأمر والنهي ، وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تثبت من
أخلاقه ، كما تثبت من إيراده ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه من
خدمات^(١٢) . وهي جميعا فضائل وقيم تحلى بها الروماني ، فيما عدا القسوة
والبخل وازدراء الحرية ، وهو شيء مفهوم من مجتمع يعيش دائما في حالة
حرب مستمرة .

العدالة :

اهتم الرومان بالعدالة وتوزيعها على الناس اهتماما كبيرا ، حتى أنهم أنشأوا
ما يعرف حتى الآن بالقانون الروماني ، الذي ما زال يدرس في كليات الحقوق
ربما في جميع أنحاء العالم ، باعتباره مبحثا من أهم المباحث القانونية ، وقد
جعلوه دستورا للحكم . يقول ديورانت عنه : " كان كبار الحكام يهيمنون على
توزيع العدالة في نطاق هذا الدستور الفذ ، تطبيقا للألواح الإثني عشر التي

(١٢) ديورانت ١٤٨/٩ (١٣) ديورانت ١٤٨/٩

سجلتها فيها لجنة العشرة . ولقد كان القانون الروماني قبل هذا التسجيل خليطاً من العادات القبلية ، والمراسيم الملكية والأوامر الكهنوتية^(١٤) .

الفضائل والقيم لدى الرواقيين الرومان

سبق أن قلنا عند حديثنا عن الرواقية عند اليونان ، أن هذا المذهب يوناني الأصل ، ولكنه انتقل إلى روما بعد ذلك على يدى مجموعة من الفلاسفة ، منهم سنيكا وإبكتيتوس العبد وماركوس أوريلوس . ونذكر بوجهة النظر الرواقية فى الفضيلة ، وهى أننا ينبغى أن نعيش وفقا للطبيعة أى وفقا للعقل ، وأن رأس الفضائل الحكمة ، والحكيم هو من يخضع لسنن الوجود كله ، ولقد هاجموا اللذة وأعلوا من شأن الواجب . . . إلخ . والآن لنر كيف تأثر الرومان بهذه الفضائل:

تغليب المحبة بين البشر :

أما عن سنيكا (٤-٦٥ م) فقد ولد بقرطبة ، ثم قديم إلى روما وليس لدينا الكثير عن فضائله ، وقد كان مريبا لنيرون ، ولكنه لم يفلح فى تقويمه منذ أن كان صبيا ، وأهم فضائله أنه غلب المحبة بين البشر ، وترى الدكتورة أميرة مطر أنه ربما كان متأثرا بروحانية معاصره بولس الرسول^(١٤) .

الرحمة فى معاملة المجرمين واحترام الإنسان والتسامح :

أما عن إبكتيتوس Epictetus فقد ولد بأسيا الصغرى وعاش بين عامى ٥٠ -١٣٨ م ، وكان عبدا رقيقا ، ولكن العبيد فى المذهب الرواقى يتساوون مع سائر الناس لأنهم جميعا أبناء الله ، ولقد سبق المسيحية فى التنديد بالامترقاق وتحريم عقوبة الإعدام ، والتبشير بمعاملة المجرمين على أنهم مرضى يفتقرون إلى العلاج ولا يؤتمون بالعقاب ، وغير هذا مما نادى به الرواقية والكلية معا وكان

إبيكتيتوس يطالب الإنسان بأن يحاسب نفسه كل يوم وأن يرد الإساءة بالإحسان
(١٦)

ومن فضائل إبيكتيتوس ما يروى عنه أنه كان يقول : " لو طلب منى طاغية أن أفشى سرا ، وهددنى بأن يقيدنى بالأصفاد ، قلت له إنك تقيد ساقى ، ولا يمكنك أن تمس إرادتى بسوء ، وإذا أرسلتني إلى السجن أمكنك أن تتحكم فى جسدى دون أن تمتد قدرتك إلى نفسى . . . وكان يقول كذلك : إن الجندى ليقسم أن لا يحترم أحدا غير قيصر أما نحن [أى الرواقيين] فإننا نحترم أنفسنا قبل كل شيء " (١٧) .

حب السلام والأخوة بين البشر :

أما ماركوس أوريلوس فقد ولد بروما عام (١٢١ - ١٨٠ م) وتبناه الإمبراطور أنطونيوس ، وصار إمبراطورا بعده ، وكان يكره الحروب ويعتقد فى أخوة البشر واتصال الألوهية بالعالم والبشر^(١٨) . وكان بعاطفته الدينية الأكثر عمقا من الرواقيين الآخرين ، يشعر بالصلة الطبيعية التى تربط الإنسان مع الكون فى وحدة عضوية ، وأن عناية مطلقة الخير قد وضعت فى الإنسان رقبيا إلهيا وهو العقل ، ففى استطاعته إذن عن طريق تحقيقه لتلك الماهية الأخلاقية دون أن يشوبها شيء خارجى ، أن يوحد بين نفسه وبين الغاية العاقلة للكون ، وهذا هو واجب الإنسان الفعال نحو نفسه باعتباره مواطنا فى ملكوت الله^(١٩) .

(١٦) أميرة ٤٠٤ والطويل ٩٧ (١٧) الطويل ٩٨ (١٨) أميرة ٤٠٤ (١٩) الموسوعة ، مادة ماركوس أوريلوس

انتهينا من الحديث عن الفضائل والقيم عند الرومان ، ورأينا أن الأسرة هي المحور الذى يلتقى الدين والأخلاق حوله ، وأن هذه الأسرة بعثت فى الرومان قوة و صلابة ، غير أن هذه الصلابة لم تمنع الحنان بين الآباء والأبناء ، رأينا أن الآلهة عندهم كانت عبارة عن معنويات مجردة ، وأن بعضها كان رمزا للشرف أو الفضيلة أو العفاف ، وكل ذلك من الفضائل إلى جانب بعض الرموز الأخرى ، وأن الدين القديم - قبل مجيء الدين اليونانى - كان يدعو إلى فضائل الأخلاق ، وأنه كان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ، كما رأينا أن المجتمع الرومانى كان يطلب من الفتيات المحافظة على بكرتهن قبل الزواج ، وأنه رغم وجود الدعارة ، فإن العاهرات كُنَّ محتقرات من المجتمع .

أما عن الأمانة والنزاهة والبر بالوعد فقد شهد أحد المؤرخين اليونان بأنهم رجال مجدون شرفاء ، وبأنهم لا يمسون المال العام ، وأن هذه الفضائل كانت هدفا للمجتمع الرومانى حين اهتمت الدولة بنزاهة الانتخابات ، وهو ما تفتقده كثير من المجتمعات الحالية ، ولقد رأينا أن الرومانيين كانوا - من ناحية البر بالوعد - ذوى أخلاق صلبة ، حتى أنهم أعادوا الأسير الهارب إلى أعدائهم مصفدا بالأغلال لأنه لم يبر بوعدده .

وأما عن اهتمامهم بالعدالة ، فيكفى أنهم أصحاب القانون الرومانى الشهير الذى ما زال حتى اليوم يدرس فى معظم المعاهد القانونية فى العالم ، إن لم يكن فيها جميعا ، باعتباره مبحثا قانونيا هاما . ولقد رأينا أيضا أن القيم الرواقية قد انتقلت من اليونان إلى روما عبر بعض الفلاسفة الرواقيين الذين انتقلوا إلى روما ودعوا إلى القيم والفضائل الرواقية ، وأن بعض هذه القيم كانت سبابة فى رفضها للرق رفضا صريحا وكذا رفض عقوبة الإعدام ، ومطالبتهم معاملتهم المجرم على أنه مريض ، وهو ما ذهبت إليه كثير من النظريات الاجتماعية

والنفسية المعاصرة . وكافة هذه الفضائل والقيم ، كان الرومان يمارسونها بعيدا عن مكان نزول الوحي ، بل إن بعض هذه الفضائل والقيم قد مهدت فعلا لانتشار المسيحية في أوروبا ، إذ أنها لم تختلف عن تلك التي جاءت بالوحي . على أننا نحترز من الرواقية في روما ، فقد تكون حقا متأثرة بالمسيحية التي كانت معاصرة لها ، خاصة أن الفضائل التي بشرت بها كالتسامح ومحبة البشر ورد الإساءة بالإحسان ، لم تكن من مبادئ الرواقية الأولى التي جاءت قبل المسيحية، في حين أنها من صلب الديانة المسيحية التي جاءت بعد الرواقية الأولى .
وأخيرا ننتقل إلى فضائل العرب وقيمهم في عصرهم قبل الإسلام .

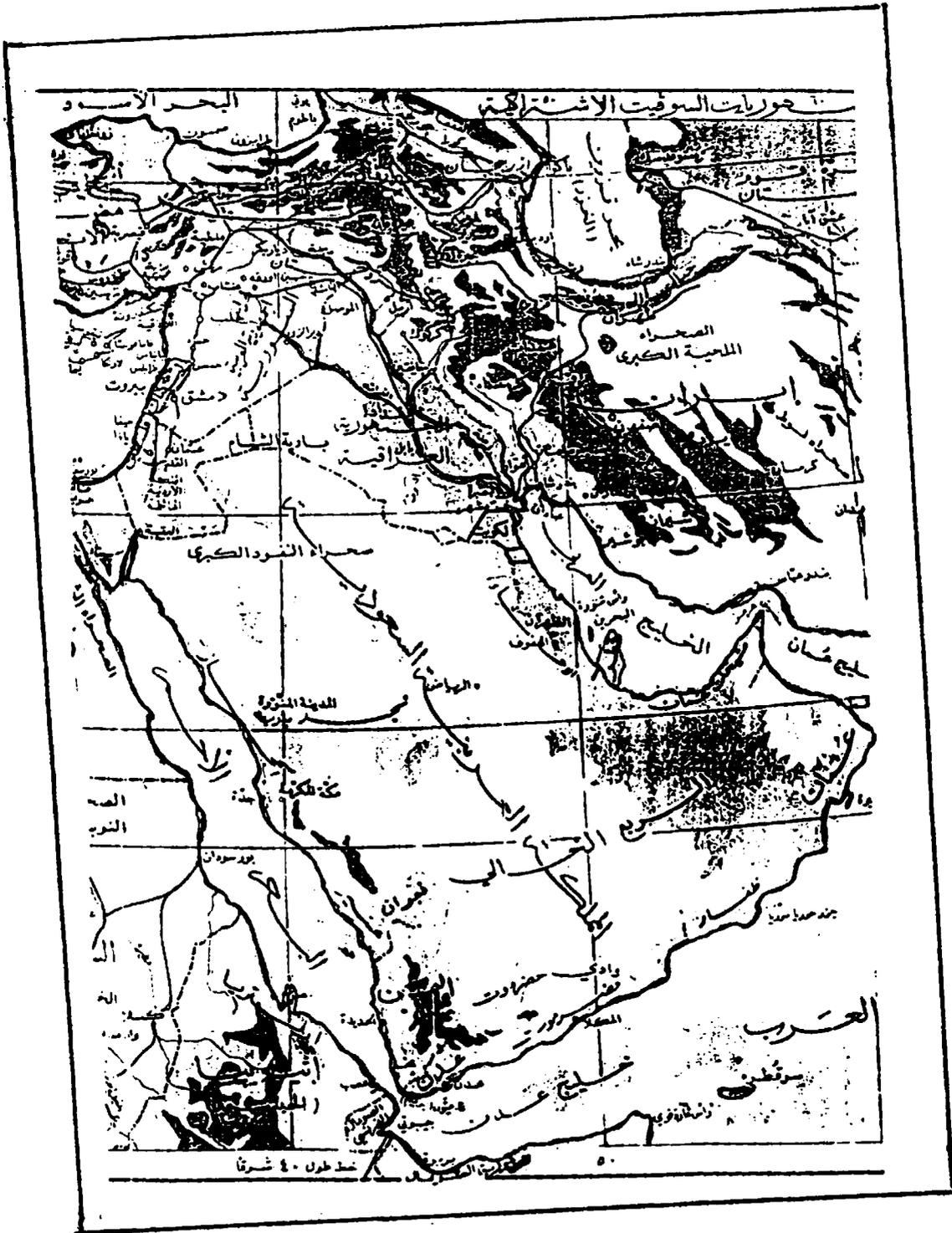
الفصل الحادى عشر الفضائل والقيم لدى العرب

مقدمة :

رغم التأثير الكبير للعرب على العالم القديم ، بما قدموه من حضارة اسلامية رفيعة ، وفكر اسلامى خصيب ، إلا أن تاريخهم قبل الإسلام ، يكاد يكون مجهولا ، اللهم إلا فى المائتى سنة الأخيرة قبل ظهور الإسلام " إذ أن أخبار العرب فى الجاهلية ، التى وصلت إلينا فى المدونات التاريخية لا تعدو أن تكون أخبارا مضطربة ، تختلط فيها الحقائق التاريخية بالروايات الخرافية ، ويسودها بوجه عام الطابع الأسطورى والعنصر القصصى" (١) .

وشبه جزيرة العرب- أو جزيرة العرب كما يقال عادة- هى مهد الجنس السامى ومرباه ، فمن هذا الصُّقَّع الجذب حيث ينمو الإنسان شديدا عنيفا ، وحيث لا يكاد ينمو نبات على الإطلاق ، تدفقت موجة فى إثر موجة فى هجرات متتابة من خلائق أقوىاء شديدي البأس ، لا يهابون الردى ، بعد أن وجدوا أن الصحراء والواحات لا تكفيهم ، فكانوا لابد أن يفتحوا بسواعدهم مكانا خصبا ظليلا يعولهم ويقوم بأودهم (٢) . أما من بقى من العرب فى بلادهم ، فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو وأنشأوا الأسرة الأبوية بما تتطلبه من طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة المضنية والشجاعة العمياء التى تدفع أصحابها إلى وأدبناتهم وتقديمهن قربانا للآلهة . على أن الدين- كما يرى ديورانت- لم يكن أمرا جديا بين هؤلاء الأقسام حتى جاءهم محمد (ص) بالإسلام (٣) .

(١) سالم ٥ (٢) ديورانت ٣٠٩/٢ (٣) ديورانت ٣٠٩/٢



خريطة حديثة للجزيرة العربية

هناك مشكلتان بالنسبة لموضوع الدراسة ، يحسن أن نشرك القارئ معنا في الوصول إلى حل لهما :

الأولى : عدم وجود مجتمع متجانس في شبه الجزيرة العربية التي تتسع لتساعا عظيما ، فالقحطانيون (اليمينيون) في الجنوب ، والنزاريون في الشمال ، ولكل لغته^(٤) . وسوف نختار دراسة أهل الشمال وهم أهل الحجاز ونجد وكافة المناطق الناطقة باللغة العربية أيا كانت لهجتها، لوجود مدونات مسجلة لدينا بهذه اللغة .

الثانية : ما هي المصادر التي نحصل منها على فضائل العرب وقيمهم ، في الوقت الذي لا يوجد فيه تاريخ أو وثائق مكتوبة عن حياة العرب قبل الإسلام إلا النذر اليسير ؟ سوف نعتمد على هذا النذر اليسير ، ولكن ماهي المظان التي يمكن أن نخبرنا عن فضائل العرب وقيمهم ؟

إن أول هذه المظان وأخطرها هو الدين ، إذ أن الدين عادة ما يكون مرتبطا بالفضائل والقيم برباط وثيق ، فهل كان للعرب دين معروف ؟

لم يكن العرب في الواقع يدينون بدين واحد ، بل كانوا يعتقدون معتقدات عديدة ؛ فقد انتشرت اليهودية في بعض اليمن ويثرب وخيبر ، وكانت لهم قبائل ذات أسماء عربية معروفة ، مثل بنى النضير وبنى القينقاع وبنى قريظة ، كما انتشرت المسيحية في شمال اليمن عند عرب نجران ، وكان الغساسنة في الشمال واللخميون في الشمال الشرقي جميعا يدينون بالمسيحية . ويقول أليرى " إننا نستطيع أن نقول إن التأثير النسطوري قد نفذ إلى العرب كلهم ، هذا فضلا عن أن الإرساليات النسطورية قد تغلغلت في الجزيرة العربية "^(٥) . غير أن هناك رأيا آخر لبروكلمان يرى فيه " أن من العرب من اعتقد قبل الإسلام بإله هو خالق الكون ، هذا الإله هو (الله) الذي لم ينقل العرب فكرته عن اليهود

(٤) أمين ٥ (٥) الشحات ١٠٣

والنصارى كما يظن كثير من الباحثين^(٦) ، غير أن بروكلمان لم يبين لنا مصدر هذا الإيمان . ثم ينتهى الدكتور الشحات زغلول إلى رأى تؤيده كافة الشراهد التاريخية إبان ظهور الإسلام حيث يقول " والواقع أن العرب كانوا على دين إبراهيم ، ثم غير عمرو بن لحي هذا الدين وبعثهم على عبادة الأصنام التى جلبها من الشام والتى صنعها لهم "^(٧) ، ولقد سبق الشهرستانى فى الملل والنحل إلى رأى مماثل لهذا^(٨) . وسوف نأخذ بهذا الرأى وهو أن العرب - فيما عدا المسيحيين واليهود منهم - كانوا يدينون بدين إبراهيم ثم هجروه إلى عبادة الأوثان وأصبح لهم دين آخر صنعوه بأيديهم . ونستنتج أنه كان دينا بسيطا سانجا لم يتغلغل داخل نفوسهم حتى أنه لم ينعكس على حياتهم الأدبية ، كما هو معروف . على أنه فى جميع الحالات وحتى بالنسبة لتباين العقائد فى جزيرة العرب ، تلك العقائد التى لا تكاد تظهر فى آدابهم من شعر وقصص وأمثال ، فإننا نستطيع أن نطمئن إلى سيادة أخلاق معينة بين العرب جميعا على اختلاف عقائدهم أيا كانت ، فقد كانت الحياة قاسية جدا - كما سبق أن ذكرنا - كآى صحراء جرداء قليلة المطر كثيرة الرياح والعواصف ، شديدة الحرارة فى الصيف وشديدة البرودة فى الشتاء ، وأن هذا كله لم يسمح بالاستقرار ، فهذه الخصائص المناخية والإقليمية - كما يقول الدكتور محمد زكى العشماوى " هى التى وجهت حياة العربى وحددت ملامح مجتمعه وما يسوده من قيم ، وهى التى فرضت عليه ألوانا معينة من الحياة "^(٩) . أى أن العرب جميعا قد انصهروا - قبل الإسلام - فى بوتقة واحدة بحيث يمكن اعتبارهم مجتمعا متجانسا من الناحية

(٦) الشحات ١٠٦ (٧) الشحات ١٠٧ - ١٠٨ (٨) الشهرستانى ٣٨٧
(٩) العشماوى [أ] ١٢٧

الأخلاقية ، ونستطيع أيضا أن نطمئن إلى أن العقائد عند العرب لن تكون مصدرا لفضائلهم وقيمهم لغلبة طبيعة الحياة القاسية على الدين .

نأتى الآن إلى المظن الثانى للفضائل والقيم ، وهو القصص ؛ غير أن

القصص هو موضع شك حيث يحذرنا الدكتور شوقى ضيف قائلا " يتبغى أن لا نعلق أهمية تاريخية أو أدبية على هذه القصص ، فإن الرواة قد حرفوا فيه كثيرا قبل أن يأخذ شكله النهائى عند أبى عبيدة " (١٠) .

نأتى الآن إلى المظن الثالث وهو الخطابة ؛ وهذه أيضا لن تركز إليها حيث أن أكثر ما يروى من الخطابة فى الجاهلية لا يصح الاطمئنان إليه من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته كما يقول الدكتور شوقى ضيف (١١) .

نأتى إلى المظن الرابع ، وهو الأمثال (والحكم) ، وهذه سوف نعتد عليها كمصدر للفضائل والقيم ، فالأمثال تحافظ على نصها بطبيعتها ، فالمثل كما يقول الدكتور شوقى ضيف " لا يتغير بل يجرى كما جاء على الألسنة وإن خالف قواعد النحو وقواعد التصريف " (١٢) .

وأخيرا نأتى إلى المظن الأخير ، وهو الشعر ؛ ونحن نظن أيضا أن الشعر يحافظ مثل الأمثال بل ربما أكثر منها على نصه لما فيه من إيقاع ، ومعانى لا توجد إلا فى ألفاظ بالذات ، ولذلك سوف نعتد على الشعر الجاهلى مصدرا رئيسيا لفضائل العرب وقيمهم خاصة أنه واسع الأفق والمساحة فى عرض حياة العرب .

(١٠) ضيف ١٦ (١١) ضيف ٣٤ (١٢) ضيف ٢١

أولا : الأمثال والحكم

الأمثال والحكم متقاربان ، غير أن الأمثال تُضرب في موقف مشابه للمثل ، أما الحكمة فتطلق في موقف ما لتحث على سلوك معين أو النهي عن سلوك آخر، وكلاهما بناء لغوي صغير الحجم ، يُحفظ كما هو ، غير أن الأمثال والحكم يشتركان في شيء واحد وهو الاعتبار والموعظة ، ولذا فإن أيا منهما قد يُستخدم في موضع الآخر . وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضربها في شئون حياتهم يقول الجاحظ " كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعا ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع " (ضيف ٢٢) .
وفيما يلي عرض لبعض فضائل العرب وقيمهم مستنبطة من أمثالهم وحكمهم :

عناية الأخ بأخيه وإيثاره على نفسه :

من فضائل الجاهليين أن العربي كان يعتنى بأخيه [أى بصاحبه] ويفضله على نفسه . قال أبو عبيد القاسمى ، قال الأصمعى ، من أمثالهم فى هذا قولهم (لك ما أبكى ، ولا عبرة بى) يضرب للرجل يشتد اهتمامه بشأن أخيه^(١٣) .
ومعنى المثل أن الأخ أو الصديق يمكنه أن يأخذ ما أحرص عليه إلى درجة البكاء ، وليس عليه أن يهتم بى .
ومن الإيثار أيضا قولهم :

(هذا جنائى وخياره فيه إذ كل جانٍ يده إلى فيه)

يقول أبو عبيد الخزاعى ، أخبرنى ابن الكلبي ، أن هذا المثل لعمر بن عدى ابن اخت جذيمة الأبرش ، وكان جذيمة قد نزل منزلا وأمر الناس أن يجنوا له الكمأة،

وكان بعضهم إذا وجد شيئا يعجبه فربما أثر نفسه على جذيمة ، وكان عمرو بن عدى يأتيه بخير ما يجد ، فعندها يقول عمرو هذا البيت^(١٤) ، ومعنى المثل أن هذا هو ما جنيته بيدي وأفضل شيء تجده فيه ، وأنا أعطيه لك رغم أن غيري يسارع به إلى فمه . ولا شك أن المناسبة التي قيل فيها المثل ، تؤدي دورا هاما في فهمه .

التسامح مع الآخر :

في اشفاق الرجل على أخيه ، ومحاذرتة لمكروهه ، قول أكنم ابن صيفى :
(من جمل لنفسه من حُسنِ الظنِ بإخوانه نصيبا ، أراح قلبه) ، يعنى أن الرجل إذا رأى من أخيه إعراضا أو تغييرا فحمله فيه على جميل ، وطلب له المخارج والعدر ، خفف ذلك عن قلبه ، وقل منه غيظه واغتمامه^(١٥) ، فلا ينبغي أن يظن به الظنون ، بل عليه أن يتسامح ويلتمس له الأعذار ، وهو إلى جانب هذه الفضيلة ، أى التسامح ، سوف يريح نفسه ، ويبعد عن قلبه الشك وسوء الظن فى صاحبه .

نقاء الضمير والقول الجميل :

من حكم وأمثال العربى الجاهلى قوله (إنما يعيش المرء بأصغريه) يعنى بقلبه ولسانه ، وقائل هذه الحكمة هو غلّمة ابن ضمرة ، فلما أعجب الملك المنذر بكلامه سماه ضمرة ابن ضمرة^(١٦) . فهذه الحكمة تحث الإنسان على نقاء القلب ويكاد القدماء جميعا من شعوب شتى ، يقصدون "بالقلب" الضمير . فلكى يطيب العيش للإنسان لابد أن يتوسل لذلك بقلبه أى ضميره ، وبجميل القول من لسانه .

(١٦) الضبى ٩

(١٥) الخزاعى ١١

(١٤) الخزاعى ٢

إنجاز الوعد :

(أنجز حرًا ما وعد) ، يقال هذا المثل لكل من وعد وعدا لتذكيره به وحثه على تنفيذ ما وعد به ، ولقد ربط الحكيم إنجاز الوعد بصفات الرجل الحر . وكما يحكى الضبي ، كان مربع بن مالك بن حنظلة في الجاهلية في زمان صخر بن نهشل بن دارم لصخر ، فقال له الحارث بن صخر بن آكل الميرار الكندي : هل أدلك يا صخر على غنيمة ، على أن لي خمسها ، فقال له صخر : نعم ، فذله على ناس من أهل اليمن ، فأغار عليهم صخر بقومه وغنموا وملأوا يديه من الغنائم و أيدى أصحابه ، فلما انصرف قال له الحارث (أنجز حر ما وعد)^(١٧) .

العفة والكرامة :

ومن فضائل العربي الجاهلي العفة والكرامة ؛ فأطلقوا هذا المثل (تجوع الخُرّة ولا تأكل بثديها) . إن المرأة العفيفة الطاهرة ، حتى وإن جاعت وضاق بها الحال ، لا تفرط أبدا في شرفها ، وتفضل الموت جوعا على ارتكاب الرذيلة .^(١٨)

ومن ذلك قولهم (الحرُّ حرٌّ وإن مسه الضرُّ) . أي أن الإنسان الحر الكريم ، يظل كذلك ويحافظ على كرامته ، فمهما حدث له من مكاره ، وما تعرض له من أزمات وأضرار ، فإنه لا يفرط أبدا في كرامته ، ويظل محافظا عليها^(١٩) .

ومن ذلك أيضا قولهم (المنيةُ ولا الدنيا) ، فالعربي الجاهلي يفضل الموت على أن يسلك سلوكا دنيئا يشينه فيما بعد حتى ولو كان في ذلك نجاته من المأزق الذي يعانيه^(٢٠) . وكل ذلك يعنى أن العربي الجاهلي كان على وعى تام بفضيلتي العفة والكرامة .

(١٧) الضبي ١٧ (١٨) ضيف ٢٢ (١٩) ضيف ٢٢ (٢٠) ضيف ٢٦

العدل :

وكان العربي الجاهلي على وعى أيضا بفضيلة " العدل " ، قد يمارسه في حياته العادية ، ولذلك نصح أكثم بن صيفى أخاه العربي بأن يترىث في حكمه على الأمور وقال : (ليس من العدل سرعة العدل)^(٢١) ، إذ من المعروف أن الإنسان المتسرع في حكمه ، يكون عرضة دائما للوقوع في الخطأ ، فلا يتحقق العدل المنشود .

ولقد حث أكثم بن صيفى أيضا على تطبيق العدالة على الجميع فقال (لو أنصيف المظلوم ، لما بقى فينا ملوم)^(٢٢) ، فلو أخذ كل مظلوم حقه ، فلن يكون هناك من يوجه إليه اللوم .

ثانيا : الشعر الجاهلى

قلنا فى المقدمة أن الشعر الجاهلى سوف يكون من المصادر التى يُطمأن إليها للحصول على الفضائل والقيم عند العرب القدماء ، وذلك لسهولة المحافظة عليه لما فيه من إيقاع ووزن تجعله سهل الحفظ ، وما يزخر به من عاطفة تجعله كثير الدوران على الألسنة فيصل إلينا سليما إلى حد كبير . والآن لئر ما فى هذا الشعر من فضائل وقيم :

الشجاعة والبطولة :

لعل الشجاعة والبطولة والحماس بوجه عام ، تكون من أبرز الفضائل والقيم لدى المجتمعات الصحراوية بعامة ، فلقد كان العربى القديم يفتخر ببطولته وشجاعته فى كل مناحى الحياة . فهذا طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى يتحدث عن نفسه وبطولته ويقول أنه رجل ضَرْبٌ [أى نحيف دليلا على خفة الحركة] ، الجميع يعرفونه بسرعته وحسمه ، فهو فى خطورته مثل رأس الحية الملتهب بما يحويه من سم ناقع ، وإذا حمل قومه السلاح لغزو أو حرب ، وجدته منيعا قويا لا بترك السيف من يده أبدا:

خشاشٌ كِراسِ الحيةِ المتوقدِ	أنا الرجلُ الضَرْبُ الذى تعرفونه
لعضبِ رقيقِ الشفرتين مهتدِ	فأليت لا ينفكُ كسحى بطانةً
كفى العود منه البدء ليس بمعضدِ	حسامٍ إذا ما قمتُ منتصرا به
إذا قيل مهلا قال حاجزه قدى	أخى ثقة لا ينثنى عن ضريبةِ

إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتنى منيعا إذا بات بقائمه يدى^(٢٣)

وهذا النابغة يصف إحدى معارك أصدقائه الغساسنة ، وهم محاربون شجعان ، لدرجة أن الطيور الجارحة تعرف أصحابه وتنتظر معاركهم حتى تحصل على فرائسها من لحوم ضحاياهم ، وهؤلاء الفرسان يأتون على جياد صابرات ، بهن الكلوم اليابسة وغير اليابسة ، فإن ضاق الموضع على الدابة نزل عنها راكبها للطعن وأسرع إلى مقصده يحتضن الموت فرحا ، بل إنهم يتساقون كنوسه فرحين جذلين كما يتساقى الشرب الكنوس فى رغد ودعة من العيش ، وهم يضربون بمضاربهم الرقيقة [أى بسيوفهم] رؤوس القوم ، فيطير عنها عظامها الرقيق ويتفرق هنا وهناك ، والعيب الوحيد لهؤلاء الفرسان كثرة ما تشقق من سيوفهم من كثرة المعارك وكثرة ما أصابوا من قتل وأحرزوا من نصر^(٢٤) ، ولننظر فى هذه الأبيات :

عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ	إذا ما غزوا فى الجيش حلق فوقهم
من الضارباتِ بالدماءِ الدواربِ	يصاحبهم حتى يغرن مغارهم
إذا ما التقى الجمعان أول غالبِ	جوانح قد أيقنن أن قبيله
إذا عرُضَ الخطى فوق الكواثبِ	لهن عليه عادة قد عرفنها
بهن كلوم بين دامٍ وغالبِ	على عارفات للطعان عوابثِ
إلى الموتِ إرقالَ الجمالِ المصاعبِ	إذا استنزِلوا عنهن للطعن أرقلوا
بأيديهم بيضُ رقاقِ المضاربِ	فهم يتساقون المنية بينهم
ويتبعها منهم فراشُ الحواجبِ	يطير قضاضاها بينها كل قونسِ
بهن فلول من قراعِ الكتائبِ ^(٢٥)	ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

(٢٣) العشماوى [أ] ١٣٣

(٢٤) العشماوى [ب] ٣٢ (٢٥) العشماوى [ب] ٣٢-٣٣

غير أن العربي الجاهلى لم يكن يتحلى بفضيلة الشجاعة من أجل الحرب ومعاركها فقط ، بل كان يتخذها وسيلة أيضا للفوز بقلب حبيبته . فنحن نجد فى بعض من المعلقات أبياتا تصور هذه الشجاعة . ففى معلقة امرئ القيس المشهورة يقول فيها :

وبيضة خدر لايرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا على حراسا لو يسرون مقتلى

فانظر إلى التباهى بالقوة وإلى الاعتداد بالنفس ، وإلى اقتحام المخاطر ، فها أنت ترى أن امرأ القيس لا يزور حبيبته أو عشيقته ، وإنما هو يفتحم الحصون والأسوار ، وكأنه يخوض معركة ، فعلى الرغم من هؤلاء الحراس الذين يحيطون ببيت صاحبتة ، والذين هم أشد ما يكونون حرصا على قتله والفتك به ، تراه قادرا على أن يشق طريقه من بين صفوفهم ، لأنهم وهم جماعة مسلحون ، أضعف من أن ينالوه^(٢٦) .

الكرم والشهامة والإحسان :

والكرم والشهامة أيضا من فضائل المجتمعات الصحراوية ، إذ لا تستقيم الحياة فى الصحراء بدون هاتين الفضيلتين . وهاتان الفضيلتان متضايفتان ، إذ أن كلا منهما عطاء ، بل إن فيهما - كما يرى الدكتور العشماوى - من البطولة والفروسية ، ما لا يقل عن معانى الاستبسال فى القتال والذود عن الجياض . يقول الشاعر الجاهلى متنافرا :

تُعَيِّرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدَاؤُنَا فَعَلَّتْ لَهَا إِنْ الْكِرَامَ قَلِيلُ
وَمَا قَلَّ مِنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلُنَا شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعَلَا وَكُهُولُ

(٢٦) العشماوى [أ] ١٣٠-١٣١

وما ضررنا أنا قليل وجارنا عزيزٌ وجار الأكثرين ذليلٌ^(٢٧)
فهم رغم قلة عددهم ، فإن جارهم عزيز بهم لأنهم يبذلون له العون والحماية ،
أما " الأكثرين " الذين يعيرونهم بكثرة عددهم ، فإن جار هؤلاء الأكثرين ذليل
لبخلهم وعدم إجاتهم له .

ومن صور الكرم والتفاخر ببذل العون ، وهو نوع من الشهامة ، ما يفخر
به لبيد ، فها هم الجيران والأضياف والغرباء وذوو الحاجة من المساكين
والضعفاء ، يأتون إلى داره حيث يجدون جفانا كثيرة ممتدة ومملوأة بالمرق
والثريد ، ومكسلة بقطع من اللحم تقدم للفقراء إذا ما تقابلت الرياح وتناوحت
واشتد البرد والصقيع . ومن شهامة لبيد وكرمه أنه لا ينحر أحط الذبائح ، بل لا
يدخر وسعا في اختيار أكرمها وأنفسها ، ثم هو يفخر بأن ما ينحره هو من حر
ماله وليس من مال غيره . فلنستمع إلى لبيد :

وجزورٍ أيسارٍ دعوتٍ لحنفها	بمغالقٍ متشابهٍ أجسامها
أدعو بهن لعاقِرٍ أو مطفلٍ	بذلت لجميع الجيران لحامها
فالضيفُ والجارُ الجنيبُ كأنما	هبطاً تباله مخصبا أمضامها
ويكَلِّون إذا الرياحُ تناوحت	خَلْجاً تَمُدُّ شوارعا أيتامها ^(٢٨)

وها هو لبيد مرة أخرى ، يفخر أمام حبيبتة بالليالي التي يقضيها مع أقرانه ،
وكيف أنه يحقق لندمائه ما لم يحققه أحد ، فكم من خمرة عزيزة غلا ثمنها
وعزت على شارببيها ولكنها طوع يديه ، يقدمها لندمائه في كرم وسخاء :

أولم تكن تدرى نوارُ باننى	وصالٌ عقد حبالٍ جذامها
ترآك أمكنة إذا لم أرضها	أو يعتلق بعض النفوس حمامها

(٢٨) العشماوى [أ] ١٨٥-١٨٦

(٢٧) العشماوى [أ] ١٣٥

بل أنت لا تدرين كم من ليلة
قد بتُ سامرها وغاية تاجر
أغلى السبَاء بكل أدكن عاتق
بصبوح صافية وجذب كرينة
بادرت حاجتها الدجاج بسحرة
وغداة ريح قد وزعت وقرة
طلق لذيذ لهوها وندامها
وافيت إذ رفعت وعز ختامها
أو جونة قدحت وفض ختامها
بموتر تآتاله إبهامها
لأعل منها حين هبت نيامها
قد أصبحت بيد الشمال زمامها

ففى الأبيات السابقة - بالإضافة إلى وصف الخمر - تصوير للكرم والجود ، ولكنه تصوير لا يقف عند مجرد ما يبذله الشاعر لأصدقائه من كرم الضيافة ، وإنما هو الكرم الذى يمتزج بالشهامة والبطولة والتضحية بكل غالٍ ورخيص حتى أن القارئ ليحس من خلال كلمات الشاعر أنه لو كان هناك شيء آخر يمكن أن يقدمه الشاعر لضيفانه غير الخمر ونحر الإبل ومد الموائد للفقراء غداة هبوب رياح الشمال واشتداد الصقيع ، قدمه عن طيب خاطر ، وبكثير من الزهو والفخار (٢٩) .

الأمانة والعفة والشجاعة :

كان العربى الجاهلى حساسا جدا بالنسبة للأمانة ، ويجزع حين يوصف بقلة الأمانة ، لذلك فقد جزع النابغة الذبياني لما ظن النعمان بن المنذر أن النابغة قد خان صداقته ، فيعاتبه النابغة لتصديقه شخصا شريرا يكره النابغة ، وتركه له يرتع بجريمته ويعاقبه هو رغم أمانته :

لكلفتنى ذنب امرئ وتركته
كذى العرّ يكوى غيره وهو راتع

ثم يقول بعد ذلك تأكيدا لأمانته :

أتوعد عبدا لم يخنك أمانةً وتترك عبدا ظالما وهو ظالمٌ^(٣٠)

وها هي العفة تمتزج بالشجاعة عند عنتره ، فإن من شهد الحرب سوف يخبرك بأن عنتره لا يهاب الموت ويحارب شجاعة ، فهو مدجج بالسلاح ، يكره الفرسان الشجعان منازلته ، فهو لا يهرب أبدا ، ولا يستسلم لعدوه ، بل إنه يعاجل واحدا بطعنة من سيفٍ مُتَقَفٍ ، ويشق برمحه ثياب الآخر مهما كان من شجعان الفرسان ، وهو بعد ذلك يترك عدوه للسباع تنهش جسده ، وهو رغم كل ذلك فإنه بعد أن ينتصر في المعركة ، يَعِفُّ عن نصيبه من الغنيمة ويتركه لغيره:

أغشى الوغى وأعفُ عند المغنم	يخبرك من شهدَ الوقعةً أننى
لا ممعنٍ هربا ولا مستسلم	ومدججٍ كره الكماة نزاله
بمتقفٍ صدقِ الكعوبِ مقوم	جادت له كفى بعاجلٍ طعنةٍ
ليس الكريمُ على القنا بمحرّم	فشككتُ بالرمحِ الأصمَّ ثيابه
يقضمن حسن البنانِ والمعصم	فتركته جزرَ السباع ينشنه
أبدى نواجزه لغير تبسم	لما رأتى نزلت أريده
خُضِبَ البنانُ ورأسه بالعظم	عهدى به مدَّ النهارِ وكأنما
بمهندٍ صافى الحديدِ مخزّم ^(٣١)	فطعنته بالرمحِ ثم علوته

العدل والوفاء والخلق الفاضل :

ولقد أدرك العربى الجاهلى فضيلتى العدل والوفاء ؛ فمن قصة النابغة والنعمان والوقعة بينهما ، يتبين أن النابغة كان يؤمن بالمثل الأخلاقية ، وأن فضائل الناس لا تضيع ، وهنا يعود النابغة للخالق فيؤمن به وبعده :

(٣٠) العشماوى [ب] ٩٦ (٣١) العشماوى [أ] ١٣٣

أبى الله إلا عدله ووفاءه فلا النكر معروف ولا العرف ضائع

فالنابغة هنا على إدراك لفضيلتى العدل والوفاء^(٣٢).

ولقد حث زهير بن أبى سلمى على الخلق الفاضل ، فالخلق الرديء سوف يظهر للجميع وإن حاولت إخفائه ، فأنت تعجب بالإنسان صامتاً ، ولكنه إذا تكلم ، بانث لك فطنته أو حمقه ، فلا بد من التخلق بالخلق الطيب ، ولتعلم أن خلقك قسمة بين لسانك وقلبك ، وكان القدماء - كما رأينا مراراً فى ثقافات عديدة - حين يقولون "القلب" أو "الفؤاد" فإنهم يعنون الضمير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة	وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب	زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده	فلم يبق إلا صورة اللحم والدم ^(٣٣)

العفو والحلم :

من الطبيعى أن تتضاميف هاتان الفضيلتان ؛ ولقد كان الشاعر العربى الجاهلى على إدراك لهما ، فها هو النابغة الذبياني يطلب من صديقه النعمان بن المنذر أن يكون حليماً معه ويعفو عنه ، فالإنسان ينبغى ألا يحاسب صديقه على كل هفوة يرتكبها ، بل ينبغى أن يتوقع الإنسان من أخيه الأخطاء ولكنه يعفو عنها وينساها لكى يستبقى الود ويبقى على الأصدقاء ، فقد يكون مع كل ما نسب إليه مظلوماً ، ولكنه لا يشتكى الظلم ولا يتبرم به وإنما ينتظر الرضا ويتوقعه :

ولست بمستبق أخا لا تلمه	على شعث أى الرجال المهذب
فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته	وإن تك ذا عتبى فمئتك يعتب ^(٣٤)

(٣٢) العشماوى [ب] ٩٦ (٣٣) الزوزنى ١٥٩ (٣٤) العشماوى [ب] ٨٥

ومن فضيلة الحلم أيضا عند العربي الجاهلي أن النابغة لما علم - وكان غائبا - أن قومَه فد هجسوا عدوهم عامرا بن الطفيل بعد هزيمته أمامهم ، وإصراره رغم الهزيمة على إشعال حرب أخرى مع قوم النابغة ، فهجوه وأفحشوا في هجائهم . لما علم النابغة ذلك لام قومه ، ثم قال شعرا يخطئ فيه عامر بن الطفيل هذا لتهوره ومهاجمته قوم النابغة ، ولكنه شعر رجل رزين ناضج لا يفحش في القول ، ولكنه يقوله بنفس الروح التي عرفناها للنابغة - كما يقول الدكتور العشماوى - روح السلام المحافظة على شرف قبيلته في حدود سياسته الهادئة التي تسعى إلى اجتذاب الناس في غير عنف أو خصومة فيقول :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلا	فإن مطيةَ الجهلِ الشبابُ
فإنك سوب تحلم أو تباهى	إذا ماشبت أو شاب الغرابُ
فكن كأبيك أو كأبى براءٍ	توافقك الحكومة والصوابُ
فلا تذهب بحلمك طامنات	من الخيلاء ليس لهن بابُ

فانتظر إلى النابغة يحدث عامرا بن الطفيل حديث الأب الشيخ ، أو قل حديث المجرب الحليم الذى يسفه خصمه ويخطئه فى ترفع ووقار هما أبلغ من الهجوم والفحش^(٣٥) ، ونقول من كل ذلك إن العربي الجاهلي لم يكن على إدراك فقط للفضائل والقيم ، بل كان يمارسها فعلا .

والعفو قد يكون أيضا أحد الوسائل لتماسك الجماعة ، فقد يحدث أن يقتل رجلاً رجلاً آخر من نفس قبيلته ، وهنا يتحتم القصاص ، وقد يخشى القوم أن يؤدي ذلك إلى انشقاق فى القبيلة وتصدع فى بنائها المتحد المتماسك ، فتضعف القبيلة بعد قوة ، ولقد هدام النضوج العقلى والتطور الاجتماعى - كما يقول

الدكتور العشماوى-إلى طريقة للعفو عن القاتل ، فلولىّ المقتول أن يعفو عن القاتل ويرون أن ذلك أسلم حقنا للدماء ، وحفظا للقبيلة من الفناء . يقول الشاعر :

قومى همو قتلوا أميمَ أخى فإذا رميتُ يصيبنى سهمى
فلئن عفوتُ لأعفونَ جلا ولئن سطوتُ لأوهنن عظمى^(٣٦)

فلقد كان العربى الجاهلى يمارس فضيلتى العفو والحلم فى حياته الواقعية .

الوفاء :

وهو أيضا من الفضائل الأصيلة لدى العربى الجاهلى ، ويظهر هذا الوفاء فى صور متعددة ، ومن أبرز هذه الصور زيارة الأطلال والوقوف عليها ، فهى مراتع الصبا وفيها ذكريات عزيزة على العربى ، فلا أقل من زيارتها والتحسر عليها إذا غاب الإنسان عنها ، حتى أصبح الوقوف على الأطلال سمة بارزة فى الشعر الجاهلى ، فهذه معلقة لببدا كالعادة بالوقوف على الديار ووصف ما تبقى من آثارها بعد أن نزع عنها أصحابها :

عفت الديارُ محلَّها فمقامُها بمنى تأبَدُ غولُها فرجامُها
فمدافعُ الرِّيانِ عرَى رسمُها خَلِقًا كما ضَمِنَ الوَحْيُ سِلامُها
دِمْنٌ تجرَّمُ بَعْدَ عهدِ أنيسِها حَجَجَ خَلَوْنَ حلالُها وجرامُها^(٣٧)

ومن الوقوف أيضا على الديار ، قول امرئ القيس فى مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخولِ فحوملِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعف رسمُها لما نسجتها من جنوبٍ وشمالِ
كأنى غداةَ البينِ يومَ تحمّلوا لدى سمراتِ الحى ناقفِ حنظلِ

(٣٦) العشماوى [ب] ١٢٩ (٣٧) العشماوى [أ] ١٤٦-١٤٧

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل^(٣٨)

ومن الوفاء الاعتراف بالجميل ؛ ومن هذا الوفاء شعر للنابغة يمدح به
النعمان وائل بن الجلاح الكلبى ، وكان قائدا للحارث بن أبى شمر الغسانى الذى
أخرجه على رأس حملة لمحاربة قوم النابغة رغم أن النابغة كان صديقا
للغساسنة ، وانتصر هذا القائد على قوم النابغة ، وأخذ منهم الأسرى والسبايا من
النساء ، ولكن الجلاح عملا بصداقته مع النابغة ، خلص قوم النابغة من الأسر
وأطلق سراحهم ، فما كان من النابغة إلا أن سار إليه شاكرًا له فضله :

لعمرى لنعم الحى صبح سربنا	وأبياتنا يوما بذات المراد
يقودهم النعمان منه بمصحف	وكيد يعم الخارجى مناجد
فأب بأبكار وعون عقائل	أوانس يحميها امرؤ غير زاهد
غرائر لم يلقين بأساء قبلها	لدى بن الجلاح ما يتقن بوافد ^(٣٩)

ومما يدل على أن الوفاء كان سلوكا عربيا أصيلا فى العصر الجاهلى ، تلك
الاعتذاريات التى للنابغة الذبياني والموجهة لصديقه النعمان بن المنذر ملك
الحيرة بعد الواقعة التى حدثت بينهما ، إلا أن النعمان قد مرض بعد ذلك مرضا
لا يرجى منه ، غير أن النابغة لم يزد إلا تمسكا بصداقته ، فترى عواطف الشاعر
تتحرك فى صدق نحو صاحبه ، وتحس فى مطلع القصيدة التى سوف نعرض
بعضها بالأحزان التى تأخذ بالنفس فيضيق لها الصدر ، ويود الشاعر لو يفيض
بها إلى أحد من الناس أو يرفه عن نفسه بالشكوى فلا يجد إلى ذلك سبيلا :

كتمتْكِ ليلا بالحمومينِ ساهرا	وهَمَّينِ هما مستكنا وظاهرا
أحاديثِ نفسِ تشتكى ما يُريئُها	ووردَ همومٍ لم يجدنِ مصادرا

تكلفني أن يغفل الدهر همها وهل وجدت قبلي على الدهر قادرا

ولم يكن هذا الاعتذار تملقا من النابغة ، فهو لم يعد يخشى النعمان الذي كان في أيامه الأخيرة ، ولكن الوفاء هو الذي حرك عاطفته^(٤٠).

المطالبة بالثأر والواجب نحو العشيرة :

المطالبة بالثأر والإلحاح عليه من الفضائل التي تتحلى بها المجتمعات القبلية الصحراوية ، والثأر هنا لا يعتبر حقا شخصيا ، بل حق قبلي ، التهاون فيه نهبون في حق القبيلة وكرامتها ، والإلحاح على طلبه فضيلة يثاب العربي الجاهلي عليها ؛ فالثأر عندهم أصبح شيئا مقدسا أشبه شيء بالعقائد الراسخة ، فالرجل من هؤلاء إذا كان له ثأر فإنه يُحرّم على نفسه شرب الخمر ، وغير ذلك من لذائذ الحياة ، ويصوم عن متاع الدنيا ، ولن تهدأ له نفس أو تقر له عين حتى يأخذ بثأره ، عندئذ تهدأ نفسه ويمارس حياته العادية ، فمن ذلك قول قيس بن الحطيم عندما أدرك ثأره من قاتلي أبيه :

متى يأت هذا الموتُ لا تلف حاجة
لنفسى إلا قضيت قضاءها
ثأرت عديا والحطيم فلم أضع
ولاية أشياخ جعلت فداءها^(٤١)

ومن فضائل العربي القديم ، إدراكه لواجبه نحو قومه وعشيرته ، فهذا طرفة بن العبد يستجيب لقومه حتى إذا لم يدعوه هو شخصيا ، فمتى ما طلبوا فتى شجاعا ، ظن فوراً أنه هو المطلوب فلبى دعوتهم فوراً بدون إبطاء . يقول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى
عنيت فلم أكسل ولم أتبدل

(٤٠) العشموى [ب] ٩٧-٩٨ (٤١) العشموى [أ] ١٤٣

ولكن متى يستترفد القوم أرفد^(٤٢) ولست بحلال التلال مخافة

المسالمة :

هذا ورغم حياة الأخطار والمخاوف التي يتعرض لها العربي الجاهلي ، والتي تفرض عليه سلوكا عدوانيا شرسا حبا في البقاء ، ورغم الحروب والتارات التي تقوم بينهم وقد تستمر عشرات السنين كما حدث في حرب داحس والغبراء ، فإن العربي الجاهلي كان مع ذلك له وجه آخر هو حبه للمسالمة والعيش في هدوء وطمأنينة ، مما يدل على أنه لم يكن بعيدا عن هذه الفضيلة ، فهذا النابغة الذبياني يكره أن تكون بينه وبين الناس خصومة ، ويستنكر من بني عامر أن يفرضوا عليه خصومة قبيلة أخرى هي قبيلة بني أسد ، فإذا تشابكت القبائل في حروبها وعداواتها ، فالأفضل أن يسود السلام الجميع ؛ يقول النابغة :

فصالحونا جميعا إن بدا لكم
إني لأخشى عليكم أن يكون لكم
أو تزجروا مكفهرًا لا كفاء له
ولا تقولوا لنا أمثالها عام
من أجل بغضائهم يوما كأيام
كالليل يخلطُ أحراما بأحرام^(٤٣)

وهذا زهير بن أبي سلمى ، يُنفّر من الحرب وأهوالها بأبيات من الشعر تفيض سلاما ، وتعبر عن شخص عانى أهوالها وآلامها ، فأنتم متى بعثتم الحرب فسوف تأتي ذميمة منكرة ، ويزداد أوارها متى شنتم ذلك فتطحنكم كما تطحن الرحي الثقيلة الحبوب ، ولن يحدث ذلك مرة واحدة ، بل مرتين في العام ، وسوف يولد لكم في هذه الحرب أبناء شؤم مثل أبناء عاد الذين عقروا الناقة :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وما هو عنها بالحديث المرجم
وتضر إذا ضرّيتموها فتضرم

(٤٢) العثماني | ١ | ١٩٤ (٤٣) العثماني | ب | ١٥١

فتعركم عرك الرحي بقالها
فتنتج لكم غلمان أشام كلهم
وتلقح كشافا ثم تنتج فتنام
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم^(٤٤)
وهذا زهير بن أبى سلمى مرة أخرى ، يقرظ ويعلى من شأن قبيلتى ذبيان
وعبس المتحاربين ، ويمدح لهما أنهما بعد العداوة الطويلة قد تداركتا الأمر ، ولم
تدخرا وسعا فى حقن الدماء بالتضحية بالمال واستعمال المعروف ، فأصبحتا
بذلك فى أفضل مكانة ، بعيدتين عن قطع الرحم ، وقد تبوأتا بصلحهما هذا مكانة
عظيمة :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
بمالٍ ومعروفٍ من القولِ نسلم
فأصبحتما منها على خيرٍ موطنٍ
وعظيمين فى عليا معد هديتسا
ومن يستبج كنزا من المجد يعظم^(٤٥)

ها قد انتهينا من عرض الفضائل والقيم عند العرب فى العصر الجاهلى ،
ورأينا أن الدين لم يكن ذا تأثير قوى على الأخلاق ، ومع ذلك كانت لهم فضائلهم
وقيمهم ، فرأينا فى النثر العربى كيف يؤثر العربى أخاه - أى صديقه - على
نفسه ، وكيف أن العربى كان يحسن الظن بأخيه - أى صديقه - فيلتمس له الأعذار ،
ورأينا أن العربى قد أدرك فكرة "الضمير" وإن اعتقد مثل معظم الشعوب القديمة
أنه يسكن فى الفؤاد - أى القلب - ورأينا أن العربى يطالب بإنجاز الوعد والوفاء
به ، أما عن العفة والكرامة فكانت سمة للمرأة الجاهلية "الحرّة" ، حتى أنها تجوع
ولا تأكل بثدييها ، و"الإنسان الحر" لا يفرط فى كرامته حتى لو تعرض للموت ،
ورأينا أيضا أنهم أدركوا قيمة العدالة ، وقالوا "إن ليس من العدل سرعة العدل" .

(٤٤) الزوزنى ١٤٧-١٤٩ (٤٥) الزوزنى ١٤٣-١٤٤

أما عن فضائل العرب قبل الإسلام التي عثرنا عليها في الشعر الجاهلي ، فكثيرة متنوعة ، ولعل الشجاعة والبطولة والحماس تكون أبرز هذه الفضائل حتى أنهم يحتضنون الموت احتضانا ، غير أن العربي الجاهلي لم يكن يتحلى بالشجاعة من أجل الحرب فقط ، بل يتحلى بها أيضا من أجل سبب آخر طريف وهو أن يتحدى الصعاب ويغلب الحراس كي يصل إلى محبوبته ، أما الكرم والشهامة والإحسان فهي من الفضائل التي يفخر بها العربي ، وهو لا يمارس هذه الفضائل مع المحتاجين ، أو لنجدة الملهوف فحسب ، بل يمارسها أيضا مع ندمائه وأقرانه عند الشراب ، فيبذل لهم أعلى الخمر وينحر لهم أفضل الذبائح . كما كان العربي القديم يتغنى بالأمانة وصيانة العهد ويجزع من الخيانة ، ورأينا أشعار النابغة الذبياني وقد فاضت بكل ذلك ، كما فاضت بفضائل العفو والحلم والحكمة ، وقد رأينا كيف أن العربي كان يتلهف على تلبية نداء العشيرة فيقوم بالواجب نحوها ، وأنه كان لا يهدأ له بال حتى ينال الثأر ، وكان الثأر فضيلة . وأخيرا شاهدنا حب العربي القديم للسلام ، فرغم أن حياة هذا الإنسان كانت مفعمة بالقسوة والعنف ، إلا أنه كان مع ذلك يرنو إلى السلام ، ولقد اطلعنا على أشعار زهير بن أبي سلمى التي يتغنى فيها بالسلام ، ولا بأس أن نعيدها مرة أخرى :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتموا	وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتضر إذا ضررتيتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحي يتقالها	وتلح كشافا ثم تنتج فتتام
فنتج لكم غلمان أشام كلهم	كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

كل هذه الفضائل والقيم ، مارسها العربي قبل الإسلام ، وهي جميعا أو معظمها فضائل بدوية صحراوية ، يمكن أن نشهدها في أي بيئة صحراوية

أخرى تخضع لقسوة الطبيعة وشظف العيش ، بحيث يمكننا أن نطمئن إلى حد كبير إلى أنها لم تتأثر بالدينين اليهودى والمسيحى اللذين كانا موجودين فى بعض مناطق الجزيرة العربية ، وهذا معناه - إن صَحَّ - أن العربى الجاهلى قد أنشأ فضائله وقيمه على عاتقه، وأن هذه الفضائل والقيم كانت نابعةً من صميم حياته ، وهى لم تختلف عن تلك التى جاءت فى الكتب الإلهية .

الخاتمة

لعلنا نكون قد أثبتنا في هذا الكتاب أن أصحاب الديانات الإنسانية ، كانت لهم فضائلهم وقيمهم ، وأن هذه الفضائل والقيم قد وصلت عند بعض ذوى الديانات الإنسانية إلى مستوى قريب جدا أو حتى متطابق مع الفضائل والقيم عند أصحاب الديانات الإلهية ، فلقد رأينا أن المصريين القدماء هم وفراعنتهم قد توصلوا إلى مفهوم "الضمير" ، المحرك الأساسى للأخلاق ، وأنهم اهتموا اهتماما شديدا بالعدالة الاجتماعية والمساواة أمام الله والقانون بين جميع الناس ، فلا تحيز ضد الفقير الذى يلبس الملابس القذرة لصالح الشريف الذى يلبس الكتان لأن التحيز يعد طغيانا على الإله ، كما حثوا على الطهر والعفة والابتعاد عن الزنا الذى هو أكبر الكبائر ، وحثوا على التعاطف مع الفقير (فلا تمنع أناسا من عبور النهر ، وخذ الأجر من الرجل صاحب الثروة ورحب بمن لا يملك شيئا) ، كما عطفوا على كبار السن و الآباء (ضاعف مقدار الخبز الذى تعطيه لوالدتك) ، وعلى ذوى العاهات (فلا تهزان من قزم ولا تفسدن قصد رجل أعرج) ، كما اهتموا اهتماما خاصا بالنزاهة والأمانة وعدم الغش فى الموازين والمكاييل (فإن المكيال الذى يعطيك الله خير لك من خمسة آلاف تكسبها بالبغى) .

ننتقل بعد ذلك إلى البابليين لنرى أنهم قد أدركوا الرحمة والشفقة والصدق ، كما كان الإله شماس - وهو إله العدالة - يبغض الشرير ، أما من يحنث فى يمينه فإن شماس يعجل له نهايته هو ومن يرفع بصره إلى زوجة رفيقه . ولن ننسى قانون حامورابى الذى اهتم بالعدالة والخير . ثم رأينا كيف أن أورو كاجينا المصلح الاجتماعى السومرى قد حارب الرشوة التى انتشرت فى المعابد .

أما الفرس فقد عرفوا كثيرا من الفضائل والقيم حيث دعا زرادشت إلى الاستقامة واخماد روح الشر ، بل لقد جعل من الحق والخير والحكمة أقانيم لله تعالى وطالب بقول الحق وترك الكذب والسرقة ، والبعد عن الزنا ، وبعد ذلك طالب ماني ابن فاتك أن لا يأتي الإنسان على ذي روح بما يكره أن يؤتى إليه بمثله .

أما الهندوس فقد اهتموا بالفكر الصالح والوفاء والتسامح مع أصحاب العقائد الأخرى ، وأن لا نفكر بشر نحو البشر ، ولقد اهتم الهندوس بالنظافة والطهر (والعمل على طهارة النفس و حفظ العرض والنسل والتمسك بنصائح هؤلاء الملهمين مع الإخلاص والتضرع والخشوع) . أما بالنسبة للنساء فلهم منزلة رفيعة عند الهندوس؛ فقد قرر المشرع مانو أنه (لا يجوز ضربهن حتى بزهره) وهو تشريع بلغ درجة عالية في رفته ونبله .

ثم رأينا كيف حفلت البوذية بالفضائل والقيم ، ومن أهمها كبح الجراح ووأد الشهوات والطهارة التي هي عند بوذا أن لا تؤذى مخلوقا قط ، ولا نمارس الحرام بأيدينا أو حواسنا (فالعين التي تصان عن الحرام فاضلة وهكذا الأذن التي تصان والأنف الذي يسان كلها فاضلة) . والأهم من كل ذلك الطهر من الباطن ، إنه طهر الضمير ، ورأينا كيف طالب بوذا بالصدق وعدم النفاق والرحمة (فالذي يسميه برهمانيا لا يعذب مخلوقا ضعيفا) ، كما طالب بحب الآخرين والوفاء لهم ، والقاضي لا بد أن يكون عادلا وإلا ستحيق به سلسلة من المصائب ، كما اهتم بوذا بالمساواة بين البشر . ثم رأينا كيف أن البوذية في اليابان قد حفلت - إلى جانب ذلك - بالحب المتبادل بين الطغاة والشعب ، مع احترام كبار السن والأمراء بدرجة كبيرة .

ثم رأينا بعد ذلك كيف أن كونفشيوس كان يطلب أن تحب لأخيك ما تحب

لنفسك ، وهي القاعدة الذهبية للأخلاق ، كما طالب بالقناعة للدولة جميعها حتى لا تضطر لمحاربة جيرانها ، كما طالب بالرحمة بالمسنين والأرامل . ولم يكن كل ذلك طمعا في الجنة أو خوفا من النار ، فقد نحاها جانبا ، وإنما إرضاءا للضمير . ولقد أصبحت الثقافة فضيلة على يديه ، ربما لأول مرة في التاريخ ، ولا ننسى دوق جَدّ الذي طالب بحرية الرأي فضيلة في وقت مبكر من التاريخ .

ثم رأينا بعد ذلك كيف أن اليونانيين اهتموا بالعفة والطهارة والفضيلة من أجل الخلاص ، وكيف أحبوا العدالة وكرهوا الرشوة والفساد ، كما كانوا أول من اهتم بتطبيق الديمقراطية ، ومعناها المساواة بين المواطنين ، وهم بعد كل ذلك أول من نظر للأخلاق في التاريخ ، أما فضائل القسوة والكذب والغدر التي كانت عندهم في عصر الأخيين ، فلقد تخلوا عنها في العصور التالية . ولن ننسى قَتَم أبوقراط الذي حفل بباقة من الفضائل التي مازال معظمها صالحا حتى اليوم . ثم رأينا كيف أن الرواقيين طالبوا بالسيطرة على النفس والزهد وواد الشهوات .

أما الرومان فقد رأينا كيف أن دينهم كان يدعو إلى فضائل الأخلاق وكيف أن الأسرة قد قامت على أساس من الاحترام المتبادل والتقوى ، وكيف أن الفتيات كنَّ يحافظن على عفتهم ، ورأينا أن الروماني كان أميناً على أموال الدولة ، وكيف ضرب الرومان أروع مثل في التمسك بالواجب والوفاء بالوعد حين أعادوا الأسير الروماني الهارب مصفدا بالأغلال إلى القائد هانيبال .

أما عند العرب فقد رأينا كيف يُؤثِرُ العربي أخاه (أي صديقه) على نفسه ، وكيف تحافظ المرأة على شرفها (تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها) كما يحافظ الرجل على كرامته مهما اشتدت عليه وطأة الحياة (المنية ولا الدنية) ، كما يأمرن بالعدل (ليس من العدل سرعة العدل) ، أما الشجاعة والبطولة والكرم وإجارة المستجير والواجب نحو العشيرة ، فهي من أسمى الفضائل عند العربي الجاهلي ، هذا إلى أنه كان - رغم قسوته - يميل إلى الحلم والعفو . وأخيرا رأينا

أن العربي - إلى جانب حبه للقتال والإغارة على جيرانه - كان محبا للسلام ويرنو إليه ، ونكتفى بهذا القدر .

لاشك أن القارئ لا بد أن يكون قد لاحظ أن كافة هذه الفضائل والقيم تكاد تكون متطابقة مع ما جاء به الوحي إلا قليلا جدا مثل القسوة عند الآشوريين ، والكذب والخداع عند اليونان في عصر الأخيين ، وبعض القيم عند اليابانيين ، فإن مثل هذه الفضائل والقيم ما تلبث أن تتغير في العصور التالية بعد أن تؤدي وظيفتها كما رأينا عند اليونان وتصبح بعد ذلك من الرذائل ، بل إن هناك بعض القيم عند ذوى الأديان الإنسانية التي تسترعى الاهتمام ، فمن ضمن آيات البرهمانى مثلا أن تكون معانيه واضحة ، أى أن البوذى لا بد أن يتمتع بوضوح المعانى ، ومن ضمن القيم التي تسترعى الاهتمام أيضا عند البوذية هو ضرورة أن تكون لك وجهة نظر واضحة جلية " ومن بين كل الناس الذين يملكون وجهات نظر ، فالأفضل فيهم من تكون وجهة نظره واضحة نيرة " . كل ذلك يؤكد أن ذوى الأديان الإنسانية كانت لهم فضائلهم وقيمهم الجديرة بالاحترام . فلو تبين ذلك لبعض أصحاب الديانات الإلهية الذين يعتقدون أنهم فقط أصحاب الفضائل والقيم التي لا توجد إلا فى أديانهم باعتبارها إملاءا من الوحي الإلهى ، وأنها لا يمكن أن توجد خارج الوحي ، لو تبين لهم ذلك لقلَّ رفضهم لأصحاب الديانات الإنسانية وأصبحوا أكثر قبولا لهم باعتبارهم يشتركون معهم فى حبهم للفضيلة والخير، وكراهيتهم للرديلة والشر وليس لتحليلهم بفضائل معينة ، المهم هو وجود الإرادة الخيرة . وحتى أولئك الذين يختلفون معنا فى فضائلهم وقيمهم كوفاء الساموراي تجاه أمرائهم عند وفاتهم مثلا ، فليس لنا أن نرفضهم، بل علينا أن نتفهم فضائلهم داخل ثقافتهم ، دون أن نكون ملزمين بقبولها ضرورة فالفضائل والقيم بنيوية ، أى تكون أنساقا متكاملة بعناصرها ، وترتبط ارتباطا وثيقا

بظروف حياة أصحابها التي تؤثر حتما على هذه الفضائل والقيم . فلا نحكم على قيمة من القيم منفصلة عن بيئتها الاجتماعية والجغرافية .

وما دام الإنسان ذو الدين الإنساني قد عرف الفضائل والقيم دون أن يتاح له الالتقاء بدين إلهي، فالفضائل والقيم إذن إنسانية واجتماعية، ونستطيع أن نضيف إليها بعدا ثالثا : وأنها أيضا جغرافية كما رأينا عند العرب الذين سادت لديهم فضائل الشجاعة والبطولة والكرم ، وهي جميعا من فضائل الصحراء في أى مكان . وهذا يعنى - بالنسبة لهذه الخصيصة - أن المناطق الدفيئة مثلا ، تختلف في فضائلها وقيمها بعض الاختلاف عن المناطق المتجمدة ، والمناطق الممطرة تختلف عن المناطق الصحراوية الجافة . وهو يعنى بمعنى آخر أنه من الخطأ منهجيا أن نقارن بين الفضائل والقيم في منطقتين مختلفتين اختلافا جغرافيا حادا ، فالكرم عند الإسكيمو مثلا يصل إلى درجة لا تتقبلها الشعوب الأخرى .

ونضيف أيضا خصيصة جديدة للفضائل والقيم ، وهي أنها تكون أحيانا تطويرية - وإن كنا لا نستطيع أن نعمم هذا الاتجاه التطورى على كل تغير يحدث في الأخلاق - فرغم أننا التزمنا بالمنهج الوصفي في هذا الكتاب ، غير أن ذلك لا يمنع أن نلاحظ اتجاها تطوريا في الأخلاق ، مرة في المجتمع الواحد ، ومرة أخرى في المجتمع الإنساني ككل ؛ فبالنسبة لتطور حدث في مجتمع واحد ما حدث في اليونان، فلقد كان الكذب والغدر والخداع والقسوة من ضمن الفضائل في عصر الآخيين - كما رأينا - ولكن هذه الفضائل لم تستمر في العصور التالية وهجرها أهلها بعد أن أدت وظيفتها فأصبحت من الرذائل ، وحلت محلها فضائل الكرم وتقديس النفس البشرية والعطف على العاجزين . . . إلخ . ومن مظاهر التطور الذي حدث في المجتمع الإنساني ككل ، أن تقاليد التدين عند بعض الشعوب كانت تتطلب التضحية بالأدميين - كما رأينا في اليونان وبابل - ولكن ازدياد التراحم منع هذه العادة ، وقد حدث نفس الشيء

بالنسبة لشعوب أخرى فحرمت حتى ذبح الحيوان قربانا للإله ، كما حدث فى الصين ؛ فهذه شعوب متباعدة مكانا وزمانا ولكن يجمعها اتجاه تطورى واحد . ونستطيع أن ندعم هذه النظرية أيضا بما نلاحظه من اتجاه أخلاقى معاصر بدأ ينمو فى كافة المجتمعات بالعالم ، سواء كانت ذوات أديان إنسانية أو سماوية ، وهو اتجاه قائم أساسا على احترام الشخص البشرى ، واعتباره غاية فى ذاته ، بل احترام الكائن الحى عموما ، مما يؤيد الاتجاه التطورى من ناحية ، ويوحى بأن الفضائل والقيم تقدمية أيضا من ناحية أخرى ، أى تسير فى اتجاه واحد ، غير أننا لا نضمن ذلك دائما ؛ ففي الأوقات التى تسود فيها الأحقاد والحروب لأسباب دينية أو عرقية أو طبقية أو غير ذلك ، تصبح لفضائل القسوة وقيمها وللغدر والكذب جاذبية خاصة قد لا يمكن مقاومتها لدى الكثيرين ، فيعودون إليها بعد أن كانوا قد هجروها إلى أن تزول أسباب الصراع .

وكما رأينا فى الفقرة السابقة أن الفضائل والقيم قد تكون تطورية أحيانا ، فإنها قد تكون " انبثاقية " أحيانا أخرى ، فتتبع بعض الفضائل والقيم عند شعب من الشعوب ، بحيث لا يكون لها نظير عند الشعوب الأخرى ؛ فلقد رأينا أن " الثقافة " و " وضوح المعانى " كانتا فضيلتين عند الكنفوشيوسيين والبوذيين ، وهما فضيلتان لم نلاحظهما عند شعب آخر من الشعوب التى قدمناها طبقا لمراجعتنا .

وكل ما سبق يؤكد للقارئ - بما لا يدع مجالا للشك - أن الفضائل والقيم نسبية تختلف من مجتمع لآخر ، بل قد تختلف فى المجتمع الواحد من عصر إلى عصر .

إن قول بعض فلاسفة الأخلاق بعدم نسبية الفضائل والقيم وأنها مطلقة ، كما نرى عند اللاهوتيين والعقليين ، فضلا عن أنه يجافى الواقع - على النحو الذى رأيناه - سوف يودى بالضرورة إلى رفضهم للأخر وعدم قبوله ، لأنه ربما لا

يشاركهم فى فضائلهم وقيمهم التى اعتبروها مطلقة ، وأنها - أى فضائلهم - أرقى الفضائل والقيم جميعا . و على ذلك فإن أصحاب هذه الفضائل والقيم المطلقة يعتبرون أنفسهم أفضل البشر، وأنهم مختارون ومميزون على الناس جميعا . وهنا يكون سبب من أسباب الاستعلاء الذى يؤدي بالضرورة إلى الصراع بين المجتمعات . أما القول بأن الفضائل والقيم نسبية - وهو ما أثبتته هذه الدراسة بالفعل - فإنه سوف يؤدي إلى عدم الاستعلاء ، مما يمهّد لقبول الآخر وعدم رفضه ، وزوال سبب رئيسى من أسباب الصراع بين الشعوب .

وأخيرا نرفض مع جيمس هنرى برستيد أن يكون هناك شعب بالذات ينفرد بالتمتع بالوحي الإلهى كما سبق أن ذكرنا بالمقدمة ، وإذا كان هناك شعب بالذات مختاراً من الله لما له من فضائل وقيم ، فإن كل الشعوب فى كل العصور عملت جاهدة للحصول على الفضائل والقيم ، وحققت نتائج طيبة على النحو الذى رأيناه دون أن يتاح لبعضها الاتصال بدين إلهى حيث حمل الإنسان المسئولية الخلقية على عاتقه ، ولم يقف مكتوف اليدين ، وبذلك نستطيع أن نقول - بهذا الاعتبار - أى باعتبار أن كل الناس يرنون إلى الفضائل والقيم :

إن كل الناس جميعا هم شعب الله المختار .

All People Are The God Selected People

إن الذى يسلك سلوكا خلقيا طيبا طبقا لتعاليم الوحي ، لاشك أنه إنسان فاضل، لكننا لا بد أن ننظرَ نظرةً مليئةً بالتقدير والاحترام أيضا لذلك الإنسان الذى صنع فضائله وقيمته بنفسه لأنه لم يتح له الالتقاء بدين إلهى ، ونستطيع أن نقول الآن - فى هذا العصر - أن كافة الشعوب يمكنها أن تتطلع على ما عند الشعوب الأخرى من فضائل وقيم لتثرى بها حياتها الخلقية ، فتتقارب الثقافات

ويقل الصراع كما سبق أن ألمحنا .

هذا ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أقدم أسفى و اعتذارى للشعوب التى لم أذكر فضائلها وقيمها ، أو التى ذكرت فضائلها وقيمها ولكنى قصرت فى هذا الذكر ، فإن ذلك يرجع إلى توفر المراجع التى أتاحت لى لبعض الشعوب دون غيرها ، ولعل باحثاً آخر يأتى فيجمع مزيداً من الفضائل والقيم التى لم تعرض لى ، فالبحت الخلقى ينبغى أن يستمر ، فنحن مازلنا قريبين من فجر الضمير كما قال بحق مؤرخ الأخلاق جيمس هنرى برستيد ، والمستقبل ما زال مفتوحاً أمام الإنسان لنمو الفضائل والقيم ، مما يؤذن بظهور فضائل وقيم جديدة لم نرها من قبل .

المراجع

أولا : المراجع العربية :

- أميرة : الفلسفة عند اليونان ، دكتورة أميرة حلمى سطر ، الناشر، دار النهضة العربية، شارع عبد الخالق ثروت ط ٣ - ١٩٦٨ .
- أمين : فجر الإسلام، الأستاذ أحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، ٩ شارع صدقى باشا بالقاهرة ط ١٢ - ١٩٧٨ .
- برستيد : فجر الضمير ، جيمس هنرى برستيد ، ترجمة الدكتور سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ .
- التفاضل : علم الكلام وبعض مشكلاته ، دكتور أبو الوفا التفتازانى . مكتبة القاهرة الحديثة .
- الجارم : أديان العرب فى الجاهلية . محمد نعمان الجارم . القاضى بالمحاكم الشرعية . مطبعة السعادة . بجوار محافظة مصر ١٩٢٣ .
- الخزاعى : أمثال العرب . أبو عبيد القاسم بن الإسلام الخزاعى . [مقدمة هذا الكتاب مكنوبة باللغة الألمانية . ويبدو أنه طبع ببلزج بألمانيا عام ١٩٢٨ . وهو موجود بمكتبة محافظة الإسكندرية تحت رقم ٣٦١٧ د] .
- ديورات : قصة الحضارة لول ديورانت . ترجمة د . زكى نجيب محمود وآخرين . نشر وزارة الثقافة . مكتبة الأسرة . شركة نهضة مصر للطباعة والنشر . القاهرة ٢٠٠١ .
- زرادشت : ترانيم زرادشت . ترجمة وتقديم دكتور فلييب عطية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة الألف كتاب رقم ١٣٣ القاهرة ١٩٩٣ .
- زكريا [أ] : المشكلة الخلقية . دكتور زكريا ابراهيم ، مكتبة مسر - ٣ شارع كامل صدقى بالفجالة القاهرة ١٩٦٩ .
- زكريا [ب] : مشكلة الحب . دكتور زكريا ابراهيم . مكتبة مصر . ٣ شارع كامل صدقى بالفجالة ط ٢ القاهرة ١٩٧٠ .
- الزوزنى : شرح المعلقات السبع للقاضى الإمام أبو عبد الله الحسين الزوزنى . مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٢ .
- سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام . الدكتور السيد عبد العزيز سالم مؤسسة الثقافة الجامعية . الإسكندرية . ١٩٧٣ .

سليم : مصر القديمة . الأدب المصرى القديم . الجزء ١٧ . دكتور سليم حسن . هيئة الكتاب
٠ ٢٠٠٠

الشحات : السريان والحضارة الإسلامية . دكتور الشحات السيد زغلول . الهيئة المصرية
العامة للكتاب الإسكندرية ١٩٧٥ .

شلبى : الأديان القديمة فى الشرق . مع ترجمة لكتاب البوذية . ط ٢ . دكتور رؤوف شلبى . دار
الشروق - ١٩٨٣ .

الشهرستانى : الملل والنحل للشهرستانى . تعديل وتقديم صدقى جميل العطار . دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع . حارة حريك شارع عبد النور . بيروت . لبنان . ١٩٩٩ .

الضبى : أمثال العرب للمفضل الضبى . طبعت برخصة نظارة المعارف الجليلة . تاريخ
الرخصة فى ربيع الأول وعددها ٨٨٨ [أى رقم الرخصة] . فى مطبعة الجوانب القسطنطينية
٠ ٥١٣٠٠

ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى . دكتور شوقى ضيف . دار المعارف . ط ٩ - ١٩٨٠ .
الطويل : الفلسفة الخلقية . نشأتها وتطورها . دكتور توفيق الطويل . ط ٢ . دار النهضة العربية .
الماهرة - ١٩٦٧ .

العشماوى [أ] : قضايا النقد والبلاغة . دكتور محمد زكى العشماوى . دار الكاتب العربى
للطباعة والنشر . الإسكندرية ١٩٦٧ .

العشماوى [ب] : النابغة الذبياني . دكتور محمد زكى العشماوى . دار المعارف بمصر .
غير محدد سنة الطبع .

كسانط : أسس ميتافيزيقا الأخلاق . ايمانويل كانط . ترجمة الدكتور محمد فتحى الشنيطى .
ملتزم الطبع والنشر مكتبة القاهرة الحديثة . ط ٢ - ١٩٦٥ .

الموسوعة : الموسوعة الفلسفية المختصرة . ترجمة الأساتذة : فؤاد كامل وجمال العشرى
وعبد الرشيد صادق . ومراجعة الدكتور زكى نجيب محمود . سلسلة الألف كتاب ٤٨١ . مكتبة
الأنجلو المصرية . غير موضح سنة الطبع .

ويدجرى : التاريخ وكيف يفسرونه من كونفشيوس إلى توينبى . ألبان ج . ويدجرى . ترجمة
الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد . الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٢ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

كامبردج :

Cambridge : International Dictionary Of English , Cambridge University Press , 1995 .

كشاف الفضائل والقيم

(أ)		
المحبة بين البشر: ١٧٩	الإيثار: ١٨٨	
محبة الصواب: ٨٥	الأخوة بين البشر: ١٨٠	
محبة الناس: ٤٥-١٤٠-١١٧	آداب المجتمع والسلوك: ٤٨-٩٦	
الحرية: ١٢٢-١٣٩	أداء الواجب: ١٢٩	
الحرية الاجتماعية: ٩٥	التأمل: ١٦٢	
حرية الرأي: ١٣٨	الأمانة: ٣٠-٩٤-١٠٣-١١٧-١٧٦-١٩٦	
الاحترام: ١٧٥	الأمانة في الرأي: ١٢٩	
احترام الإنسان: ١٧٩	(ب)	
احترام كبار السن وذوى العاهات: ٥٢	البر: ٨٤-٩٢	
محاسبة الذات: ١٠١	البر بالوعد	
الاحسان: ٩٥-١٩٤	البر بين	
حفظ حياة الآخرين: ١١٧	الندوة: ١٦٧	
الحق: ٨١-٨٣-٨٤-١١٠	أبشاشة: ١٦٧	
الحكمة: ١١٣-١٢٩-١٦١-١٦٢-١٦٥	الاستبصار: ١٦٥	
١٨٨-	البعد عن الشر: ٦٣	
الحلم: ١١٠-١٩٨	الابتعاد عن الطموح: ١٦٧	
(خ)		
الخداع والقسوة: ١٥٠	(ت)	
الإخلاص: ١٣٣	التقى: ٨١-١١٩-١٦١-١٦٧-١٧٥	
الخلق الفاضل: ١٩٧	(ث)	
الخير: ٦٨-٧٢-٧٥-١١٠-١١٩-١٣١	الثار: ٢٠٢	
جاءت في معظم صفحات الكتاب	(ح)	
للخير الأسمى أو الأقصى: ٨٣-١٦٢-	الثقافة: ١٣١	
١٦٦	حب الآخرين: ١٠٧	
	حب لأخيك ماتحب لنفسك: ١٣٤	

الصدق: ٣٨-٦٣-١٠٤-١١٧-١١٩-	(ذ)	الذكاء: ١٣١
١٣٣ - ١٣١		
الصدافاة: ١٦٧	(ر)	
الصلاح: ٨١-١٣٩-١٦٠-	الرحمة أو التراحم: ٤٦-٩٢-١٠٦-١١٨-١٢٢-	
صيانة النفس: ٨١	١٣٢-١٢٤	
(ض)	الرحمة بالمسنين والأرامل: ١٣٥-١٧٩	
ضبط الشهوات: انظر وأد الشهوات	الرفقة في معاملة النساء: ٩١	
ضبط النفس: انظر وأد الشهوات	رفقة الحاشية: ١٠٦	
الضمير: ١٤١-١٤٢-١٥٥-١٨٩	راحة الضمير: ٣٧	
(ط)	(ز)	
الطهر: ٣٨-٦٧-٩١-١٠٣-١٢٤-	الزهد: ١١٠-١٢٢-١٦٧	
١٧١-١٥٤-١٣١	(س)	
طمأنينة العقل: ١٦٧	التسبيح: ٨٤	
الطاعة: ١٢٣	السلام والمسالمة: ٩٤-١٣٩-١٨٠-٢٠٣	
طيب الذكر: ٥١	التسامح: ٩٢-٩٥-١٧٩-١٨٩	
(ع)	المساواة: ٣٠-٤٢-١١٩	
التعبد: ١٦١	سيادة الخير: ٨١	
الاعتدال: ١٦٤	(ش)	
العدل والعدالة: ٣٠-٦٣-٦٨-٧٢-٨١-	الشجاعة والبطولة: ١٣١-١٦١-١٦٢-١٦٥-	
١٧٧-١٦٥-١٦٢-١١٠١٥٦-٩٢	١٩٦-١٩٢	
١٩٧-١٩١	الشعور بالحق: ٥٧	
العدالة في توزيع الثروة: ٢٣٥	الشفقة: ٤٥-١١٧	
الاعتدال: ٥٧-١٦١-١٦٧	الشهامة: ١٢٣-١٩٤	
الاعتدال في شرب الخمر: ٩٤	الشورى: ١١٨	
عدم البخل: ٨٤	(ص)	
عدم الحقد: ١٠٧	الصبر: ١١٠	
عدم ارتكاب الظلم: ٨٥	مصاحبة الصالحين: ١١٦	

الفضائل :جاءت في معظم صفحات الكتاب .

(ق)

التقديس: ٨٤

تقديس النفس البشرية: ١٥٣

قَسَم أبوقراط: ١٥٧-٥٤

التكشيف: ١٦١

القضاء على الفساد: ٨١

القناعة: ٣٨-١٠٨-١٣٢

القناعة للدولة: ١٣٥

القول الجميل: ١٨٩

الاستقامة: ٨١-١٦٠

القيم:جاءت في معظم صفحات الكتاب .

(ك)

كبح الجماح: ١٠١-١٧١

كبح الشهوات: ١٧١

الكرم: ١٥١-١٥٥-١٦٢-١٩٤

كراهية الشر: ٧٥

كراهية الفساد والرشوة: ١٥٦

مكافأة المجد: ٨٥

الكلام الطيب: ٨٤

الكمال: ١٦٢-١٦٥

(ن)

النبيل: ١٦٦

انجاز الوعد: ١٩٠

النزاهة: ١٢٣

النظر المجرد: ١٦٢

النظافة: ٩٦

النظام: ١٧٦

عدم الزنا: ٨٤-١١٢

عدم السرقة: ٨٤

عدم معاملة الآخر بما تكرهه : ٨٤

عدم الغش : ١٧٦

عدم الكذب : ٨٤

عدم النفاق: ١٠٤

عدم التهرب من الواجب: ١٠٨

المعرفة: ١٣٠-١٩٥

المعروف: ١٦٧

الاعتراف بالخطأ: ٥٧

العطف والتعاطف: ٤٦-١٠٦-١٣٢-١٥١

العطف على العاجزين: ١٥٥

العطف على الموتى: ١٥٢

تعظيم الأبناء للأباء: ١٧٣

العنة والتعنف: ٣٨-٦٣-٦٧-٧٢-٧٥-

١٠٣-١٠٤-١١٧-١٢-١٥٤-١٦٥-١٦٧-

١٧٥-١٩٠-١٩٦

العلو: ١٩٨

معاينة الكذاب: ٨٥

العقل الخبير: ٨١

التعقل: ١١٣

العمل للصالح والعمل الجاد: ٩١-١٣٣

العمل الطيب: ١١٥

المعاني المجردة: ١٦٠

عناية الأخ بأخيه: ١٨٨

العرش وفقا للطبيعة: ١٦٤

(ف)

الفكر الصالح: ٩٠

التفكير: ١١٣-١٣٢

(هـ)

المهابة: ٣٠

(و)

وأد الشهوات أو ضبطها: ١٠١-١٦٢-١٦٤-

١٦٧

الواجب: ١٦٠-١٦٥-٢٠٢

الورع: انظر التقوى

الوسط بين نقيضين: ١٦٢

الأوساط الذهبية: ١٦١-١٦٢

الوسطية: ١٣٢

سعة الفكر: ١٣١

وضوح المعانى: ١٠٤-١٢٩

التواضع: ٤٥-١١٠-١٣٢-١٦٤

الوفاء: ٩١-١٠٨-١٢٣-١٩٧

الوفاء بالعهد: ١٠٨-١٧٦

الوقار: ١٣٢

بطاقة الفهرسة

شمس الدين، جلال

الفضائل والقيم لدى الشعوب القديمة ذوات الاديان الانسانية / جلال شمس الدين

ط ١ - الاسكندرية

مؤسسة الثقافة الجامعية، ٢٠٠٦

٢٢٠ صفحة، ١٧ x ٢٤ سم

١- القيم الاخلاقية

أ- العنوان ٢٠٢ / ١٧٠

رقم الايداع

٢٠٠٦ / ٢٢٣٦٠

منتہی سورا الاز بکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET